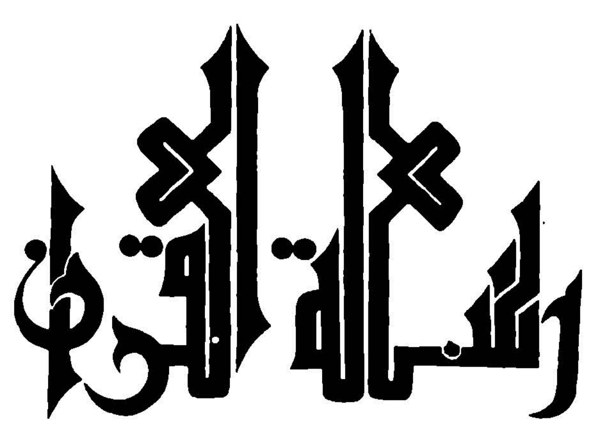
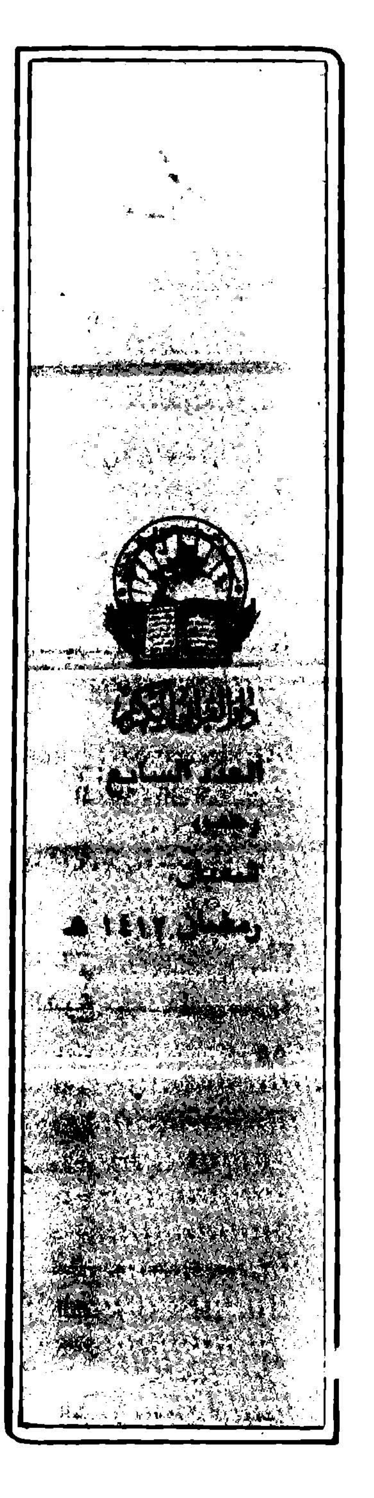


العدد السابع • رجب، شعبان، رمضان ١٤١٢ هـ

وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض



نشرة فصليّة تعنى بالشّؤون القرآنيّة
تصدرها دار القرآن الكريم



المراسلات:

الجمهورية الاسلامية الايرانية

قم-دارالقرآن الكريم

ص.ب ٣٧١٨٥/١٥١

- النشرة متخصصة بالدراسات والشؤون القرآنية
- ترحب رسالة القرآن بكل نتاج ينسجم واهتماماتها القرآنية.
- ترتيب المقالات يخضع لاعتبارات فنية.
- ما يرد في المقالات من افكار يتحمل الكاتب مسؤوليتها
- النشرة غير ملزمة بأعادة المواد التي تتلقاها للنشر.

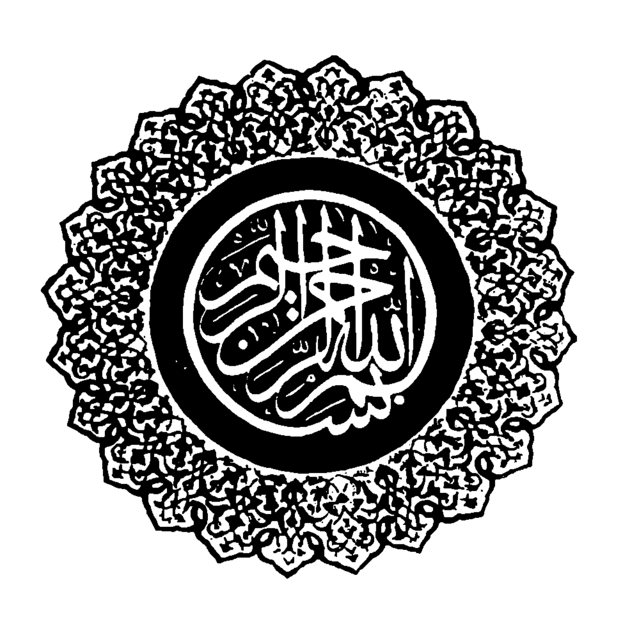
الثمن: ٥٠ توماناً أو مايعادلها

المحتويات

● فقه القرآن

● دراسات عامة

● منتدى الرسالة


بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الرسالة

مؤسساتنا الإسلامية: هل إرتقت إلى مسؤولياتها؟

فَإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّه إنَّ اللّه يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين. آل عمران: ١٥٩



لايختلف منصفان بأن المؤسسات الثقافية هي من أهم عناصر أبعاد ثقافة المجتمع، والتي تساهم مساهمة فعالة في تحديد أنماط تفكيره ومشاعره، وصقل هويته العقائدية وشخصيته الفكرية.

وقد لعبت، في هذا الاتجاه، المؤسسات الاسلامية دوراً مهماً ونوعياً من خلال المساجد، والكتاتيب،والمدارس، والحلقات الدراسية، والمعاهد الدينية.. ولا يخفى الدور العظيم الذي قام به منقذ البشرية محمد بن عبد اللّه (صلّى اللّه عليه واله وسلّم) وأئمة أهل البيت، سلام اللّه عليهم اجمعين، في سبيل ارساء دعائم منهج اللّه، في تربية الجماعة المسلمة، عبر الحث المستمر للمؤمنين على النهوض بتكاليف هذا المنهج الاسلامي، على امتداد المسيرة الربانية.

* * *

ولعلها ليست من قبيل الصدفة، حينما تكون آخر وصايا أمير المؤمنين لولديه الحسنين عليهما السلام وهو مستعد للقاء اللّه.. «أوصيكم بتقوى الله ونظم أمركم».

ولانأتي بجديد اذا أعدنا للأذهان حقيقة معروفة وهي أن ليس هناك من مبدأ -سوى الاسلام- حقق، وبدرجة مثيرة للاعجاب، تنظيم الأمر بين الانسان وربه، وبين الروح والجسد، بين الدنياوالأخرة. . . وأيضاً بين الفرد والمجتمع.. وبين الجماعة والجماعة. . .

وما كان بمقدور المسلمين أن يقيموا صرح حضارتهم الشامخ لولا صرامة ذلك المنهج، وحرص الذين أرسوا معالمه على نظم الأمر...ووضع الامور في نصابها.

* * *

وها نحن اليوم. نشهد إرهاصات مباركة لتحوّل واعد.. ينبئُ عن فجر جديد رائق لاسلامنا العظيم، ما أحوج البشرية الى نوره الساطع ليشقّ سجف الظلام والتيه والخواء.. وينهي أزمة الانسان والحضارة.. ويزيح ظلمة الليل الطويل الذي أرخى بسدوله على صدر البشرية، منذ زمن ليس بقصير!

وتأسيساً على ذلك، لابد من أن ترتقي مؤسساتنا الاسلامية الى دورها المطلوب، في تفعيل النقلة الحضارية الهائلة الى حيث الاسلام.. وأسلمة كل مناحي الحياة، وعلى مساحات كل الواقع وتفصيلاته.

ولكن أنّى السبيل الى ذلك ..؟ ولا تزال مؤسساتنا الاسلامية، في الوطن الاسلامي تعيش «عوالمها» المنغلقة، حتى غدت كل مؤسسة عالماً قائماً بذاته!

ومما يحزّ في النفس أن هذه المؤسسات تفتقر الى الحد الأدنى من التنسيق

المطلوب ولاغرابة أبداً اذا ما شهدنا -في ظل غياب التنسيق- اقدام أربع مؤسسات، وفي وقت واحد، علـى انجاز عمل واحد.. تتكرر فيه الكثيـر من الجهود.. والأموال.. والوقت الذي لاطائل وراءه!

نسوق هذه المفـردة، على سبيل المثال لا الحصر، وكـان المفروض أن يكون هناك تنسيق -ولـو بحدوده الدنيا- وبـذا نستطيع أن نتمدد على مسـاحات العمل بمنهجية مبرمجة، وتـوازن محسوب، وتغطية شاملة، فلا نشكو التخمـة في مرفق ما، فيما تبقى مرافق أخرى بلقعاً ما تزال تنتظر..

إن فقدان المنهجية والبرمجة لينعكس سلباً على العديد من المحاور الاساسية للمشروع الاسـلامي، ويترك بصمـاته على طبيعـة تحقيقة، واثرائه، وتفعيلـه في الواقع...

* * *

وحول هذه النقطة بالذات، كنا نشكو عبـر صفحات «رسالة القرآن» من وجود فجوة بين المؤسسة القرآنية والحوزة العلمية.. ونبهنا أكثر من مرة الى خطورة هذه الحالة المؤسفة.

وفي هذا الاطار لابد أن نسجل - وباكبـار- مبادرة المرجعية في تأسيس دار القرآن الكريم، والتي هي خطوة نوعية رائدة، في حساب سياقاتها الموضوعية.. وقد قـررت مؤخـراً الحـوزة العلمية فـي قم ادخـال الـدراسات القـرآنيـة، في المنهـج التخصصي، وهي خطوة مباركة -لاريب-

ولكننـا نأمـل أن لايُكتفى بهـذه الخطوة فـالى مـزيد مـن الخطوات الـرائده.. والمباركة ونحن في الانتظار..

* * *

وحتى ذلك الـوقت المؤمل، يبقى المطلـوب من المؤسسات القـرآنية أن تكون القدوة في الانفتاح علـى الواقع، والتصدي لتحدياته، ووضـع الحلول والمعالجات القرآنية لتفصيلاته وحيثياته.

ولن يتسنـى لها ذلـك مالـم تخرج هـذه المؤسسـات من شـرنقة «عـوالمها» الخاصة، الى حيـث الأفق الارحب لعالم الاسلام.. بكل أبعاده الفكـرية والسياسية والاخلاقية والاقتصادية والاجتماعية. . . الخ

ولنضع نصب أعيننا قـول الرسول الأكرم محمد بن عبد اللّـه (صلّى اللّه عليه واله وسلّم): «انا طبيـب دوّار بطبه» لنداوي جراحات البشريـة المعذبة.. والاسلام هو الحل الوحيد المرتجى.

فلترتـقِ مؤسساتنا الاسـلامية بشكل عام، والقـرآنية بشكل خاص، الـى هذا الدور، وتضطلـع بالقيام بـه فعلاً. و إنها النيّـة الصادقـة التي تعتمل فـي صدور الغيارى من أتباع القرآن.. ولـم يبق الاّ نعزم على الأمر «فاذا عزمت فتوكل»

فالـى مزيـد من التنسيق بيـن هذه المـؤسسة وفق منهجيـة علمية لتـوزيع الأدوار.. ونظم الأمر.. كما أوصـانا.. أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام..

فهل نحن فاعلون..؟!

التحرير

حول دعوى التناقض بين نصوص القرآن الكريم تاريخها ودوافعها وأسبابها

الدكتور طه الديواني

إنَّ البحث في موضوع دعوى التناقض بين نصوص القرآن الكريم له أهميته وخطورته، وذلك لأن هذه الدعوى أو الإدعاء والزعم قد أُثير قديماً، وما يزال يثار بشكل أو بآخر، وبين آونةٍ وأُخرى، ومع أننا لا ننكر أن موضوع وجود اختلاف بين النصوص القرآنية قد أُثير منذ وقتٍ مبكر، في عصر الرسالة الإسلامية، إلا أن هذا الموضوع إنما أُثير طلباً للفهم واستيضاحاً للأمر، ولكن بعضهم تناول هذا الموضوع بدافع الحقد، وساروا فيه الى نهاية المطاف، إذ كتبوا فيه، وروجوه، وألبسوا فيه على الناس كالذي فعله ابن النغريلة اليهودي، وإبن الريوندي، والرازى الطبيب من المتقدمين، ثم ما قام به گولد تسيهر، ودي بوير، وأمثالهم من المستشرقين في عصرنا الحالي.

وإذا كان هذا وحده يصح دافعاً للخوض، في بحث مثل هذا الموضوع، فإن دراسة هذا الإدعاء والزعم، منذ نشأته ثم تطوره وبيان كيفية معالجة العلماء ومناهج المفسرين في تناوله، يُضفي أهمية خاصة على البحث.

نعم إن العلماء المتقدمين والمفسرين الأوائل قد عرضوا لهذا الأمر، فالقاضي عبد الجبار المعتزلي يعرض مثلاً لسائر الطعون المواجهة للنص القرآني، ويناقشها مناقشة مستفيضة، وذلك في كتابه «تنزيه القرآن عن المطاعن» الذي يتضمن في تضاعيفه ردّاً على دعاوى التناقض المزعوم، كما إن إبن حزم الأندلسي يتولى الردّ، في رسالة خاصة، على مثل هذه الدعاوى التي

أثارها إبن النغريلة اليهودي، ونجد بعد ذلك الزركشي فى «البرهان» يورد في باب موهم الإختلاف والتناقض تفصيلات وافية وردوداً علمية كثيرة، ثم نجد الخطيب الإسكافي في «درة التنزيل وغرة التأويل» يورد تأويلات طريفة ونكات دقيقة، في معالجة الإختلاف بين نصوص القرآن الكريم، كما عرض المجلسي فى البحار لموهم الإختلاف والتناقض، وقدّم أجوبةً ضافية وافية، من خلال الروايات التي نقلها عن أهل بيت النبوة (صلوات الله وسلامه عليهم)، ولا ننسى هنا أن نشير الى أن جلّ كتب التفسير عرضت لهذا الأمر، فى المناسبات والموارد المخصوصة.

وإزاء ذلك كله فكيف ستكون معالجتنا لهذا الموضوع إذن؟.

إن البحث الذي سنقوم به سيعتمد المنهج العلمي التاريخي، في عرض دعوى التناقض، وحيثياتها وتطوراتها ذاكراً الآراء التي قيلت مناقشاً إياها، بغية الوصول الى معالجة شاملة. ولتحقيق هذا الهدف وزع البحث على مطلبين، أولهما: تاريخ هذه الدعوى ونشأتها، وثانيهما: الدوافع والأسباب التي تقف وراءها. راجين من الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

نشأة القول بالتناقض

إن لتحديد تاريخ نشأة القول بالتناقض أهمية خاصة، فيما يتصل بمسألة المعالجة العلمية لموضوع دعوى التناقض.

فمن الملاحظ أنَّ كثيراً من العلماء والباحثين يذكرون أن أول مسألة ظهر فيها الخلاف، بين المسلمين على أشده، هي القول بالقدر[١]، ويقال أن الذي أثارها هو معبد الجهني، وكان ذلك في أواخر عصر الصحابة، كما نص على ذلك الشهرستاني فى الملل[٢]، ويذهب أحد الباحثين المعاصرين الى أن الجدل قد دار في حياة الرسول محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، حول مسألة الجبر والإختيار، وأن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) نفسه قد شارك في هذا الأمر، وقال بعض الأحاديث التي تعارض الجبر وتقف مع القول بالحرية والإختيار[٣]. ومع أننا لا نشك في أن طلب فهم القرآن، واستيضاح المراد من آياته قد بدأ منذ

وقتٍ مبكر، وأن بعض نصوصه، وبخاصةٍ تلك التي إصطلح عليها بالمتشابهات[٤]، قد أشارت نوعاً من الجدل، إلا أنه من أين للدكتور محمد يوسف موسى أن يزعم[٥] بأنه قد ظهر في حياة الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، من عمل على معارضة القرآن بعضه ببعض، فيما يتصل بمسألة القدر؟! وعلى ما يبدو أن الدكتور موسى قد استند في رأيه هذا الى روايةٍ أوردها إبن سعد فى الطبقات[٦] وربما كان في فهمه هذا متابعاً للمستشرق. گولد تسيهر، الذى استند الى الرواية نفسها، وكان هذا المستشرق متحاملاً ومتحيّفاً عندما قال: «إن المناقشات التي دارت بين المسلمين فى القرآن الكريم، كما تشير الرواية -يقصد رواية إبن سعد- كانت تثير أعصاب النبي، وأنه كان يقع في ضيق، عندما كان المؤمنون يشيرون الى تناقض عقيدي فى القرآن...»[٧].

وهذا القول لا يستند الى أساس سليم فضلاً عن كون الرواية لا تساعد على مثله، وفحصها سيجعلنا نخرج بنتيجة غير التي ذكرها تسيهر ومن تابعه.

والرواية كما أوردها إبن سعد بالنص الآتي:

«أخبرنا عبد الله بن مسلمة إبن قعنب قال: حدثنا عبد العزيز بن أبيه حازم عن أبيه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن إبني العاص أنهما قالا: ما جلسنا مجلساً في عهد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وكنا أشدّ إغتباطاً من مجلس جلسناه يوماً، جئنا، فإذا ناس عند حُجَر رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يتراجعون فى القرآن، فلما رأيناهم إعتزلناهم، ورسول الله خلف الحُجَر يسمع كلامهم، فخرج علينا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) مغباً يعرف الغضب في وجهه حتى وقف عليهم، فقال: أي قوم! بهذا ضلت الأمم قبلكم، بإختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن يصدق بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه عليكم فآمنوا به[٨]. ثم إلتفت إليّ والى أخي فغبطنا أنفسنا أن لا يكون رآنا معهم...»[٩].

هذه هي الرواية بتمامها، وليس فيها دلالة على ما قالوه وذهبوا اليه، إذ غاية ما تدل عليه أن قوماً كانوا يتراجعون[١٠] في

القرآن. أما ما هي طبيعة هذا التراجع؟ وعن أي شيء كان؟ فليس في الرواية إشارة إليه، وأما التوجيه النبوي الذي تضمنته الرواية فلا يدل على أكثر من منع الخوض في القرآن من غير دليل أو أثارةٍ من علمٍ، كما أن الرواية في ذيلها تنبه الى أن النص الذي دار حوله التراجع والتخاصم يتعلق بنوع تكليف، بدليل قوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) : إعملوا به.

وتحقيق المسألة أن الرواية جاءت بطرق وأسانيد مختلفة بعضها عن بعض، ومختلفة في السبب الذي حدا بالرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) الى التصريح بمضمونها، فقد أوردها إبن حنبل مثلاً بسنده قال: «حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا أبو معاوية، حدثنا داود بن هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ذات يوم والناس يتكلمون في القدر قال وكأنما تفقأ في وجهه مثل حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض بهذا هلك من قبلكم...»[١١].

وذكر إبن حنبل بسند آخر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم؛ أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) جلوس عند بابٍ من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى إرتفعت أصواتهم فخرج رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) مغضباً قد إحمّر وجهه يرميهم بالتراب، ويقول مهلاً يا قوم، بهذا هلكت الأمم قبلكم بإختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه الى عالمه...»[١٢].

إن هذه الرواية الأخيرة التي أوردها إبن حنبل هي الأرجح في المقام، وذلك لأنها مما إتفق عليها الشيخان كما ذكر ذلك الشيخ إبن حمزة الحنفي[١٣] إذ قال في سبب ورود قوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «إنما هلك من كان قبلكم بإختلافهم في كتابهم...الخ». قال: إنه كان لإختلاف رجلين في آية من كتاب الله. وقد نقل إبن كثير في تفسيره[١٤] الرواية نفسها وقال في تخريج الحديث: رواه مسلم والنسائي عن حديث حماد بن زيد.

إستناداً الى هذا التخريج والترجيح، لا يبقى مبرر للتعلق برواية إبن سعد ولا بالروايات الأُخر، وحينئذٍ فالرواية المعتمدة والموثقة تفيد أن الخلاف كان في آية من كتاب الله تعالى، وإنه كان بين رجلين، وعليه فمن أين لهم أنه قد ظهر في حياة النبي (عليه الصلاة والسلام) من عمل على معارضة القرآن بعضه ببعض؟ ما لو قالوا بأن الرواية تتضمن تحذيراً ونهياً عن ضرب القرآن بعضه ببعض وهو ينبئُ بما قلناه، فإن هذا يندفع على الوجه الآتي:

١- إن التوجيه النبوي تضمن تحذيراً شديداً من مخالفة الأنبياء، واتباع الهوى والقول في القرآن من غير علم وبخاصة فيما يتعلق بالمتشابه حيث يقتضي هنا الرجوع الى الراسخين من أهل العلم. وهم أهل بيت النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، يدلّك على هذا قوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في الرواية وما تشابه عليكم، وما جهلتم، فكلوه الى عالمه... هذا مع العلم أن روايات جمة وأخباراً صحيحة، قد وردت في مناسبات عدة في التحذير من إتباع المتشابه[١٥] أو القول في القرآن من غير علم[١٦]، ولذلك فالرواية المذكورة تقع ضمن هذا السياق وفي هذا الإتجاه.

٢- إن التوجيه النبوي الكريم يؤكد أن القرآن يصدق بعضه بعضاً وينفي أن يكون هناك تعارض أو تضارب بين نصوصه وينبئُ أن ما حصل بينهم من خلاف إنما كان بسبب سوء الفهم وعدم تدقيق النظر، ولذلك دعاهم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) الى أن يأخذوا بما عرفوه ويوكلوا الأمر فيما لم يعرفوه الى العلماء. أما كونه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قد خرج على غضبٍ شديد فذلك لوقوع الإختلاف بينهم في وقت كانوا أشد حاجة الى الوحدة وعدم الفرقة[١٧] مع كثرة تحذيره (صلوات الله عليه وآله) لهم من ذلك. بل يمكن القول إنّ الرواية تشير الى أن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) كان قد بيّن لهم الأمر فيما تنازعوا فيه ولكن هناك من خالف بدليل تحذيره (عليه الصلاة والسلام) من مخالفة الأنبياء.

٣- إننا إذا أخذنا بالتفسير الذي يقول إن المتشابه هو المنسوخ كما نقل عن إبن عباس وجمع من الصحابة[١٨]، فإنه يترجح حينئذٍ أن إختلافهم كان في أمرٍ تكليفي تنطق به الآية كما تشير الى ذلك الرواية نفسها ولذلك أبان لهم الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أن ما

عرفوه وجب عليهم العمل به وما تشابه عليهم أو جهلوه، فإن الواجب ردّه الى العلماء ليعرفوه لهم مع ضرورة الإيمان بأنه كل من عند الله.

وبناءً على ذلك كله فإن دعوى وجود تناقض بين نصوص القرآن الكريم لم يثرها[١٩] أحدٌ في زمن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وإذا كان من أثار جدلاً فغالباً ما كان في مسائل ليست من صلب العقيدة، بل في مسائل فرعية جزئية، وكانوا يفزعون في ذلك الى الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يبين لهم ويهديهم. وقد لاحظنا أن غاية ما تشير إليه الروايات والأخبار في هذا الصدد أن تبايناً في فهم النص القرآني واجتهاداً من غير دليل بدأ يظهر في هذه الفترة ثم يأخذ حجماً كبيراً وخطيراً في أواخر عصر الصحابة يدل على ذلك الرواية التي أوردها البخاري[٢٠] بسندٍ صحيح سنذكرها لاحقاً:

إن رجلاً جاء الى ابن عباس يسأله عن آيات قال إنه وجدها تختلف، والظاهر أن الرجل لم يُثر ذلك عن تشكيك بل كان طلباً للفهم واستيضاحاً للمراد، وذلك لأن مما وقرَ في النفوس واستقرت عليه الأفهام أن القرآن الكريم يصدق بعضه بعضاً، ولذلك فربما كان هذا السائل الذى استوضح من إبن عباس لم يكثر نظره فى القرآن الكريم ولم يكن على فهم بمذاهب العرب وافتتانها فى الأساليب، وهذه شروط لابدَّ منها لفهم كتاب الله كما يذكر إبن قتيبة[٢١]. وإذا كان ذلك كذلك فإننا حين نغادر تلك الفترة من الزمن فسنلتقي بمن يثير دعوى وجود تناقضٍ بين نصوص القرآن الكريم مدفوعاً بتعصبه وخصومته ضد القرآن الكريم. ومن هنا يكون الوقوف على حقيقة مثل هؤلاء الأشخاص كاشفاً لجانبٍ مهم من الدوافع والأسباب التي تقف وراء الترويج لهذه الدعوى.

وهنا نجد إبن الريوندي أول المتصدين لهذا الأمر الذائعين له فقد أثار هذا جملة من التشكيكات والطعون فى القرآن وفى النبوة بوجه عام وقد وصلت معظم طعونه وتلبساته مرفقة بالرد عليها من قبل العلماء والمتكلمين[٢٢]. الذين تصدوا لدعاوى هذا الرجل وأبانوا زيفها وبطلانها وتهافتها وكشفوا عن سوء القصد وخبث الهدف اللذين دفعا به الى اتباع المتشابه ابتغاء الفتنة. ثم نجد بعد

ذلك أبا زكريا الرازي الطبيب الذي تابع إبن الريوندي فيما أثاره، وفي هجومه على النبوة وتشكيكه بها، وقد جاء بفريته قائلاً: «والله قد تعجبنا من قولكم أن القرآن معجز وهو مملؤ من التناقض»[٢٤] ويذكر الدكتور بدوي[٢٥] أن الرازي حين يشير الى التناقص المزعوم فذلك بما يتصل بمسألة التجسيم والتشبيه من جهة ونفي المثلية من جهة أُخرى حيث وردت نصوص ظاهرها كذلك، وأيضاً بما يتصل بمسألة الجبر والإختيار.

ثم نستمر في تتبع هذه القضية فنجد إبن النغريلة اليهودي[٢٦] يردد هو الآخر دعاوى التناقض المزعوم وقد أضاف الى ذلك توهمات وتلبيسات أُخرى إلا أن إبن حزم الأندلسي[٢٧] كان قد تصدى لدعاويه وتوهماته وردّ عليه مُظهراً تهافت ما زعمه وبطلانه في رسالة خاصة.

وهكذا، فإذا غادرنا العصور السالفة ووصل بنا المطاف الى عصرنا الحالي فنجد بعض المستشرقين[٢٨] يتولون كبر هذه الفرية، فيثيرون دعوى التناقض مع ترويج لها وعرض يتخذ لباس العلمية الزائفة ستاراً لإشاعتها، فهذا گولد تسيهر[٢٩] يقول: «ومن العسير أن تستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقيدياً موحداً متجانساً وخالياً من التناقضات، ثم يذكر زاعماً أن القرآن كان معرضاً لحكم النقاد في حياة النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ويذهب الى أبعد من ذلك قائلاً: «ومثل هذا النقد كان صواباً خلال الجيل الأول التالي لظهوره الى درجة أنه لم يكتف بأن يهتم خصوم الإسلام بكشف ما فيه من مواطن ضعف بل ذهب الأمر الى أن البحث فى التناقضات الظاهرة أصبح موضع حديث بين المؤمنين أنفسهم»[٣٠].

ثم يقول بعد ذلك: «وسنرى فيما بعد بشأن تعليم أساسي فى الدين، هو مسألة الجبر والإختيار كيف أن الأدلة للرأي وضده قد أُستقيت من القرآن نفسه...»[٣١].

ومما يجدر التنبيه اليه هنا أنه لا ضير في أن تكون الأدلة للرأي وضده قد أُستقيت من القرآن الكريم، لأن ذلك لا يعني أكثر من اتضارب فى الفهم والإجتهاد بين الفرقاء، وهو لا يضير القرآن بشيء. على أن القرآن الكريم نفسه كان قد تنبه الى وجود طائفة من

الناس يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، أي بما يتفق وأهواءهم.

من خلال ما تقدم من عرض لتطور الدعوى ونشأتها وملابساتها يتضح لدينا أن الخصوم قديماً وحديثاً ردّدوا نفس دعاوى المشركين الذين عاصروا القرآن الكريم وقد ذكرها القرآن نفسه وردّ عليها... فما أثاره المستشرقون[٣٢] من أمثال تسيهر، ومكدونالد، وولهوزن ودي بوير لا تخرج عما أثاره أسلافهم من اليهود والنصارى من أوهام وتشكيكات.

وهكذا فإن فِرية وجود تناقض بين نصوص القرآن الكريم كما يقول الدكتور عبد الحميد[٣٣]: «ما هي بالجديدة في مادتها وإن بدت كذلك في صورتها فقد ردّدها أسلاف المستشرقين من يهود المدينة ومشركي مكة ثم ينقل عن أسباب النزول للواحدي أن المشركين عندما نزل قوله تعالى: ﴿**ما نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا...**﴾[٣٤]. قالوا -أي المشركون- أترون الى محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يأمر أتباعه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، ما هذا إلا كلام محمد يقوله من تلقاءَ نفسه وهو كلام يناقض بعضه بعضاً فأنزل الله تعالى: ﴿**وَإِذا بَدَّلنا ءَايَةً مَكانَ ءَايَةٍ**﴾[٣٥]. وأنزل أيضاً: ﴿**ما نَنسَخْ مِن ءَايَةٍ أَو نُنْسِها...**﴾.

وهنا ينبغي التنبيه الى أن ما نقله الواحدي قد يتوهم منه أن النسخ كان من الكثرة بحيث إستدعت القوم الى ترويج قولتهم. والحق أن هناك مبالغةً كبيرة جداً في مسألة النسخ الذي وقع في القرآن الكريم، وأن ما استقر عليه المحققون هو غير ذلك، فقد ذهب السيوطي[٣٦] الى أنه لم ينسخ سوى إحدى وعشرين آية، وذهب الدكتور صبحي الصالح[٣٧] الى أن الأصل في آيات القرآن كلها الأحكام وأن الآيات الصالحة للنسخ لا تزيد على عشر، وذهب الإمام الخوئي[٣٨] الى أنه لم يثبت لدى التأمل والتحقيق إلا وقوع النسخ في آية أو آيتين...

أسباب ادّعاء القول بالتناقض

من خلال ملاحظتنا لدعاوى التناقض وحيثياتها، إتضح لدينا أن هناك

أسبـاباً دعـت القـوم الـى الترويـج لهـا وإعلانها وهذه الأسباب التـي سنذكرها هي أسبـاب إستخلصناها ولم يصـرحوا بها على أنه يقتضى التنبيه الى أنهم -أي مثيري مثـل هذه الدعاوى- إنطلقـوا من دوافع ذاتيـة تحكمها الخصومـة والحقد على الإسـلام ونبي الإسلام. وعليـه فإن أهم هذه الأسباب هي:

١- الأخذ بالآيات المتشابهات دون مـراعاة لقـانون التـأويل فـي مثل هـذا المقام.

٢- إتباع منهـج غير سليم فـي فهم النص القرآني وتفسيره.

ونبسط القـول في هـذين الأمـرين كالآتي:

إولاً: أما الآيـات المتشابهـات فيلزم الإنتباه أولاً الى أن القرآن الكريم نفسه قد صرّح بوجود ﴿ءَايـٰتٌ مُحكَمـٰتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشـٰبِهـٰتٌ﴾[٣٩]. وأنه أي القرآن الكريـم ذكر في عين الـوقت وفي الآية نفسهـا أن الذيـن في قلـوبهم زيـغٌ يتبعـون مـا تشـابه منـه ابتغـاء الفتنـة وابتغاء تأويله... وأن الذي يعلم التأويل الصحيح هم الراسخون.

وقد نبـه ابن خلـدون الى «أن هـذه الآيـات المتشـابهـات كـانـت مثـاراً للإختلاف»[٤٠] ولاحظنا فيما تقـدم كيف أن الرازي الطبيـب وغيره من المتقـدمين وكـذلك دي بـويـر وگـولد تسيهـر مـن المستشرقيـن إستندوا الـى الآيات التـي عرفـت بالآيـات المتشابهـة فيما زعمـوه وروجوه.

ولذلك كله يكون من الضروري أولاً أن نلمّ إلمامة موجزة بالمحكم والمتشابه لنخلـص الى رأي ينفعنـا فـي مثل هـذا المقام ولنعرف بعـد ذلك قانون التـأويل الخاص بمثل هذه الآيات.

يذكر الطبري في تفسيره آراءً كثيرة في معنـى المحكم والمتشـابه، منهـا: أن الآيات المحكمات هي المعمـول بها وهي الناسـخات، وأمّا المتشابهات من آيِهِ فهنَّ المتروك العمل بهن، المنسوخات وينسب هذا القول الى ابن عباس[٤١] وابن مسعود وغيرهم. ثم ينقل أي الطبـري عن مجاهد بن جبر المكي (ت ١٠٣هـ) في تفسيره للآية ﴿مِنهُ ءَايـٰتٌ مُحكَمـٰتٌ﴾، إنها ما فيـه -أي القرآن- مـن الحلال والحـرام، ومـا سوى ذلـك فهـو متشـابه يصـدق بعضـه بعضـاً. وينقل عـن آخـريـن أن المحكمات ما لم يحتمل مـن التأويل غير

وجهٍ واحدٍ والمتشابه ما إحتمل أوجهاً[٤٢].

ويظهر ما ذكره القاضي عبد الجبار الهمداني في المحكم والمتشابه: أن المحكم هو الذي يقع على وجهٍ لا يحتمل إلا ذلك المراد في أصل اللغة أو بالمتعارف أو بشواهد العقل، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾[٤٣]، وأما المتشابه فهو الذي جعله عزّوجل على صفةٍ تشتبه على السامع من حيث خرج ظاهره عن أن يدل على المراد به لشيء يرجع الى اللغة أو التعارف، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ...﴾[٤٤]، الى ما شاكله، لأن ظاهره يقتضي ما علمناه محالاً، فالمراد به مشتبه ويحتاج في معرفته الرجوع الى غيره من المحكمات[٤٥]. ويذكر الإمام الخوئي أن المتشابه معناه أن يكون للفظ وجهان من المعاني أو أكثر، وجميع هذه المعاني في درجة واحدة بالنسبة الى ذلك اللفظ، فإذا أطلق ذلك اللفظ إحتمل في كل واحدٍ من هذه المعاني أن يكون هو المراد، ولذلك يجب التوقف في المتشابه الى أن تدل قرينة على التعيين[٤٦].

واستناداً الى تلك الأقوال والآراء نستطيع أن ننتهي الى رأيٍ خلاصته أن المحكم هو اللفظ الذي يدل على معناه بوضوح من غير حاجةٍ الى قرينة، وأن المتشابه هو الذي يفتقر الى توسط أُمور لمعرفة المراد منه وذلك يكون بالرجوع الى المحكم لتتوافق النصوص. وإذا اتضح لدينا أن المتشابه يفتقر[٤٧] الى توسط أُمور لمعرفة المراد منه وفهمه، فإنه لا ينبغي أن يكون مثار تساؤل واستغراب احتواء القرآن على مثل هذه الآيات المتشابهات، لأن ذلك من شأنه، وهو جارٍ على وفق منهجه في الهداية والتوجيه هذا وقد أَبانَ العلماء المحققون[٤٨] وجوهاً ونكات دقيقة لإيراد مثل تلك المتشابهات... وقد جاء في كتاب فلسفة الفكر الديني: إنه بدلاً من أن نأسف لوجود هذه الآيات المتشابهات يجب أن نقرّ بها عيناً لأنها محك لعمل العقل، ومستحث للإيمان[٤٩].

ويمكن أن يقال أيضاً: إنَّ من حق القرآن أن يتصرف في الكلام والحديث والأخبار التي يوردها بما يحقق له الأهداف والمقاصد التي يرمي إليها، وقد أثبت الواقع التاريخي أن القرآن بهذه الخصوصية في إسلوبه وبهذه الطريقة

المتفردة في عرضه للموضوعات والمضامين قد أحرز نجاحاتٍ مظفرة في ساحة الصراع والبناء، فكيف إذن لا يكشف ذلك عن عمق الحكمة في الطريقة والإسلوب الذى اتبعه في مجمل حديثه وكلامه. وإذا كان ذلك كذلك فكيف صارت إذن مثل تلك الآيات مدعاةً لإثارة الشبهات والطعون، وترويجاً لمزاعم التناقض؟! وللإجابة عن ذلك نقول: يحسن أولاً أن نتذكر معاً قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[٥٠] ولنلق ضوءً على معنى هذه الآية لتتضح لنا جلية الأمر، فهذا الطبري يقول: المراد بالزيغ، الميل عن الحق والإنحراف عنه، وعن مجاهد، الزيغ هو الشك، وقوله تعالى: «فيتبعون ما تشابه منه»، أي تشابهت ألفاظه وتصرفت معانيه بوجوه التأويلات، وذلك ليحققوا بادعائهم الأباطيل من التأويلات الى ذلك بما هم عليه من الضلالة تلبيساً على من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك[٥١]، على أنه يقتضي التنبيه هنا الى أن الإهتداء الى معنى المتشابه ليس بأمرٍ مستحيل أو عسير، فقد ذكر الشريف الرضي: أن المراد في الآية: «وما يعلم تأويله إلا الله» أي وما يعلم تأويله على التفصيل إلا الله ولا يعلم تأويله بعينه إلا الله، لأن كثيراً من المتشابه يحتمل الوجوه الكثيرة، وكلها غير خارج عن أدلة العقول، فيذكر المتأولون جميعها ولا يقع القطع منهم على مراد الله تعالى بعينه منها[٥٢]. وأيضاً فقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ...﴾ وهذا يعمُّ الآيات المحكمات والمتشابهات، وبيّن واضحٌ أن ما لا يُعقل له معنى لا يتدبر.

وبناءً على ما تقدم فإننا نستطيع القول: إن اتباع المتشابه والأخذ به دون الرجوع الى أهل التأويل، ودون الإستناد الى العلم والى قانون التأويل الصحيح[٥٣] هو الذي أوقع في توهمات عديدة وتأويلات غريبة بعيدة عن المنطق الحق وعن الصواب. ويقتضي التنبيه هنا الى ما قاله العلوي: «إذا ورد في الشرع ما يخالف برهان العقل يجب تأويله لأنَّ الظواهر محتملة، وما دلَّ عليه العقل غير محتمل، فيجب تنزيل المحتمل على ما يكون غير محتمل، يؤيد ذلك أنَّ البراهين العقلية إما أن تكون محتملة للخطأ أو غير

محتملة، فإن كان الأول لزم تطرق الخطأ الى الأمور السمعية كلها، وإن كان الثاني، فنقول: حمل الكلام على المجاز محتمل في جميع الظواهر، وحمل الأدلة العقلية على غير مدلولها غير محتمل، فإذا تعارضا كان التصرف فى المحتمل أدق من التصرف في غير المحتمل... وهذا القانون كافٍ في دفع التناقض عن الظواهر القرآنية(٥٤).

ومن هنا يتضح لدينا أن الذين ابتعدوا عن طرق التأويل الصائب والصحيح بخصوص مسألة الآيات المتشابهة، ومنها الآيات التى اصطلح عليها بآيات التشبيه. قد وقعوا فى اضطراب كبير، وتبلبل فى الرأي مما قادهم الى توهم وجود تناقض، وحقاً ما قاله ابن خلدون عنهم: «إن الآي القليلة التي توهم التشبيه إبتدعها مبتدعة العصر، وتوغلوا فى التشبيه فوقعوا فى التجسيم الصريح ومخالفة آي التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد، وأوضح دلالة»(٥٥).

والواقع أن العلماء الذين أخذوا بقانون التأويل إنما حملهم على ذلك -كما يقول الزركشي- هو وجوب حمل الكلام على خلاف المفهوم من حقيقته لقيام الأدلة على استحالة التشبيه والجسمية في حق الباري تعالى. إذ ليس بين المعقول والمنقول تغاير فى الأصول أو تعارض في واقع الأمر وحقيقته، وإنما يكون عادة فى الألفاظ واستعمال المجاز لغة العرب(٥٦).

ويقتضى التذكير هنا بقول إبن رشد: «إنَّ ما من منطوق فى الشرع مخالف في ظاهره لما أدى اليه البرهان، إلا إذا اعتبر وتصفحت سائر أجزائه، وُجد في ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل أو يقارب أن يشهد»(٥٧)، ويحاول الدكتور محمد يوسف موسى أن يفلسف ورود ظواهر قرآنية -إذا أخذت حرفياً- تدل على التشبيه بأن ذلك فيه حكمة سامية وهي وجوب أن يخاطب القرآن مثله مثل أي كتاب وحي -كلَّ فريق وصنفٍ من الناس بما يعرفون ويقدرون على فهمه. وهو من المجازات التي لا تصح أن تفهم حرفياً(٥٨).

ويلخص الزركشي هذا المطلب بقوله: «إن الآيات المتشابهات فى الذات والصفات يجب أن تردّ الى محكم قوله تعالى: ﴿لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ﴾،(٥٩) ثم

يفصل القول بأن ما كان من ذلك «الآيات المذكورة» عن تنزل الخطاب أو ضرب مثال أو عبارة عن مكان أو زمان أو معية أو ما يوهم التشبيه فمحكم ذلك قوله تعالى: ﴿لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلِلهِ المَثَلُ الأعلىٰ﴾[٦٠] وقوله تعالى: ﴿قُل هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾[٦١].

وبناءً على ذلك فإن اتباع المتشابه دون الرجوع الى المحكم والى أهل العلم يعدُّ تعسفاً في فهم النصوص.

أما السبب الثاني من الأسباب التي جعلت الزاعمين بوجود تناقض يذهبون الى هذا الإتجاه عن قصد أو غير قصد فذلك هو التنكب عن جادة المنهج السليم في معالجة النصوص القرآنية وتفسيرها. وإن هذه الطريقة المعوجة التى اتبعوها هي التي أوقعتهم في مثل تلك الأوهام والحال أن الحقَّ والإنصاف يقتضي الرجوع الى المنهج الصحيح فى التفسير الذي يقوم على قواعد وضوابط لا يمكن إهمالها. وهنا يمكن أن نلاحظ أولاً بالنسبة للمستشرقين، فإنَّ أغلبهم إن لم يكن كلهم إكتفوا كما يذكر الأستاذ «آربري»[٦٢] بتحليل سطحي لمحتويات القرآن الكريم فقد اتبعوا طريقة التقطيع والتمزيق –باقتطاع النصوص من سياقها والإجتزاء ببعضٍ منها ليخرجوا الى القول: إن القرآن فيه تضارب وتدافع وعدم انسجام.

وأما الآخرون ممن تأَوَلوا النص على غير وجهه الصحيح فقد اتبعوا أيضاً طريقة قطع الآية عن سياقها وعدم الأخذ بنظر الإعتبار الآيات التي تشترك وإياها في معالجة نفس الموضوع. هذا مع وجود دافع مذهبي يحاول أن يلوى النص ويكرهه لينسجم مع وجهة نظره.

وعليه فإن الفهم والتفسير الذي يقوم على مثل تلك الطرائق يعدُّ زيغاً وإنحرافاً مقصوداً.

ولذلك يكون من المناسب هنا تحديد عناصر المنهج السليم الذي ينبغى الإلتزام به لكل من يروم معالجة النصوص القرآنية. ومع أنه لابدَّ من الإعتراف أولاً بوجود مناهج متعددة في تفسير القرآن الكريم[٦٣]، وجدت منذ عصر النص وتأصلت بما أفادته من التطور الفكري والعلمي وبما فرضته طبيعة التحدى الداخلي والخارجي للفكر القرآني، إلا أن ذلك لا يمنع من تلمس عناصر المنهج الذي يكون أوفق وأليق

وأكثر علمية وموضوعية. وهذا المنهج يمكن استخلاصه من مجموع الآراء والمذاهب في تفسير القرآن. وهو -أي المنهج- يقوم على دعامتين، الأولى ضرورة امتلاك المفسر لشروط وملكات مناسبة، والثانية: إتباع الخطوات الصحيحة للتوصل الى الفهم الصحيح، أي الإستناد الى قواعد أساسية لابدَّ منها لتفسير النص.

أما بخصوص الأمر الأول وهو ضرورة أن يمتلك من يتصدى لتفسير القرآن الكريم مؤهلات معينة ولائقة، فالمفسر ينبغي عليه أن يكون على علمٍ بالأساليب الرفيعة، وهذا يتأتى له من ممارسة الكلام البليغ ومزاولته والتفطن لنكته ومحاسنه والعناية بالوقوف على مراد المتكلم. وأيضاً إن على المفسر أن يحرز العلم بأحوال البشر وما كان عليه الناس في عهد النبوة ونزول القرآن الكريم ويذكر السيوطي: «إن المفسر لا يجوز له أن يشرع في التفسير ما لم يمتلك العدة اللازمة من العلوم والمعارف التي هي علم اللغة والنحو والصرف والبيان وعلم التوحيد والأصول والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول...»[٦٤].

والحق إن هذه الشروط المذكورة ضرورية في تفسير القرآن الكريم، وقد وجدنا العلماء المتقدمين حريصين على التمسك بها واعتبارها، ويبرز السيوطي ضرورتها قائلاً: «إذا كان العرب في الصدر الأول وهم أهل اللغة التي جاء القرآن على أعلى درجات البلاغة فيها لا يعلمون إلا ظواهره وأحكامه، أما دقائق باطنه فإنما يظهر لهم بعد البحث والنظر مع سؤالهم النبي(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، فنحن محتاجون الى ما كانوا يحتاجون اليه، وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا اليه من أحكام الظواهر لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم»[٦٥].

أما عن الطريقة الصحيحة التي يجب اتباعها عند التفسير فتبدأ أولاً بفهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة... لأن كثيراً من ألفاظ التنزيل وضعت لمعانٍ ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن[٦٦]، ثم تكون الخطوة التالية جمع الآيات الخاصة بالموضوع الواحد جمعاً إحصائياً مستقصياً ويعرف ترتيبها الزمني ومناسباتها وملابساتها الحافّة ثم ينظر

فيها بعد ذلك لتفسر وتفهم، ويلخص الشيخ محمد حسن آل ياسين ذلك قائلاً: «إن الطرق الأصولية الصحيحة لتفسير القرآن وفهم أغراضه، هي تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة وتفسير القرآن بلغة العرب...»[٦٧].

أما ما يبرر لنا مثل هذا المنهج، فليس هو تحوطاً -كما يحاول البعض الإشارة اليه من الخوف على القرآن وقدسيته من أن تكتشف فيه ثغرات كما يزعمون- بل إن ذلك مما يقتضيه المنطق والعلم، وتقرّه الأوساط الأدبية للإعتبارات الآتية:

أولاً: لاريب إن لغة أي كتاب مصنفٍ وموضوعه تتحكمان في فهم مقاصده ومراميه، ومن الطبيعي أنَّ كلًّ من وضع كتاباً فإنما يضعه ليفهم بذاته من غير شرح وبيان وإنما يحتاج الى الشروح «إما لكمال فضيلة المصنف، فإنه لقوته العلمية يجمع المعانى الدقيقة فى اللفظ الوجيز، وإما لإغفاله تتمات المسألة أو شروطها إعتماداً على وضوحها، وإما لإحتمال اللفظ لمعانٍ كما فى المجاز والإشتراك، فيحتاج الشارح لبيان غرض المصنف ومراده»[٦٨].

ثانياً: إن مما تواضع عليه أهل العلم والمعرفة، إنه لغرض الإحاطة أو الإلمام بأسرار أي علم أو فنٍ ومعرفة دقائقه، لابدَّ من الرجوع الى الخبراء المتخصصين فيه، وهذه حقيقة يدركها الخاص والعام ولا يجادل في أهميتها أحد، وعليه فإن الرجوع الى أهل العلم والمعرفة بالقرآن أمرٌ لا يصح إغفاله، كما أنَّ الرجوع الى أهل اللغة التي عرض فيها القرآن مضامينه ومعرفة خصائص هذه اللغة وطرائق البيان فيها أمرٌ يقتضيه المنطق والعرف العلمي، وقد نبه الى ذلك الزمخشري والغزالي الذي قال: «لأن القرآن نزل بلغة العرب فكان مشتملاً على أصناف كلامهم من إيجاز وتطويل، وإضمار وحذف وإبدال، وتقديم وتأخير ليكون ذلك مفحماً لهم ومعجزاً في حقهم، فكل من اكتفى بظاهر العربية وبادر الى تفسير القرآن، ولم يستظهر بالسماع والنقل في هذه الأمور فهو داخل فيمن فسر القرآن برأيه»[٦٩].

ثالثاً: إن الرجوع الى النبي محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أي السنة النبوية -لطلب شرح آيات القرآن الكريم ومعرفة تفسيره- تقتضيه طبيعة الأشياء،

ويتسق مع منطق العلم، ذلك أن أي كتاب إذا أردنا فهم المراد من عباراته، وتيسر لنا أن نتصل بمؤلفه نستشرحه منه أو نهتدي الى طريقة حددها صاحب الكتاب أو أبان عنها بوجه من الوجوه، فلا ريب أن ذلك سيجعلنا على ثقة أكبر بصحة استناجاتنا، وصوابية فهمنا، ومن غير شك أن الكتاب كلما كان راقياً في مطالبه عميقاً في مراميه واسعاً في أغراضه سامياً بمعانيه، كانت حاجتنا أشد فى الإهتداء الى الطرق الموصلة الى رحابه، وأنسنا أعظم عندما تقع بأيدينا مفاتيح فهم الى عباراته، بل إن الأمانة العلمية والمسؤولية الأدبية تقتضي منا أن نفتش عن تلك الطرائق، ونأخذ على أنفسنا عدم التساهل فى الإلتزام بها، وبناءً عليه فإن الرجوع الى الأحاديث الصحيحة التي وردت في تفسير النص القرآني واستنطاقها والرجوع الى أهل البيت الراسخين فى العلم والى من شهد الوحي والتنزيل لا غنى عنها في هذا المقام مطلقاً.

رابعاً: إن الأخذ بمنهج محدد وسليم في تفسير أي نص، دينياً كان أم غير ديني أمرٌ أقرته الأوساط العلمية الأدبية فـ«لاشلاير فاشر» على ما نقل الدكتور أحمد السيد خليل[٧٠] يضع قواعد عامة لتفسير النص القديم، وهي في جملتها لا تخرج عما ذكرناه من عناصر المنهج الذي حددناه.

وإذا تم لنا ذلك فيبقى معالجة ما أثاروه من دعاوى وهو موضع بحث آخر إن شاء الله تعالى.

الهوامش

(١) يقصد بالقول بالقدر أن الإنسان يقدر أعمال نفسه بعلمه ويتوجه إليها بإرادته ثم يوجدها بقدرته. . . د. محمد يوسف موسى القرآن والفلسفة:١٠٢.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني١:٣٠.

(٣) د. محمد عمارة:٢٣ و٢٥، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية.

(٤) راجع ما أشار إليه إبن خلدون في مقدمته:٤٦٣ إذ قال: «وإنما عرض خلاف في تفاصيل العقائد أكثر مثارها من الآي المتشابهة».

(٥) د. موسى؛ القرآن والفلسفة:٣٠و٣٢.

(٦) الطبقات الكبرى ١٩٢:٤.

(٧) العقيدة والشريعة:٦٩.

(٨) يعلق الدكتور موسى هنا بقوله: «إن مراد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بكلامه أن

آمنوا -أي بلا بحث وتفكير فيه- وتعليقة الدكتور هنا غريبة إذ ليس في الرواية ما ينبئُ بذلك لا من قريب ولا من بعيد».

(٩) الطبقات الكبرى: الإشارة السابقة.

(١٠) وفي مسند إبن حنبل٢:١٨٥، يتدارؤون أي يتخاصمون. وكذا جاء في لسان العرب.

(١١) مسند أحمد بن حنبل٢:١٧٨، طبعة دار صادر.

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف١:٢٧٢.

(١٤) تفسير القرآن العظيم١:٣٤٧.

(١٥) البخاري٥:١٩٦.

(١٦) المصدر نفسه٦:١٩.

(١٧) البيان والتعريف لإبن حمزة١:٢٦٦.

(١٨) راجع: جامع البيان للطبري٣:١٧٢، وما بعدها فقد نقل روايات كثيرة عن جمع من الصحابة تفيد بمجموعها أن المحكم هو الناسخ الذي يجب الإيمان به والعمل به، وأن المتشابه هو المنسوخ الذي يؤمن به ولا يعمل به.

(١٩) راجع تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبد الرزاق: ٢٨٢. ويعلل الدكتور محمد يوسف موسى في كتابه «القرآن والفلسفة»: ٣٠، سبب عدم إثارة وجود تضارب بين النصوص القرآنية بأنه: راجع الى النهي عن الجدل، وروعة القرآن، وتأثر العرب بذلك والإستغراق في الحرب ووجود الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) حياً بين أظهرهم يهديهم السبيل السوي ويوضح لهم ما يسألون عنه مما يجدونه غامضاً، ويرى الدكتور موسى أن لكل تلك الأسباب الأثر في إنصراف المسلمين عن معارضة القرآن بعضه ببعض والحق أنه مع وجاهة الأسباب التي أوردها إلا أنه كيف ساغ له القول بأنها وراء عدم إثارة وجود التعارض والتناقض بين النصوص؟؟ وكأنه يريد أن يقول أن التعارض أمر متحقق وواقعي إلا أنه حالت دون إثارته صوارف ودواعٍ. وهذا كما هو بين ليس بصحيح لأن السبب الحقيقي في ذلك هو كما صرّح به الخطابي أدركوا عن علم وفهم عدم وجود تعارض وتضارب بين النصوص ساعدهم على ذلك وجود الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بين أظهرهم وإدراكهم زمان الوحي.

راجع الإتقان للسيوطي٢:٢٧، وراجع: تمهيد لتاريخ الفلسفة للشيخ عبد الرزاق: ٢٧٢.

(٢٠) راجع صحيح البخاري٦:٣٥، وسنذكر الرواية لاحقاً، وقد أوردها الزركشي في البرهان٢: ٥٩ وما بعدها ويحسن الإشارة هنا الى أن الطبرسي في كتاب الإحتجاج يذكر رواية تصرح بأن رجلاً قال للإمام علي (عليه السّلام) لولا ما يوجد في كتابكم من تناقض لأسلمت، ويستوضح الإمام (عليه السّلام) منه جلية الأمر فيسأله الرجل

بمسائل فيجيبه الإمام عنها، وأغلبها من المتشابه، ومنها ما ورد في الرواية التي أسندها البخاري الى إبن عباس وإجابة إبن عباس عنها، وإبن عباس تلميذ الإمام علي (عليه السّلام) في التفسير، راجع: علي والفلسفة للشيخ محمد جواد مغنية:١٣٩، طبع دار الكاتب العربي-بيروت. وراجع مجمع البيان للطبرسي٥:٤١٨، فقد أورد رواية عن قتادة أن رجلاً سأل عكرمة قال: أرأيت قول الله: ﴿**هذا يوم لا ينطقون**﴾، وقوله تعالى: ﴿**ثم إنّكم يوم القيٰمة عند ربّكم تختصمون**﴾ وهذا ما أورده إبن النغريلة اليهودي من أشكال. وكان قد أجاب عنه بنفس جواب إبن عباس.

(٢١) تأويل مشكل القرآن:١٠.

(٢٢) راجع ما كتبه الدكتور بدوي عن إبن الريوندي (ت ٢٩٨هـ) ضمن كتابه من تاريخ الإلحاد في الإسلام:٧٥-١٨٨.

(٢٣) راجع المغني للقاضي عبد الجبار المعتزلي١٦:٣٤٠ وما بعدها.

(٢٤) من تاريخ الإلحاد:٤١٨.

(٢٥) المصدر نفسه.

(٢٦) إبن النغريلة: هو يوسف بن إسماعيل الكاتب المعروف بإبن النغرلي اليهودي. والظاهر أنه ألف كتابه في «التناقض في كلام الله» -بزعمه- قبل سنة ٤٥٩هـ راجع ما أثبته الدكتور المحقق إحسان عباس؛ مجموعة رسائل لإبن حزم رسالة الرد على إبن النغريلة.

(٢٧) الردّ على إبن النغريلة:٥٢.

(٢٨) راجع «المستشرقون والإسلام للدكتور. عرفاه عبد الحميد:١٧، وراجع ماكتبه حسام الدين الآلوسي في دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي:٨٦ فقد ذكر أن القول بتضارب القرآن هو قول دي بوير ومكدونالد، وبندلي جوزي.

(٢٩) العقيدة والشريعة لتسيهر:٦٨-٦٩.

(٣٠) المصدر نفسه، وتعليقنا عليه أنه: إذا كان خصوم الإسلام قد حاولوا الكشف عن مواطن الضعف في القرآن وإثارة دعاوى ومزاعم دونما سندٍ من علمٍ فذلك شأنهم وهو بسبب خصومتهم ولنا معهم مقال. أما قول گولد تسيهر «إن البحث في التناقضات الظاهرة... الخ» فمن أين له ذلك؟ وما هو سنده في زعمه؟ ومع إفتراضه فلا ضير أن يستحضر المؤمنون النصوص في محاولتهم الفهم والتدبر، مع ما يبدو ظاهرياً من وجود تعارض فيما بينها ثم ينكشف لهم الوجه بعد الإستعانة بأدوات التفسير الصحيح وإتباع المنهج السليم.

(٣١) راجع: فلسفة الفكر الديني للدكتور صبحي الصالح٣:٣٦٤، فقد قال: «أما أن المذاهب والفرق قد إستخدمت آيات مختلفة وقاوم كل منها الآخر بآيات قرآنية فهذا أيضاً صحيح، ومثله يقع في كل ملة

حول نصوصها التي مهما تكن في ذاتها قطعية، فإن دلالتها تظل ظنية إحتمالية كما وضح علماء الأُصول... وأما أن الآيات تتناول وجهين مختلفين لا توافق بينهما، ولا تتصف النصوص المتعارضة ظاهراً ما ييسر التوفيق بينهما فهذا باطل شكلاً وموضوعاً.

(٣٢) راجع ما نقله عنهم: الدكتور غلّاب في نظرات إستشراقية في الإسلام، والمستشرقون والإسلام للدكتور عرفان عبد الحميد:١٨، دراسات في الفكر الفلسفي للدكتور الآلوسي:٨٦.

(٣٣) المستشرقون والإسلام:١٩.

(٣٤) البقرة:١٠٦.

(٣٥) النحل:١٠١.

(٣٦) الإتقان في علوم القرآن ٢:١١٨–١٢٠.

(٣٧) فلسفة الفكر الديني للدكتور الصالح٣:٣٦٢ تعليقة.

(٣٨) البيان في تفسير القرآن:٢٧٧ وما بعدها.

(٣٩) آل عمران:٧.

(٤٠) المقدمة:٤٦٣.

(٤١) راجع: الميزان للطباطبائي٣:٣٢.

(٤٢) جامع البيان٣:١٧٢. وما بعدها، وراجع الإتقان للسيوطي٢:٢.

(٤٣) يونس:٤٤.

(٤٤) الأحزاب:٥٧.

(٤٥) متشابه القرآن١:١٩.

(٤٦) البيان في تفسير القرآن:٢٧٤.

(٤٧) راجع بحار الانوار للمجلسي٩٢:١١، نقل عن أن المحكم هو الذي لا ينسخه شيء وأن معرفة المتشابه تفتقر الى سؤال الراسخين.

(٤٨) راجع المعجزة الخالدة للسيد هبة الدين الشهرستاني.

(٤٩) فلسفة الفكر الديني٢:٥٩، وراجع علوم القرآن للسيد محمد باقر الحكيم:١٤٥.

(٥٠) آل عمران:٧.

(٥١) جامع البيان٣:١٧٦ وما بعدها.

(٥٢) حقائق التأويل ٥:٩، وراجع أيضاً أمالي المرتضى١:٤٣٩.

(٥٣) راجع فصل المقال لإبن رشد:٢٣٣.

(٥٤) الطراز ليحيى اليمني٣:٤٣٧.

(٥٥) المقدمة:٤٦٣. وراجع ما ذكره الدكتور عبد الحليم محمود في كتابه التفكير الفلسفي في الإسلام :١٠٨ وما بعدها: «إن إستعداد المشبهة هو إستعداد الدهماء، ولو وضعت الأمور في نصابها لكانت مهنة الحدادة والنجارة أليق بهم أي بالمشبهة –ولكن إنحراف الأمور جعلهم في عداد العلماء. وراجع ما ذكره الدكتور البهي:٨٣ في الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي قال: العامة عندها الإستعداد بقبول التشبيه، وطبيعة تفكيرها توحي به».

(٥٦) البرهان في علوم القرآن٢:٧١.

(٥٧) فصل المقال:٣٣.

(٥٨) القرآن والفلسفة:٦٠.

(٥٩) الشورى: ١١.

(٦٠) النحل: ٦٠.

(٦١) البرهان ٢: ٧١.

(٦٢) المستشرقون والإسلام: ١٩. وراجع تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، ترجمة عبد الحليم النجار ٣: ١٣٤.

(٦٣) راجع: دراسات في القرآن الكريم للدكتور السيد أحمد خليل: ١١٧، وراجع مناهج تجديد للشيخ الدكتور أمين الخولي: ٢٩٧، وأهم المناهج والمذاهب التفسيرية المنهج الأثري «النقلي» والمنهج العقلي.

(٦٤) الإتقان في علوم القرآن ٢: ١٧٤.

(٦٥) المصدر نفسه.

(٦٦) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده تحقيق د. محمد عمارة ٤: ١٢.

(٦٧) هوامش على نقد الفكر الديني للشيخ آل ياسين: ١٠١.

(٦٨) الإتقان ٢: ١٧٥.

(٦٩) إحياء علوم الدين للغزالي ١: ٢٩٢، دار المعرفة–بيروت.

(٧٠) دراسات في القرآن: ١٣٥-١٤١.

* * *

قصة آية
غُلبت الروم

السيد مالك الموسوي



﴿بِسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيمِ* الٓمٓ*غُلِبَتِ الرُّومُ في أدنَى الأرضِ وَهُم مِن بَعدِ غَلَبِهِم سَيَغلِبونَ* في بِضعِ سِنينَ...﴾(الروم:١-٣).

استمَّر الصراعُ طويلاً ومحتدماً بينَ الدولتيـن العظميين فى العالـم -انذاك-، الفـارسية والـرومانيّـة، وكـانت الحـربُ بينهما سجالاً. وأخيراً دارت رُحى الحرب الضروس لصـالح الفرس المجـوس، ولم تجـد جيـوشهـم الجرارة صعـوبـةً فـى الاستيلاء على الكثير مـن البلدان الواقعة تحتَ سلطـة الرومان، حتّى دخلـت حلب ودمشـــق(٦٠٥-٦١٣م)، وأججـــت الانتصـارات المتتـاليّة حمـاسـةَ الملـك الفارسـي كسرى ابرويز «الظافر»، فأعلنَ الحـرب الـدينيـة علـى المسيحيــن، وانضمَّ ٢٦٠٠٠ مـن اليهود الـى جيشه! ونهبت جيـوشه المتحدة فـي عام ٦١٤م القدس الشريف، فجرت أنهـار الدماء في شوارعها وازقتها، حتى بلغ عدد الضحايا ٩٠٠٠٠ من المسيحيين، وأحـرقت كثيراً من كنائسها، ومن بينهـا كنيسة الضريح المقدّس.

وفـي نشـوة الانتصـارات، أُرسـلَ كسرى الـى هرقل برسـالة ساخـرة قال فيها:

«مـن كسـرى أعظم الآلهـة وسيّـد الأرض كلّها الى هرقل عبده الغبي الذليل: انّكَ تقول انّكَ تعتمـدُ على إلهك فلم إذن لم ينقذ اورشليم من يدي؟!».

وراحـت جيـوشُ كسـرى تجتـاحُ البلـدان حتـى لـم يَعُـد يفصلهـا عـن القسطنطينيّه، عاصمة الدولة الروميّه، الاّ مضيق البسفور!(١) واطمأنَّ ملـك الفرس

الى ما حققه من انتصارات ساحقه، حتّى تركَ ادارة شؤون الحرب لقواده، وعادَ ليتقلّب في اللهو والترف في قصره «بدستجرد»، ليجعل عاصمته الجديدة اعظم شأناً من عاصمته القديمه، ولينحتَ صوراً مشابهة لشيرين أجمل زوجاته الثلاثة آلاف وأحبهنّ الى قلبه العاشق!، حتى شكا الفرس منها باعتبارها امرأةً «مسيحيّة»، وادّعى بعضهُم أنّها قد أدخلت الملك في دينها!!... ولكنّ بلاد الفرس التي عمّها الرخاء وهي تعيش نشوة الانتصارات الكبرى، بكثرة ما أفاءَ عليها من الاسلاب والأرقاء، كان في وسعها أن تغفر لمليكها ترفه ولهوه، وترحب بفتوحاته، وترى فيها النصر النهائي على بلاد اليونان والرومان، ولأهورامزدا على المسيح![2].

ولم تكن الجزيرة العربيّةَ بمعزل عن الأحداث العالميّه، فقد كانت ترقبُ الصراع بينَ الدولتين العظميين، وقد تهللت قريش فرحاً بالانتصارات الفارسيّة، باعتبارهم يشتركونَ معاً في خطّ الشرك والوثنيّة، وهذا ما يؤذنُ بانتصارهم -هكذا تصوّروا- في صراعهم مَعَ المسلمين في مكّة! فيما راحَ المسلمون يشعرون بالحزن والاسف العميقين لما منيت به الدولة الرومانيّة المسيحيّة من هزائم، ولما حلَّ ببيت المقدس الشريف من دمار وتخريب على أيدى الوثنيين الذينَ راحوا يستهزءون بكلّ المقدسات السماويّة...

جاء في تفسير مجمع البيان:

« قال المفسرون: غلبت فارس الرومَ، وظهروا عليهم على عهد رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وفرحَ بذلك كفّارُ قريش من حيث أَنَّ أهل فارس لم يكونوا اهل كتاب، وساء ذلك المسلمين وكان بيت المقدس لأهل الروم كالكعبة للمسلمين، فدفعتهم فارس عَنه»[3].

كما جاءَ في تفسير المنثور عن ابن عبّاس:

«كانَ المشركون يحبّونَ ان يظهر فارس على الروم، لأنّهم أصحاب أوثان، وكانَ المسلمون يحبّونَ أن يظهر الروم على فارس لأنّهم أصحاب كتاب»[4].

وينقل صاحب تفسير مجمع البيان عن الزهري قوله:

«كانَ المشركون يُجادلونَ المسلمين وهم بمكة يقولون: انَّ الروم أهل كتاب وقد غلبهم الفرس، وأنتم

تزعمـون انّكم ستغلبـون بالكتـاب الذي انزل اليكـم على نبيّكـم، فَسنغلبكم كمـا غلبت فارس الروم »![5].

في تلك الأجواء العصيبة نزل القرآن الكريم ليعلنَ للرسول القائد(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وللمسلميـن المستضعفيــن انبـاءً مستقبليّة تحكي عن انتصارات للروم في بضع سنين(من٣الى ٩)، رُغم كُلّ الدلائل التي تُشير الى أنَّ الـروم ليسوا بقادرين علـى النهوض مـن جديـد لمـا آلت اليـه دولتهم من التمزق والتشتـت، وجيوشـهم من الهزائم والانكسارات:

﴿الٓمٓ*غُلِبَـتِ الـرُّومُ فـي أَدنَـى الأرضِ وَهُـم مِـن بَعـدِ غَلَبِهِـم سَيَغلِبـونَ*في بِضـعِ سِنينَ للهِ الأَمـرُ مِـن قَبـلُ وَمِـن بَعـدُ وَيَـومَئِذٍ يَفـرَحُ المُؤمِنونَ*بِنَصرِ اللهِ يَنصُـرُ مَن يَشاءُ وَهُوَ العَزيزُ الرَّحيمُ﴾ (الروم:١-٥).

وراحـت قـريـش تستهـزئُ بهـذه النبـوءة القرآنيّـه، وتثيـر أجواء الحـرب النفسيّـة الضــاغطـة علــى المسلميـن لتصديقهم بنبوءات أقل ما يُقال عنها أنّها قراءةٌ في فنجان!!

ومــرّت سنـه وسنتــان وثـــلاث واربـع... ولـم يتحقق شـيءٌ مـن تلـك النبوءة، ممـا شجَّعَ قـريشاً فـي تصعيد حملاتها الاستهـزائيّه اكثر فاكثـر، حتى ضــاقــت صــدور بعــض الصحــابــة المنتظريـن على أحرّ من الجمـر، فجاءوا الـى رسـول اللـه (صلّـى الله عليـه وآلـه وسلّـم) يسألـونه عن ســرّ تلك النبوءة القـرآنيّة! فقال لهم الـرسول القائد(صلّى الله عليه وآلـه وسلّم):

« كل ما دونَ العشرة بضع»!

ومـا أن تمّـت بضـع سنيـن حتـى استطاعَ هـرقل ان يُنشئَ جيشاً جـديداً ودولة جديدة من أنقاض الجيش الممزّق، والدولـة المتآكله، وأبحـر باسطولـه الى البحر الأسود، ثُمَّ اخترق ارمينية وهاجمَ بلاد الفرس من الخلـف، ودمّر كلورروميه مسقـط رأس زرادشــت، وسيّـر اليــه كســرى الجيـوش يتلو بعضهـا بعضـاً، ولكن هرقـل هزمها جميعاً... حتـى فتح بيت المقدس، وفرَّ كسرى الى طيسفون، وآلـم قوّاده مـا كـانَ يـوجهه اليهـم مـن اهانات، فانضموا الى النبلاء وخلعوه، ثمَّ سجنـوه ولـم يطعموه الاّ الخبـز القفـار والماء، وذبحـوا ثمانيـة عشر مـن ابنائه أمام عينيه، وانتهى أمره بأن قتله ابن آخر من أبنائه يدعى شيروى(عام ٦٢٨م)[6].

إنَّ في الايات المباركة وقصتها دروساً كبيرة ودلالات عميقه، لا بدَّ من الوقوف عندها والارتشاف من عذب نميرها.

فلماذا هذة النبوءة القرآنيّة بانتصار الروم من بعد هزيمتهم المنكرة؟

وما هي دلالات هذا الفرح والسرور من قبل المسلمين بنصر الروم المسيحيين؟!

ولماذا سجّلَ القرآن الكريم هذا الحدث التاريخي بينَ الدولتين العظميين، حتى صار عنواناً لسورة كاملة «سورة الروم»؟!

انَّ للنبوءة القرآنيّة، والفرح الايماني دلالاتهما وايحاءاتهما، ولعل من أهمّها:

الدلالة الأولى: انَّ الاسلام هو الدين الذي يحتضن كُلَّ الموحدين وان اختلفوا مَعَهُ في بعض الخطوط والتفاصيل، ولهذا فانَّ القرآن الكريم دعا المؤمنين الى التحدث عن نقاط الالتقاء مَعَ أهل الكتاب، لينطلقوا منها في التعاون على البرّ والتقوى من خلال المشاعر التي تجعلهم كتلةً واحدة في الأرض أمام قوى الالحاد في العالم:

﴿قُل يَـٰأَهلَ الكِتَـٰبِ تَعَالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم...﴾ (آل عمران:٦٤).

وقد اعتبر القرآن الكريم انَّ انتصار الفرس المشركين الوثنيين، وهزيمة الروم المسيحيين، انمّا هو هزيمة لعقيدة التوحيد، وانتصار لمحور الشرك والوثنيّة في الأرض.

وهذا موقفٌ سياسيٌ اسلامي نابعٌ من احساس المسلمين بعلاقتهم بأهل الكتاب رغم كُلّ الاختلافات فيما بينهم، ورغم كل ما يحملهُ أهل الكتاب من اليهود والنصارى من ضغائن واحقاد على الاسلام والمسلمين.

واذا كانَ اليهود والنصارى يتعقّدون من الاسلام ولايؤمنون برسوله فانَّ المسلمين ينفتحونَ عليهما ويؤمنون بموسىٰ وعيسىٰ (عليهما السلام) وبأنهما رسُلُ اللّه ، ومن أُولى العزم الخمسه.

ولهذا فانَّ القرآن يدعو أهل الكتاب الى الانفتاح على الاسلام ان كانوا حقاً يلتزمونَ بالكتب المقدسة، ويأمرهم بالكفّ عن تآمرهم على المسلمين الذينَ يعتبرون السند والظهير لهم في ساحة الصراع مَعَ قوى الشرك والالحاد والوثنيّة:

﴿يٰأَهلَ الكِتٰبِ لِمَ تَلبِسونَ الحَقَّ بِالبٰطِلِ وَتَكتُمونَ الحَقَّ وَأَنتُم تَعلَمونَ﴾ (آل عمران: ٧١).

الدلالة الثانية: ارتباط القضايا الدوليّة بالقضايا الاقليميّة والمحليّة وتأثيرالسلبي أو الايجابي في ساحة المواجهة.

انَّ صراع القوى «الكبرى» يؤثر تأثيراً كبيراً على مجريات الأحداث في العالم أجمع، ذلك لأنَّ الأحداث مترابطه، وإن تباعدت مواقع الصراع، وأخذت كلّ قضيّة عنوانها الخاص بها.

واذا كانت نظرة المسلمين في صدر الاسلام لترابط الاحداث الدوليّة، وتأثيرها عليهم في صراعهم مَعَ قريش في مكّة، وشعورهم بالحزن لغلبة الفرس على الروم بهذه الدقة رُغم صعوبة الاتصال بين الدول، ورغم بساطة وسائل الاعلام -انذاك-، حين كانت الاخبار والانباء ينقلها الركبان، فما أحرانا في وقتنا المعاصر أن نعي هذا الترابط الذي أصبح وثيقاً وكبيراً بفضل التطور «التكنولوجي» في وسائل النقل والاعلام حتى أصبح العالم قريةً صغيرة في عصر الاقمارالصناعيّة، وغدا ما يحدث في الشرق يسمعهُ ويراه من في الغرب، بلمح البصر أو هُوَ أقرب!

من هذا المنطلق صارَ وعي الخارطة السياسيّة للعلاقات الدوليّة، ومعرفة تأريخ هذه العلاقات وحاضرها واستشراف مستقبلها، كل ذلك صارَ من الواجبات الاساسيّة للمسلمين، ليتمتعوا بالنظرة السياسيّة الشاملة والعميقة للاحداث والتطورات في العالم أولاً وليملكوا البصيرة في نقاط الضعف والقوّة لكلّ قوّة في الساحة ثانياً، ليتسنى لنا الاعداد الواقعي والمدروس للقوى الفاعلة في الساحة، طبقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠).

ولعل في (لَهُم) دلالة على أن يكون الاستعداد وفقاً لمعطيات العدو الحقيقيّة وما يملك من وسائل القوّة، حتى نستطيع أن نوفّر القوّة من خلال معرفة قوّة العدو وما يملكه من وسائل مضادة.

انَّ ما حدث من تصدّع وانهيار في المعسكر الاشتراكي أسفر عن انهيار القطبيّة الثنائيّة، لهُ علاقةٌ كبيرة بمستقبل الاسلام وقوته، وما يحدُث من اتحاد بين الدول الاوربيّة لهُ تأثيرٌ مباشر على أحداث عالمنا الاسلامي.

كما انَّ انتصار الاسلام في أيّ مكان من العالم انما هُوَ انتصارٌ للاسلام في العالم، وأنَّ فوزَ أية قوّة مستضعفة في أرجاء الأرض انما هو فوزٌ للحق والحريّة، لأنَّ قضايا الحق والحريّة لا تتجزأ. فعندما انتصرت الامبراطوريّة الفارسيّة غمرت الفرحةُ المشركين في مكّة، وشعروا بالقوّة والغلبة في مواجهة الدعوة الاسلاميّة وقائدها الرسول الكريم(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وراحوا يبثّونَ الاشاعات بانتصارهم الحتمي على المسلمين في المستقبل كأسلوب من اساليب الحرب الحرب النفسيّة التي تريد أن تقوي خط الشرك والالحاد في الأرض.

ولقد أحسَّ بعض المسلمين بالضعف والانكسار أمام هذه الحالة.

وفي تلك الأجواء الخانقه نزلت سورة الروم لتعلن عن الوعد الرباني الحتمي بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين(من٣ الى٩)، وسيحدث الانعطاف التأريخي غير المتوقع في مسار الصراع بين القوتين العظميين.

﴿وَيَومَئِذٍ يَفرَحُ المُؤمِنونَ* بِنَصرِ اللهِ﴾، الذي جعل للنصر سنناً وقوانين، **﴿يَنصُرُ مَن يَشاءُ وَهُوَ العَزيزُ الرَّحيمُ﴾**.

الدلالة الثالثة: انَّ قضّية النصر والهزيمة ليست من القضايا العفويّة التي لا تخضع الى سنن وشروط وقوانين، بل ان النصر بالتعبير القرآني يخضع لقانون «التداول» في قوله تعالى: **﴿وَتِلكَ الأيّامُ نُداوِلُها بَينَ النّاسِ﴾**(آل عمران: ١٤٠).

والتعبير بـ«الناس» تعبير عميق ودقيق، يشير الى أنَّ النصر ليس حكراً على جماعة دون أُخرى، ولا هو ضربة لازب لأمّة لا يبارحها، بل انَّ النصر يجيء حيث تكون شروطهُ متوفرة، وانّهُ سرعان ما يرحل اذا ما تغيرت الشروط والظروف.

وما أجمل ما سجّلهُ الشهيد محمد باقر الصدر من التفاتة رائعة في كلمة «الناس» في آية المداوله، عندما قال:

« هنا أخذ القرآن يتكلّم عنهم (الصحابه) بوصفهم أناساً، قال بأنَّ هذه القضيّة هي في الحقيقة ترتبط بسنن التأريخ، المسلمون انتصروا في بدر حينما كانت الشروط الموضوعيّة للنصر بحسب منطق سنن التأريخ تفرض أنْ

ينتصروا، وخسروا المعركة في أُحُد حينما كانت الشروط الموضوعيّة في معركة أُحد تفرض عليهم ان يخسروا المعركة:

﴿إِن يَمسَسكُم قَرحٌ فَقَد مَسَّ القَومَ قَرحٌ مِثلُهُ وَتِلكَ الأَيّامُ نُداوِلُها بَينَ النّاسِ﴾.

لا تتصوروا أنَّ النصر حقٌّ الهي لكم، وانما النصرُ حقٌّ طبيعي لكم بقدر ما يمكن أنْ توفروا الشروط الموضوعيّة لهذا النصر بحسب منطق سنن التأريخ التي وضعها اللّه سبحانه وتعالى كونياً لا تشريعياً، وحيثُ انكم في غزوة أُحد لم تتوفر لديكم هذه الشروط خسرتم المعركة»[٧].

لقد استطاعت الدولة الروميّة بقيادة « هرقل» وعقب ما منيت به من هزائم منكرة أن تستعيدَ قواها، وتلمَّ شتاتها، وتجمع فلول جيوشها المنهزمة، وان تبعثَ الأمل بالنصر في صفوف جنودها مهما كانت جولات الانكسار مؤلمة. . . استطاعت أن تحوّل كفّة الحرب الى صالحها، رغم انَّ الجميع كانوا يصوّرون انها لن تقوم لها قائمة.

بينما نرى العكس في الطرف المقابل، فقد تحولت انتصارات الفرس الى هزائم منكرة بفعل ما عاشوه من استكبار في نشوة الانتصار، وهم يشعرون أنهم قد اصبحوا القطب الأوحد في العالم انذاك. حتى كسرى استقبل سفير رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بكلّ كبرياء وأنفه، وراح يُمعنُ في تمزيق رسالة الرسول الكريم.

ولقد قرأ الرسولُ القائد مستقبل هذا الملك المستكبر، عندما أخبرهُ سفيرهُ بانَّ كسرى قد مزّق الرسالة، قال (صلّى الله عليه وآله وسلّم) كلمتَهُ الرائعه:

«مزّقَ كسرى ملكه»!!

ولم تكن النبوءة القرآنية بانتصار الروم قائمةً على فراغ، بل انّها جاءت وفقاً لعلم اللّه سبحانه بما سيؤول اليه حال الفريقين بَعدَ بضع سنين، وما سيعيشُهُ المنتصر من رخاء وترف وخيلاء، بينما يسعى المنهزمون لتوفير عناصر القوّة وشروط النصر:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ*في أَدنَى الأَرضِ وَهُم مِن بَعدِ غَلَبِهِم سَيَغلِبونَ*في بِضعِ سِنينَ لِلَّهِ الأَمرُ مِن قَبلُ وَمِن بَعدُ وَيَومَئِذٍ يَفرَحُ المُؤمِنونَ*بِنَصرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشاءُ وَهُوَ العَزيزُ الرَّحيمُ﴾.

والتعبير بـ«ينصرُ من يشاء» لـهُ دلالاتُهُ العميقة في انَّ النصر لهُ شروطه واسبابُهُ، وانَّ اللّه سبحانه يكتبُ النصر

لـ«من يشـاء»، وقد شـاءَ اللّه أن يكـونَ النصر لمن يوفّر شروطه واسبابه:

﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ﴾.

انَّ القـرآن الكريـم «يكسر الحلقـة المفـرغـة لحتميّة السقـوط، ويـوجهها توجيهاً آخـر اكثر دايناميّة وأعمـق أملاً، وأبعد عن النـزعة التشاؤميّة التـي تسود موقـف ابن خلدون وعـديد من فـلاسفة التأريخ»(٨).

«انَّ المداولة توحي بالحركة الدائمة، وبالتجدد، وبالأمل وتقرر أنَّ الأيام ليست ملكاً لأحـد، ومـن ثـمَّ لا داعـي لليـأس والهزيمة، فمن هم في القمّة الآن ستنزل بهم حركة «الأيـام» الى الحضيض، ومن هم في القاع ستصعد بهم الحركة نفسها –ومـن خـلال فعلهم الحـر وحـركتهـم واختيارهم ـ الى القمّه».

انَّ القرآن يطرحُ امكانيـةَ ايّة امة ان تعود باستمرار لكـي تُنشئُ دولة أُخرى، أو تمارس تجربة جديـدة أو تتولى زمام القيادة الحضاريّة والعقائديّة، بمجرد ان تستكمل الشروط اللازمة لذلك. . .(٩).

وهكـذا تستطيـع الأمّـة المنهـزمـة المنكسـرة أن تحـوّل تلـك الهـزيمـة والانكسار الى نهضـة وانتصار، فيما اذا استطـاعـت أن تستفيـد مـن دروس الهزيمـة، وتدرس أسبـابها، لتنطلـق من جديد بكلّ عناصر القوّة والقدرة، وتأخذَ باسباب العزّة والمنعـة، والطريق مفتوحٌ للسالكين:

﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ*في بِضْعِ سِنينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنونَ﴾.

الهوامش

(١) ديورانت؛ قصّة الحضارة ١٢:٢٩٥.

(٢) نفس المصدر: ٢٩٦.

(٣) الطبـرسي؛ مجمـع البيـان: تفسيز سـورة الروم.

(٤) السيـوطي؛ الـدرّ المنثـور: تفسير سـورة الروم.

(٥) الطبرسي؛ المصدر السابق.

(٦) ديورانت؛ قصة الحضارة ١٢:٢٩٦.

(٧) الشهيد محمدباقر الصدر: سنن التأريخ.

(٨) عماد الـدين خليل؛ حـول أسلاميّـة تفسير ابـن خلـدون للتـاريـخ، مجلـة المسلـم المعاصر، العدد.

(٩) عمـاد الديـن خليـل؛ التفسيـر الاسلامـي للتأريخ: ٢٥٩,٢٦١.

* * *

التفسير نشأته وتطوره

(٢)

مرحلة عهد الصحابة

الشيخ محمد هادي معرفة

هُم دَرَجَـٰتٍ عِندَ اللهِ

قال تعالى: ﴿**نَرفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَن نَشاءُ وَفَوقَ كُلِّ ذي عِلمٍ عَليمٌ**﴾(يوسف: ٧٦).

لا شك ان الصحابة، ممن «رضي الله عنهم ورضوا عنه» (التوبة: ١٠٠) كانوا هم مراجع الأمّة بعد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) اذ كانوا حاملي لوائه ومصادر شريعته الى الملأ، ليس يعدل عنهم الى الأبد.

نعم، كانوا على درجات من العلم والفضيلة حسبما أوتوا من فهم وذكاء وسائر المواهب والإستعداد:

﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَت أَودِيَةٌ بِقَدَرِها**﴾ (الرعد: ١٧)، ﴿**يُؤتِي الحِكمَةَ مَن يَشاءُ وَمَن يُؤتَ الحِكمَةَ فَقَد أُوتِيَ خَيراً كَثيراً**﴾ (البقره: ٢٦٩).

قال مسروق بن الأجدع الهمداني[١]: جالست أصحاب محمد(صلّى الله عليه وآله وسلّم) فوجدتهم كالإخاذ -يعني الغدير من الماء- فالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يُروى الرجلين، والإخاذ يُروى العشرة، والإخاذ يروى المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم[٢].

وفي لفظ ابن الأثير: تكفي الإخاذة الراكب، وتكفي الإخاذة الراكبين، وتكفي الإخاذة الفئام من الناس. قال: والإخاذ ككتاب: مصنع للماء يجتمع فيه. والفئام: الجماعة الكثيرة.

ويعني بالأخير الامام اميرالمؤمنين، عليه صلوات المصلين، حيث كان(سلام الله عليه) ينحدر عنه السيل ولا يرقى اليه الطير[٣]. قال مسروق: «انتهى العلم الى ثلاثة: عالم بالمدينة علي بن ابي طالب،

وعالم بالعراق عبد الله بن مسعود، وعالم بالشام ابى الدرداء... فاذا التقوا سأل عالمُ الشام وعالم العراق عالم المدينة وهو لم يسألهم..[٤]

قال الأستاذ محمد حسين الذهبي: الحق ان الصحابة كانوا يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه المرادة منه، وذلك راجع الى اختلافهم في ادوات الفهم، فقد كانوا متفاوتين في العلم بلغتهم، فمنهم الواسع الاطلاع الملمّ بغريبها (كعبدالله بن عباس)، ومنهم دون ذلك، ومنهم من لازم النبي(صلّى الله عليه وآله وسلّم) فعرف من أسباب النزول ما لم يعرفه غيره ـ كعلّي بن أبي طالب(عليه السّلام) ـ. أضف الى ذلك أن الصحابة لم يكونوا في درجتهم العلميه ومواهبهم العقليّه سواءً، بل كانوا مختلفين في ذلك اختلافاً عظيماً..[٥]

هذا عديّ بن حاتم[٦]، العربي الصميم، حسب من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيطُ الأَبيَضُ مِنَ الخَيطِ الأَسوَدِ مِنَ الفَجرِ...﴾(البقرة:١٨٧)، انه تمايز احد خيطين ابيض وآخر أسود، احداهما عن الآخر في ضوء الفجر! فأخذ عقالين أبيض وأسود وجعلهما تحت وسادة، فجعل ينظر اليهما فلا يتبيّن له احدهما عن الآخر فلما أصبح غدى الى رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) يخبره بما صنع! فضحك رسول الله من صنيعة ذلك، حتى بدت نواجذه، وفي رواية، قال له: إن وسادك إذن لعريض! –كنايةً عن عدم تنبّهه لحقيقة الأمر– ثم قال له: إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل...[٧] إنه البياض المعترض على الأفق تحت سواد الليل المنصرم... وفى الدرّ المنثور: لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل– وهو الساطع المُصعَد– ولكن الفجر المستظهر في الأفق، هو المعترض الاحمر، يلوح الى الحمرة. وفي حديث: لا يمنعكم أذان بلال من سحوركم، فانه ينادي بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن ام مكتوم، فانه لا يؤذّن حتى يطلع الفجر[٨].

قال الامام ابو جعفر الباقر(عليه السّلام): «الفجر هو الخيط الابيض المعترض، وليس هو الأبيض صُعُداً...»[٩].

وزعمت عائشة من قوله تعالى: ﴿يُؤتونَ ما ءَاتَوْا...﴾ إرادة إرتكاب المآثم... الأمر الذي يتنافى مع سياق الآية الواردة بشأن الإشادة بموضع المؤمنين حقاً... قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ هُم مِن خَشيَةِ رَبِّهِم مُشفِقونَ﴾ -الى قوله:- ﴿وَالَّذينَ يُؤتونَ ما ءَاتَوْا وَقُلوبُهُم وَجِلَةٌ أَنَّهُم إِلىٰ رَبِّهِم رٰجِعونَ*أُولٰئِكَ يُسٰرِعونَ فِى الخَيرٰتِ وَهُم لَها سٰبِقونَ﴾ (المؤمنون:٥٧-٦١).

فسألت عن ذلك رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وقالت: هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله؟! فقال (صلّى الله عليه وآله وسلّم): لا، ولكنّه الذي يصوم ويصلّي ويتصدّق ويخاف الله[١٠]. كفاية عن إتيانه الطاعات، وجلاً ان لا يكون مؤدّياً لها تامّة حسبما اراده اللّه!

ولعلها كانت تتصور من الكلمة أنها مقصورة (يأتُون ما أَتَوا) بمعنى: «يعملون ما عملوا». وقد اسلفنا الكلام عن تزييفه[١١]. وان الصحيح هي قراءة المدّ (يُؤتون ما آتوا) بمعنى: يؤدّون ما أدّوا، اي من أفعال البّر والخيرات، من غير اعجاب ولا رياء... والى ذلك ينظر تفسيره (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

وروى زرارة عن الامام ابي جعفر الباقر (عليه السّلام) قال: أتى عمّار بن ياسر رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فقال: يا رسول الله! أجنبتُ اللّيلة ولم يكن معي ماء. قال: كيف صنعت؟ قال: طرحت ثيابي ثم قمت الى الصعيد فتمعّكتُ[١٢]!! فعلّمه رسول الله التيمّم، سواء أكان بدل وضوء ام بدل غسل...[١٣].

وقرأ عمر بن الخطّاب من سورة «عبس» حتى وصل الى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسٰنُ إِلىٰ طَعامِهِ*أَنّا صَبَبنَا الماءَ صَبّاً*ثُمَّ شَقَقنَا الأَرضَ شَقّاً*فَأَنبَتنا فيها حَبّاً*وَعِنَباً وَقَضباً*وَزَيتوناً وَنَخلاً*وَحَدائِقَ غُلباً*وَفٰكِهَةً وَأَبّاً*مَتٰعاً لَكُم وَلِأَنعٰمِكُم﴾ (عبس:٢٤-٣٢)، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ؟ ثم رجع الى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلّف يا عمر!

وفي رواية: ثم رفض -او نفض- عصاً كانت في يده، وقال: هذا لعمر الله هو التكلّف، فما عليك ان لا تدري ما الأبّ، إتّبعوا ما بُيّن لكم هُداه من الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه الى ربّه! -ولعلّه سئل عن تفسير الآية فحار في الجواب!

وعالم بالعراق عبدالله بن مسعود، وعالم بالشام ابى الدرداء... فاذا التقوا سأل عالمُ الشام وعالم العراق عالم المدينة وهو لم يسألهم..[4]

قال الأستاذ محمد حسين الذهبي: الحق ان الصحابة كانوا يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه المرادة منه، وذلك راجع الى اختلافهم في ادوات الفهم، فقد كانوا متفاوتين في العلم بلغتهم، فمنهم الواسع الاطلاع الملمّ بغريبها (كعبدالله بن عباس)، ومنهم دون ذلك، ومنهم من لازم النبي(صلّى الله عليه وآله وسلّم) فعرف من أسباب النزول ما لم يعرفه غيره ـ كعلّي بن أبي طالب(عليه السّلام) ـ. أضف الى ذلك أن الصحابة لم يكونوا في درجتهم العلميه ومواهبهم العقليّه سواءً، بل كانوا مختلفين في ذلك اختلافاً عظيماً..[5]

هذا عديّ بن حاتم[6]، العربي الصميم، حسب من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشرَبُوا حَتّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيطُ الأبيَضُ مِنَ الخَيطِ الأسوَدِ مِنَ الفَجرِ...﴾(البقرة:١٨٧)، انه تمايز احد خيطين ابيض وآخر أسود، احداهما عن الآخر في ضوء الفجر! فأخذ عقالين أبيض وأسود وجعلهما تحت وسادة، فجعل ينظر اليهما فلا يتبيّن له احدهما عن الآخر فلما أصبح غدى الى رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) يخبره بما صنع! فضحك رسول الله من صنيعة ذلك، حتى بدت نواجذه، وفي رواية، قال له: إن وسادك إذن لعريض! -كنايةً عن عدم تنبّهه لحقيقة الأمر- ثم قال له: إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل...[7] إنه البياض المعترض على الأفق تحت سواد الليل المنصرم... وفى الدرّ المنثور: لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل- وهو الساطع المُصعَد- ولكن الفجر المستظهر في الأفق، هو المعترض الاحمر، يلوح الى الحمرة. وفي حديث: لا يمنعكم أذان بلال من سحوركم، فانه ينادي بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن ام مكتوم، فانه لا يؤذّن حتى يطلع الفجر[8].

قال الامام ابو جعفر الباقر(عليه السّلام): «الفجر هو الخيط الابيض المعترض، وليس هو الأبيض صُعُداً..»[9].

وزعمت عائشة من قوله تعالى: ﴿يُؤتونَ ما ءَاتَوْا...﴾ إرادة إرتكاب المآثم... الأمر الذي يتنافى مع سياق الآية الواردة بشأن الإشادة بموضع المؤمنين حقاً... قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ هُم مِن خَشيَةِ رَبِّهِم مُشفِقونَ﴾-الى قوله:-﴿وَالَّذينَ يُؤتونَ ما ءَاتَوْا وَقُلوبُهُم وَجِلَةٌ أَنَّهُم إِلىٰ رَبِّهِم رٰجِعونَ*أُولـٰئِكَ يُسـٰرِعونَ فِي الخَيـٰرٰتِ وَهُم لَها سـٰبِقونَ﴾ (المؤمنون:٥٧-٦١).

فسألت عن ذلك رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وقالت: هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله؟! فقال (صلّى الله عليه وآله وسلّم): لا، ولكنّه الذي يصوم ويصلّي ويتصدّق ويخاف الله[١٠]. كفاية عن إتيانه الطاعات، وجلاً ان لا يكون مؤدّياً لها تامّة حسبما اراده الله!

ولعلها كانت تتصور من الكلمة أنها مقصورة (يأتُون ما أَتَوا) بمعنى: «يعملون ما عملوا». وقد اسلفنا الكلام عن تزييفه[١١]. وان الصحيح هي قراءة المدّ (يُؤتون ما آتوا) بمعنى: يؤدّون ما أدّوا، اي من أفعال البرّ والخيرات، من غير اعجاب ولا رياء... والى ذلك ينظر تفسيره (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

وروى زرارة عن الامام ابي جعفر الباقر (عليه السّلام) قال: أتى عمّار بن ياسر رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فقال: يا رسول الله! أجنبتُ اللّيلة ولم يكن معي ماء. قال: كيف صنعت؟ قال: طرحت ثيابي ثم قمت الى الصعيد فتمعّكتُ[١٢]!! فعلّمه رسول الله التيمّم، سواء أكان بدل وضوء ام بدل غسل...[١٣].

وقرأ عمر بن الخطّاب من سورة «عبس» حتى وصل الى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسـٰنُ إِلىٰ طَعامِهِ*أَنّا صَبَبنَا الماءَ صَبّاً*ثُمَّ شَقَقنَا الأَرضَ شَقّاً*فَأَنبَتنا فيها حَبّاً*وَعِنَباً وَقَضباً*وَزَيتوناً وَنَخلاً*وَحَدائِقَ غُلباً*وَفـٰكِهَةً وَأَبّاً*مَتـٰعاً لَكُم وَلِأَنعـٰمِكُم﴾(عبس:٢٤-٣٢)، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ؟ ثم رجع الى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلّف يا عمر!

وفي رواية: ثم رفض -او نقض- عصاً كانت في يده، وقال: هذا لعمر الله هو التكلّف، فما عليك ان لا تدري ما الأبّ، إتّبعوا ما بُيّن لكم هُداه من الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه الى ربّه! -ولعلّه سئل عن تفسير الآية فحار في الجواب!

وقد ورد ان أبابكر -ايضاً- سئل قبل ذلك عن تفسير الآية، فقال: أيّ سماءٍ تُظلّني، وأيّ أرض تُقلّني، إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم! [١٤].

قال الذهبي: ولو أننا رجعنا الى عهد الصحابة لوجدنا أنهم لم يكونوا في درجة واحدة بالنسبة لفهم معاني القرآن، بل تتفاوت مراتبهم، وأشكل على بعضهم ما ظهر لبعض آخر منهم. وهذا يرجع الى تفاوتهم فى القوّة العقليّة. وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات: واكثر من هذا، أنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني التي وضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفى معناه على بعض الصحابة، ولا ضير في هذا، فإنّ اللغة لا يحيط بها إلاّ معصوم! ولم يدّع أحد أن كل فرد من أمّة يعرف جميع ألفاظ لغتها.

قال: ومما يشهد لهذا الذي ذهبنا اليه، ما أخرجه ابو عبيدة فى الفضائل عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر «وفاكهة وأبّاً» فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟. ثم رجع الى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلّف يا عمر!

وما روي من أن عمر كان على المنبر فقرأ: **﴿أَو يَأخُذَهُم عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾**(النحل:٤٧)، ثم سأل عن معنى التخوّف، فقال له رجل من هُذيل: التخوف عندنا التنقّص، ثم أنشد:

تخوَّفَ الرحلُ منها تامكاً قَرداً
كما تخوَّفَ عُود النَّبعة السَّفنُ [١٥]

قال الطبرسي: التخوّف التنقّص، وهو أن يأخذ الأوّل فالأول حتى لا يبقى منهم أحد، وتلك حالة يخاف منها الهلاك والفناء، وهو الفناء تدريجاً، ثم أنشد البيت بتبديل الرحل الى السير[١٦].

قال الفراء: جاء التفسير بأنه التنقّص. والعرب تقول: تحوّفته – بالحاء المهملة –: تنقصّه من حافاته[١٧].

ومعنى الآية– على ذلك–: أنه تعالى يُهلكهم على تدرّج شيئاً فشيئاً، بما يجعلهم على خوف الفناء، حيث يرون أنهم في تنقيص والأخذ من جوانبهم تدريجاً. . . وهذا نظير ما ورد في آية أخرى: **﴿أَفَلا يَرَونَ أَنّا نَأتِى الأَرضَ نَنقُصُها مِن أَطرافِها﴾**(الانبياء:٤٤). [١٨].

وقوله: **﴿وَلَنَبلُوَنَّكُم بِشَيءٍ مِنَ الخَوفِ وَالجوعِ وَنَقصٍ مِنَ الأَموالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرٰتِ﴾**(البقرة:١٥٥).

وايضاً أخرج ابو عبيدة عن طريق مجاهد عن عبد الله بن عباس، قال: كنت لا أدري ما «فاطر السمٰوات» حتى أتاني أعرابيّان يتخاصمان في بئر. فقال أحدهما: أنا فطرتها، والآخر يقول: أنا ابتدأتها. . .[19].

قال الذهبي: فاذا كان عمر بن الخطاب يخفى عليه معنى الأبّ ومعنى التخوّف، ويسأل عنهما غيره، وابن عباس- وهو ترجمان القرآن- لا يظهر له معنى «فاطر» إلا بعد سماعه من غيره، فكيف شأن غيرهما؟! لا شكّ أن كثيراً منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالي للآية: فيكفيهم-مثلاً- أن يعلموا من قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾، أنه تعداد للنعم التي أنعم الله بها عليهم، ولا يُلزمون أنفسهم بتفهّم معنى الآية تفصيلاً، ما دام المراد واضحاً جليّاً. . .[20].

المفسّرون من الاصحاب

إشتهر بالتفسير من الصحابة اربعة، لا خامس لهم في مثل مقامهم في العلم بمعاني القرآن، وهم: علي بن ابي طالب(عليه السّلام) كان رأساً وأعلم الاربعة. وعبد الله بن مسعود، وأُبيّ بن كعب، وعبد الله بن عباس، كان أصغرهم وأوسعهم باعاً في نشر التفسير.

أمّا غير هؤلاء الأربعة فلم يعهد عنهم فى التفسير سوى النزر اليسير.

قال جلال الدين السيوطي: اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة، الخلفاء الاربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وابوموسى الاشعري، وعبد الله بن الزبير. أما الخلفاء، فأكثر من روى عنه منهم علي بن ابي طالب، والرواية عن الثلاثة (ابي بكر وعمر وعثمان) نزرة جدّاً[21].

قال الاستاذ الذهبي: وهناك من تكلّم فى التفسير من الصحابة غير هؤلاء، كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وعبدالله بن عمر، وجابر بن عبدالله، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعائشةُ. غير ان ما نقل عنهم فى التفسير قليل جدّاً كما أن العشرة الذين اشتهروا بالتفسير، تفاوتوا قلّةً وكثرةً، والمخصوص بكثرة الرواية فى التفسير منهم اربعة: على بن ابي طالب، وابن مسعود، وابىّ بن كعب، وابن عباس. اما باقى العشرة، وهم: زيد، وابوموسى، وابن الزبير، فقد قلّت عنهم الرواية ولم يبلغوا ما بلغه الأربعة

قال: لهذا نرى الإمساك عن الكلام في شأن السّتة، ونتكلّم عن «علي ابن ابي طالب» و«ابن مسعود» و«أبيّ بن كعب» و«ابن عباس» نظراً لكثرة الرواية عنهم فى التفسير، كثرةً غذّت مدارس الامصار على اختلافها وكثرتها. . .[٢٢].

أعلم الصحابة بمعاني القرآن فالأعلم

قال الإمام بدرالدين الزركشي: وصدر المفسرين من الصحابة هو علي بن ابي طالب، ثم ابن عباس. وهو تجرّد لهذا الشأن، والمحفوظ عنه اكثر من المحفوظ عن علي، الاّ أن ابن عباس كان قد أخذ عن علي (عليه السّلام)[٢٣].

قال الأستاذ الذهبي: كان علي(عليه السّلام) بحراً من العلم، وكان قويّ الحجّة، سليم الإستنباط. أوتي الحظّ الأوفر من الفصاحة والخطابة والشعر وكان ذا عقل ناضج وبصيرة نافذة الى بواطن الأمور. وكثيراً ما كا ن يرجع اليه الصحابة في فهم ما خفي، واستجلاء ما أشكل. وقد دعا له رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) حين ولاه قضاء اليمن، بقوله: «اللّهم ثبّت لسانه واهد قلبه». فكان موفَقاً مسدّداً، فيصلاً فى المعضلات[٢٤]، حتى ضرب به المثل،فقيل: «قضيّة ولا أبا الحسن لها»!

قال: ولا عجب، فقد تربّى في بيت النبّوة، وتغذّى بلبان معارفها، وعمّته مشكاة أنوارها. . . وقيل لعطاء: أكان في أصحاب محمد أعلم من علي؟ قال: لا، واللّه لا أعلمه. . . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: «إذا ثبت لنا الشيء عن عليّ، لم نعدل عنه الى غيره». . .[٢٥].

قال ابن عباس: جلّ ما تعلّمت من التفسير، من علي بن ابي طالب. . .

وقال: عليٌّ عَلِمَ علماً علّمه رسول الله. ورسول الله علّمه الله. فعلم النبي من علم الله. وعلم علي من علم النبي. وعلمي من علم علي. وما علمي وعلم اصحاب محمد(صلّى الله عليه وآله وسلّم) في علم على، الاّ كقطرة في سبعة أبحر. وفي حديث آخر: فاذا علمي بالقرآن في علم علي (عليه السّلام) كالقرارة في المثعنجر قال: القرارة الغدير، والمثعنجر البحر. . .[٢٦].

وقال: لقد اعطى علي بن ابي طالب (عليه السّلام) تسعة أعشار العلم، وأيم اللّه لقد شاركهم فى العشر العاشر. . . الامر

الـذي احـوج الكـل اليـه واستغنـى عـن الكل. . . كما قال الخليل. . .

وقـال سعيـد بن جبيـر: كـان ابـن عباس يقول: اذا جاءنا الثبت عن علي(عليه السّلام) لم نعدل به. . . وفي لفظ ابن الاثير: اذا ثبت لنا الشيء عن علـي لم نعدل عنه الى غيره.

وقد عرفت ان مـا أخذه ابن عباس من التفسير فانما أخذه عن علي (عليه السّلام).

وقال سعيد بن المسيب: ما كان أحد من النـاس يقول سلـوني غيـر علي بـن ابـي طالـب. قال: كـان عمـر يتعوذ مـن معضلة ليس لها ابـو حسن. . . وقد روى البـلاذري فـي الانسـاب قـولـة عمـر: «لا أبقـانـي اللـه لمعضلـة ليس لها ابو حسن».

وقـال ابـو الطفيـل: كـان علـي (عليه السّلام) يقول: سلوني،سلوني،سلوني عن كتاب اللّه تعالى، فـوالله ما من آية الاّ وانا أعلم أنزلت بليل او نهار. . .

وقال عبد الله بن مسعود: إنّ القرآن انزل على سبعة أحرف، ما منها حرف الا وله ظهر وبطـن، وان علي بن ابي طـالب عنده منه الظاهر والباطن[٢٧].

وروى ابـو عمـرو الـزاهـد (٢٦١-٣٤٥) باسناده الـى علقمة، قال: قال لنا عبـدالله بن مسعود ذات يـوم في حلقته: لو علمت أحداً هو اعلم منّي بكتاب اللّه عزوجل، لضربت اليه آباط الإبل. قال علقمة: فقال رجل مـن الحلقة: ألقيت عليّاً (عليه السّلام)؟ فقال: نعم، قد لقيته، واخذت عنه، واستفـدت منه، وقرأت عليـه، وكان خير الناس واعلمهم بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ولقد رأيته كان بحراً يسيل سيلاً. . .[٢٨].

قال ابن ابـي الحديد- بصدد كـونه (عليه السّلام) مـرجـع العلوم الاسـلاميـة كلها-: ومـن العلوم علـم تفسير القـرآن وعنه اخـذ، ومنه فـرّع. واذا رجعت الـى كتب التفسير علمت صحّة ذلك، لأنّ اكثره عنه وعـن عبد اللـه بن عبـاس. وقد علـم الناس حـال ابن عباس فـي ملازمتـه له، وانقطـاعه اليـه، وانه تلميـذه وخرّيجـه. وقيل لـه: اين علمـك من علـم ابن عمّـك؟ فقال: كنسبة قطرة مـن المطر الى البحر المحيط[٢٩].

وأخرج الحاكم بـاسناده عن رسول الله (صلّى الله عليه وآلـه وسلّـم) قال: «علي مع القرآن والقرآن مـع علي، لن يفترقـا حتّى يردا علـيَّ الحوض» وقال: «أنا مـدينة

العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأتها من بابها[٣٠].

والآن فلنستمع الى ما يصف (عليه السّلام) نفسه وموضعه من رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم)قال: «سلوني عن كتاب الله، فانه ليست آية إلا وقد عرفت بليل نزلت ام بنهار، في سهل او جبل». «والله ما نزلت آية الا وقد علمت فيمَ أنزلت وأين نزلت. وانّ ربّي وهب لي قلباً عقولاً ولسانا سؤولاً».

قيل له: ما بالك اكثر أصحاب النبي(صلّى الله عليه وآله وسلّم) حديثاً؟فقال: «لأني كنت إذا سألته أنبأني، واذا سكتتُ ابتدأني»[٣١].

قال (عليه السّلام): «كنت أوّل داخل على النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وآخر خارج من عنده، وكنت اذا سألتُ أُعطيت، واذا سكتُّ أُبتديت. وكنت ادخل على رسول الله في كل يوم دخله، وفي كل ليلة دخلة وربما كان ذلك في بيتي، يأتي رسول الله اكثر من ذلك في منزلي. فاذا دخلت عليه في بعض منازله خلا بي وأقام نساءه فلم يبق عنده غيري. واذا أتاني لم يُقم فاطمة ولا أحداً من ولدي!

واذا سألته أجابني، واذا سكتُّ عنه وفقدت مسائلي ابتدأني. فما نزلت على رسول الله آية من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها عليَّ وكتبتها بخطي، فدعا اللّه ان يفهمني ويعطيني، فما نزلت آية من كتاب اللّه إلا حفظتها وعلّمني تأويلها...»[٣٢].

وفي الكافي: «فما نزلت على رسول الله آية من القرآن الا أقرأنيها وأملاها عليَّ، فكتبتها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصّها وعامّها. ودعا الله ان يعطيني فهمها وحفظها. فما نسيت آيةً من كتاب الله ولا علماً أملاه عليَّ وكتبته، منذ دعا الله بما دعا. وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهي، كان اويكون، ولا كتاب منزل على أحد قبله من طاعة او معصيه، إلاّ علّمنيه وحفظته، فلم أنس حرفاً واحداً. ثم وضع يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكما ونوراً. فقلت: يا نبيّ اللّه! بأبي أنت وامّي، منذ دعوت الله لي بما دعوت، لم أنس شيئاً ولم يَفُتني شيء لم أكتبه، أفتتخوّف عليَّ النسيان فيما بعدُ؟ فقال: لا، لستُ أتخوّف عليك النسيان والجهل!»[٣٣].

وقد قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لعلي (عليه السّلام): «إنَّ اللّه أمرني أن أُدنيك ولا أُقصيك، وأن أعلّمك ولا أجفوك. فحقيق عليَّ أن أعلّمك، وحقيق عليك أن تعي. . .»[٣٤].

وفي الخطبة القاصعة- من نهج البلاغه-: «وقد علمتم موضعي من رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالقرابة القريبه، والمنزلة الخصيصة. وضعني في حجره وأنا ولدٌ، يضمّني الى صدره، ويكنفني الى فراشه، ويُمسّني جسده، ويُشمّني عَرفه[٣٥]. وكان يَمضُغ الشيء ثُمّ يُلقمنيه. وما وجد لي كذبةً في قول، ولا خَطلةً في فعل[٣٦].

ولقد قرن اللّه به(صلّى الله عليه وآله وسلّم) من لدن أن كان فطيماً، اعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره.

ولقد كنتُ أتّبعهُ إتباع الفصيل اثر أمّه. يرفع لي في كل يوم من أخلاقه عَلَماً، ويأمرني بالإقتداء به.

ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وخديجة وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبّوة.

ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فقلت: يا رسول اللـه، ما هذه الرّنة؟ فقال: هذا الشيطان أيس من عبادته. أنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلاّ أنك لست بنبيّ. ولكنّك وزير. وانك لعلى خير. . .[٣٧].

واما عبدالله بن مسعود، فهو من السابقين في الإيمان، وأوّل من جهر بالقرآن بمكّة وأسمعه قريشاً بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وأوذي في اللـه من اجل ذلك. . . وكان قد أخذه رسول الله اليه، فكان يخدمه في اكثر شؤونه، وهو صاحب طهوره وسواكه ونعله، يُلبسه إياه اذا قام، ويخلعه ويحمله في ذراعه اذا جلس، ويمشي إمامه اذا سار، ويستره اذا اغتسل، يوقظه اذا نام، ويلج داره بلا حجاب، حتى لقد ظُنَّ انه من اهل بيت رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم).

هاجر الهجرتين، وصلّى الى القبلتين، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله. . .

كان من احفظ الناس لكتاب اللّه، وكان رسول الله يحبّ ان يسمع القرآن منه. وكان (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يقول:

«من سرّه ان يقرأ القرآن غضّاً طرياً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن ام عبد».

وكان حريصاً على طلب العلم ولا سيما معاني آيات القرآن الكريم، قال: كان الرجل منّا اذا تعلّم عشر آيات، لم يجاوزهنّ حتى يعرف معانيهنّ والعمل بهنّ... ومن ثم كان يقول: والذي لا اله غيره، ما نزلت آية من كتاب اللّه الاّ وانا أعلم فيمَ نزلت واين نزلت... كما كان شديد الحرص ايضاً على بث العلم ونشره بين العباد، قال مسروق بن الاجدع: كان عبد اللّه يقرأ علينا السورة ثم يحدّثنا فيها ويفسّرها، عامّة النهار... وقد اذعن له عامة صحابة الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالفضيلة والعلم بالكتاب والسنة[٣٨]. ومن ثم كانت له مكانة سامية في التفسير، وبذلك طار صيته، وعنه في التفسير الشيء الكثير، والطرق اليه متقنة...

قال الخليلي في الإرشاد: ولإسماعيل السدّي تفسير يورده بأسانيد الى ابن مسعود وابن عباس. وروي عن السدّي الأئمة، مثل الثوري وشعبه... واضاف: ان امثل التفاسير تفسير السدّي.

قال جلال الدين السيوطي- تعقيبا على كلام صاحب الارشاد-:

«وتفسير السدّي الذي أشار اليه، يورد منه ابن جرير «الطبري» كثيراً من طريق السدّي عن ابي مالك، وعن ابي صالح عن ابن عباس... وعن مُرّة عن ابن مسعود... وناس من الصحابة هكذا... قال: والحاكم يخرج منه في مستدركه أشياء ويصحّحه، لكن من طريق مُرّة عن ابن مسعود، وناس فقط... دون الطريق الاول[٣٩] اي طريق ابي صالح عن ابن عباس».

وكان بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قد أخذ العلم من علي (عليه السّلام) وليس عن غيره بتاتاً. وقد تقدم حديث علقمة، قال: قال ابن مسعود ذات يوم، وكنّا في حلقته، لو علمتُ أن احداً هو أعلم مني بكتاب الله عزوجل لضربت اليه آباط الابل. قال علقمة: فقال رجل من الحلقة: ألقيت علياً؟ فقال: نعم، قد لقيته، واخذت عنه، واستفدت منه، وقرأت عليه. وكان خير الناس وأعلمهم بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ولقد رأيته كان بحراً يسيل سيلاً[٤٠].

وعدّه الخوارزمي وشمس الدين

الجزري في اسنى المطالب من رواة حديث الغدير من الصحابة(٤١).

واخرج جلال الدين السيوطي عند نزول آية التبليغ (سورة المائده:٦٧) بشأن علي (عليه السّلام) يوم الغدير. قال: واخرج ابن مردوية عن ابن مسعود، قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): ﴿يـٰأَيُّهَا الرَّسولُ بَلِّغ ما أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ﴾ -أنّ علياً مولى المؤمنين- ﴿وَإِن لَم تَفعَلْ فَما بَلَّغتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعصِمُكَ مِنَ النّاسِ﴾(٤٢).

نعم، كان ابن مسعود ممن شدّ وثاقه بولاء آل بيت الرسول، لم يشذّ عن طريقتهم المثلى منذ اول يومه فإلى آخر أيام حياته...

روى الصدوق ابوجعفر ابن بابويه باسناده الى زيد بن وهب الجهني ابي سليمان الكوفي(٤٣) أنّ إثنى عشر رجلاً من صحابة رسول الله (صلّى الله عليه واله وسلّم) أنكروا على ابي بكر تقدّمه على عليّ (عليه السّلام) وعدّ منهم: عبدالله بن مسعود(٤٤).

وكان هو الذي أشاد بذكر اهل البيت وبثّ حديث «الخلفاء اثنا عشر...» في الكوفة وما والاها (٤٥).

قال المرتضى علم الهدى -بشأنه-: لا خلاف بين الأمّة في طهارة ابن مسعود وفضله وايمانه، ومدح النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) له وثنائه عليه، وانه مات على الحالة المحمودة(٤٦).

وسيأتي من تقى الدين ابى الصلاح الحلبي، عدّه وأبَيّاً من المخصوصين بولاية آل البيت(٤٧).

وروى رضى ابوالقاسم علي بن موسى بن طاووس(٦٦٤) عن كتاب ابي عبدالله محمد بن علي السرّاج- في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتنَةً لا تُصيبَنَّ الَّذينَ ظَلَمُوا مِنكُم خاصَّةً...﴾ (الانفال:٢٥)، بالاسناد الى عبد الله بن مسعود، انه قال:

قال النبي(صلّى الله عليه وآله وسلّم): «يابن مسعود! انه قد أنزلت عليَّ آية «واتّقوا فتنة.. الخ» وأنا مستودعكها، فكن لما أقول لك واعياً وعنّي له مؤدياً... من ظلم عليّاً مجلسي هذا كمن جحد نبوّتي ونبوّة من كان قبلي. فقال له الراوي: يا ابا عبدالرحمن! أسمعت هذا من رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم)؟ قال: نعم. قال فكيف ولّيتَ للظالمين؟ قال: لا جرم حلّت عقوبة عملي(٤٨)، وذلك أني لم استأذن

«من سرّه ان يقرأ القرآن غضّاً طريّاً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن ام عبد».

وكان حريصاً على طلب العلم ولا سيما معاني آيات القرآن الكريم، قال: كان الرجل منّا اذا تعلّم عشر آيات، لم يجاوزهنّ حتى يعرف معانيهنّ والعمل بهنّ... ومن ثم كان يقول: والذي لا اله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله الاّ وانا أعلم فيمَ نزلت واين نزلت... كما كان شديد الحرص ايضاً على بث العلم ونشره بين العباد، قال مسروق بن الاجدع: كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدّثنا فيها ويفسّرها، عامّة النهار... وقد اذعن له عامة صحابة الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالفضيلة والعلم بالكتاب والسنة[٣٨]. ومن ثم كانت له مكانة سامية في التفسير، وبذلك طار صيته، وعنه في التفسير الشيء الكثير، والطرق اليه متقنة...

قال الخليلي في الإرشاد: ولإسماعيل السدّي تفسير يورده بأسانيد الى ابن مسعود وابن عباس. وروي عن السدّي الأئمة، مثل الثوري وشعبه... واضاف: ان امثل التفاسير تفسير السدّي.

قال جلال الدين السيوطي – تعقيبا على كلام صاحب الارشاد–:

«وتفسير السدّي الذي أشار اليه، يورد منه ابن جرير «الطبري» كثيراً من طريق السدّي عن ابي مالك، وعن ابي صالح عن ابن عباس... وعن مُرّة عن ابن مسعود... وناس من الصحابة هكذا... قال: والحاكم يخرج منه في مستدركه أشياء ويصحّحه، لكن من طريق مُرّة عن ابن مسعود، وناس فقط... دون الطريق الاول[٣٩] اي طريق ابي صالح عن ابن عباس».

وكان بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قد أخذ العلم من علي (عليه السّلام) وليس عن غيره بتاتاً. وقد تقدم حديث علقمة، قال: قال ابن مسعود ذات يوم، وكنّا في حلقته، لو علمتُ أن احداً هو أعلم مني بكتاب الله عزوجل لضربت اليه آباط الابل. قال علقمة: فقال رجل من الحلقة: ألقيت علياً؟ فقال: نعم، قد لقيته، واخذت عنه، واستفدت منه، وقرأت عليه. وكان خير الناس وأعلمهم بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ولقد رأيته كان بحراً يسيل سيلاً[٤٠].

وعدّه الخوارزمي وشمس الدين

الجزري في اسنى المطالب من رواة حديث الغدير من الصحابة[41].

واخرج جلال الدين السيوطي عند نزول آية التبليغ (سورة المائده:٦٧) بشأن علي (عليه السّلام) يوم الغدير. قال: واخرج ابن مردوية عن ابن مسعود، قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): ﴿يـٰأَيُّهَا الرَّسولُ بَلِّغ ما أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ﴾ -أنّ علياً مولى المؤمنين- ﴿وَإِن لَم تَفعَلْ فَما بَلَّغتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعصِمُكَ مِنَ النّاسِ﴾[42].

نعم، كان ابن مسعود ممن شدّ وثاقه بولاء آل بيت الرسول، لم يشذّ عن طريقتهم المثلى منذ اول يومه فإلى آخر أيام حياته...

روى الصدوق ابوجعفر ابن بابويه باسناده الى زيد بن وهب الجهني ابي سليمان الكوفي[43] أنّ إثنى عشر رجلاً من صحابة رسول الله (صلّى الله عليه واله وسلّم) أنكروا على ابي بكر تقدّمه على عليّ (عليه السّلام) وعدّ منهم: عبدالله بن مسعود[44].

وكان هو الذي أشاد بذكر اهل البيت وبثّ حديث «الخلفاء اثنا عشر...» في الكوفة وما والاها[45].

قال المرتضى علم الهدى -بشأنه-: لا خلاف بين الأمّة في طهارة ابن مسعود وفضله وايمانه، ومدح النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) له وثنائه عليه، وانه مات على الحالة المحمودة[46].

وسيأتي من تقى الدين ابى الصلاح الحلبي، عدّه وأبَيّاً من المخصوصين بولاية آل البيت[47].

وروى رضى ابوالقاسم علي بن موسى بن طاووس(٦٦٤) عن كتاب ابي عبدالله محمد بن علي السرّاج- في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتنَةً لا تُصيبَنَّ الَّذينَ ظَلَمُوا مِنكُم خاصَّةً...﴾(الانفال:٢٥)، بالاسناد الى عبد الله بن مسعود، انه قال:

قال النبي(صلّى الله عليه وآله وسلّم):«يابن مسعود! انه قد أنزلت عليَّ آية «واتّقوا فتنة...الخ» وأنا مستودعكها، فكن لما أقول لك واعياً وعنّي له مؤدياً... من ظلم عليّاً مجلسي هذا كمن جحد نبوّتي ونبوّة من كان قبلي. فقال له الراوي: يا ابا عبدالرحمن! أسمعت هذا من رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم)؟ قال: نعم. قال فكيف ولّيتَ للظالمين؟ قال: لا جرم حلّت عقوبة عملي[48]، وذلك أني لم استأذن

إمامي كما استأذن جُندب وعَمّار وسلمان، وانا استغفر اللّه واتوب اليه. . .»(٤٩).

ومما يجدر التنبّه له ان عامّة الكوفيين من مفسّرين وفقهاء ومحدثين، كان طابعهم الولاء لاهل البيت (عليهم السّلام) وقد خصّ اصحاب ابن مسعود بالميل مع علي (عليه السّلام). الامر الذي كانت البيئة الكوفية تستدعيه بالذات، على أثر وفرة العلماء من صحابة الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) هناك. ولا غرو فانهم اعرف بموضع اهل البيت ولا سيما سيدهم وكبيرهم علي بن ابي طالب، من رسول الله، وكثرة وصاياه بشأنهم، والتمسّك باذيالهم والسير على هديهم، فلا يضلوا أبداً.

ومن ثم فقد امتازت الكوفة، في امور جعلتها في قمة العظمة والاكبار، على مدى الدهور: اولاً: كانت مهجر علماء الصحابة الأخيار واعلام الامة الكبار، وبلغ أوجها عند مهاجرة الإمام اميرالمؤمنين (عليه السّلام).

اخرج ابن سعد عن ابراهيم، قال: هبط الكوفة ثلاثمائة من اصحاب الشجرة، وسبعون من اهل بدر. وبذلك قال ابن عمرو: ما من يوم إلا ينزل في فراتكم هذا مثاقيل من بركة الجنة. كناية عن مهاجرة اصحاب الرسول اليها فوجاً فوجاً(٥٠).

وثانياً: اصبحت معهد العلم في الاسلام في دور نضارته وازدهار معارفه، فمن الكوفة صدرت العلوم والمعارف الاسلامية، بشتّى انحائها الى البلاد، وسارت به الركبان الى الامصار في عهد طويل. اخرج ابن سعد- ايضاً عن عبيد الله بن موسى، قال: أخبرنا عبدالجبار بن عباس عن أبيه، قال: جالستُ عطاء، فجعلت أسأله. فقال لي: ممّن أنت؟ فقلت: من أهل الكوفة. فقال عطاء: «ما يأتينا العلم الا من عندكم» (٥١).

وثالثاً: كانت أرضاً خصبة لتربية الولاء لآل الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) في نفوس مؤمنة صادقة في ايمانها، مؤدية اجر رسالة نبيّها، حافظة لكرامة رسول الله في ذريّته الأنجاب، عارفة بأنهم سفن النجاة، واحد الثقلين، والعروة الوثقى التي لا انفصام لها. ومن ثم روى ابن سعد: «ان اسعد الناس بالهديّ اهل الكوفة»(٥٢).

اما اصحاب ابن مسعود (الصحابي الجليل الموالي لآل بيت الرسول) فكانوا اصدق عند الناس على عليّ ابن أبي طالب (عليه السّلام) على ما اخرجه ابن سعد باسناده عن ابي بكر بن عياش عن مغيرة. . .(٥٣)، كانوا لا يُغالون ولا ينتقصون.

ومن ثمّ روى عن عليّ(عليه السّلام) ما يدل على رضائه عن موفقهم هذا المشرّف. قال: «اصحاب عبداللّه سُرُج هذه القرية»(٥٤).

ملحوظة

إنما نعرفُ صلاح الرجل واستقامته في الدين، بتقواه عن محارم اللّه واستسلامه لأوامره ونواهيه، في اطاعة الرسول واتّباع سنّته والعمل بوصاياه، من غير ان يكون له الخيرة من امره بعد ما قضى اللّه ورسوله. اذ يقضي الايمان الصادق ان يسلّم امره الى الله ورسوله تسليماً.

ومن اهمّ وصاياه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والذي جعل اجر رسالته، هو الانضواء تحت لواء اهل البيت والاستمساك بعرى وثائقهم مدى الحياة. . . وقد كان(عليه السّلام) شاخص هذا البيت الرفيع. . . فمن كان معه كان مع الحق، ومن دار معه دار مع الحق. . . ومن حاد عنه حاد عن الاسلام ونبذ وصية الرسول وراء ظهره واعرض عن الحقّ الصريح. . . فكيف الثقة به وهو حائد عن الجادّة، ضالّ عن الطريق، فلا يصلح ان يكون هادياً وهو لم يهتد السبيل. . .

الامر الذي يحفزنا أن نجعل من الامام اميرالمؤمنين(عليه السّلام) محوراً اساسياً في هذا الحقل، وميزاناً يفصل بين الصالح والطالح من الصحابة والتابعين، الفقهاء والمفسّرين والمحدّثين. . . وليس ذلك منا بدعاً. . . بعد ما جعله الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بابه الذي منه يؤتى، وسفينة النجاة، وثاني الثقلين اللذين ما ان تمسّكوا بهما معاً- ولن يفترقا حتى يردا عليه الحوض- لن يضلوا ابداً. . .

ولسنا نأخذ العلم الا ممن عرفنا صلاحه ووثقنا بايمانه الصادق. تلك وصية امامنا ابي جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السّلام)، قال في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾(عبس:٢٤): «الى العلم الذي يأخذه عمّن يأخذه»(٥٥).

وهكذا أبيّ بن كعب الأنصاري الخزرجي، هو اول من كتب لرسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) عند مقدمه المدينة. . .

وكان قد لقّب بسيّد المسلمين، لشرفه وفضله وعلو منزلته في العلم والفضيلة. . . كما لقّب بسيّد القرّاء، لقوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «وأقرؤهم أُبيّ بن كعب». وكان هو الذي تولّى رئاسة لجنة توحيد المصاحف على عهد عثمان عند ما عجز القوم الذين انتدبهم الخليفة لذلك ولم يكونوا اكفاء، حسبما اسلفنا.

وعنه في التفسير الشيء الكثير. . . والطرق اليه متقنة ايضاً. . .

قال جلال الدين: واما أبيّ بن كعب، فعنه نسخة كبيرة يرويها ابو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن ابي العالية عنه. وهذا إسناد صحيح. وقد أخرج ابن جرير وابن ابي حاتم منها كثيراً. وكذا الحاكم في المستدرك، واحمد في مسنده. . .[٥٦].

وذكر ابوالصلاح تقي الدين الحلبي(٣٧٤-٤٤٧) أبيّاً وابن مسعود من الثابتين على ولاء آل بيت الرسول، المتخصصين بهم في العهد الاول بعد وفاة الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم)[٥٧] واضاف: ان أبيّاً حاول الإجهار بما يكنه ضميره في أُخريات حياته لولا حؤول الموت[٥٨]. وقد كان من النفر الاثنى عشر الذين نقموا على ابي بكر تصديه ولاية الامر دون الامام اميرالمؤمنين[٥٩] وكابد الامرّين على ذاك الحادث الجلل، رافعاً شكواه الى الله، قال: «والى الله المشتكى»[٦٠] وقد سمع من سعد بن عبادة ما نطق بما يوجب فرض ولاية الامام (عليه السّلام) [٦١].

الهوامش

(١) كان من التابعين، فقيه عابد. قال الشعبي: ما رأيت أطلب منه العلم. كان معلما ومقرياً ومُفتياً. صحب علياً (عليه السّلام) ولم يتخلف عن حروبه. توفى سنة ٦٢ وله من العمر ٦٣ سنة.

(٢) التفسير والمفسرون١: ٣٦.

(٣) راجع: الخطبة الشقشقية من نهج البلاغة رقم٣.

(٤) راجع: تاريخ دمشق لابن عساكر ترجمة الامام علي بن ابي طالب٣: ٥١ رقم١٠٨٦.

(٥) التفسير والمفسرون١: ٣٥

(٦) هو ابن حاتم الموصوف بالجود الذي يضرب به المثل. وفد على النبي(صلّى الله عليه وآله وسلّم) سنة تسع. كان جواداً شريفاً في قومه. وكان ثابت الايمان راسخ العقيدة، روي عنه انه قال: ما دخل عليّ وقت صلاة إلّا وانا مشتاق اليها. وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يكرمه اذا دخل عليه. قال الشعبي: ارسل اليه الاشعث يستعير منه قدورا لحاتم فملأها وحملها الرجال اليه. فقال: انما اردناها

فارغة، فقال: انا لا نعيرها فارغة... كان منحرفاً عن عثمان. ثابتاً مع امير المؤمنين (عليه السّلام) فقئت عينه يوم الجمل وقتل ابنان له في ركاب علي(عليه السّلام) وشهد صفين بنفسه. توفي سنة ٦٧ بالكوفة ايام المختار وله مائة وعشرون سنه (اسد الغبة ٣٩٢:٣).

(٧) فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر ١١٣:٤-١١٤. وتفسير الطبري٢: ١٠٠.

(٨) الدرّ المنثور١: ١٩٨–٢٠٠.

(٩) وسائل الشيعة ١٥٣:٣ رقم٤ باب٢٧ المواقيت.

(١٠) التقان٢٣٨:٤.

(١١) عند البحث عن مسألة التحريف عند حشوية العامة برقم ٢٠. وراجع المستدرك ٢٣٥:٢و٢٤٦.

(١٢) التمعّك: التمرّغ فى التراب.

(١٣) العياشي١ :٢٤٤ رقم١٤٤و١٤٥ وص٣٠٢ رقم٦٣.

(١٤) راجع الدرّ المنثور٦:٣١٧ والمستدرك للحاكم٢:٥١٤.

والأبّ: العُشب المُتهيّيء للرَّعي والجزّ، من قولهم: أبَّ لكذا، إذا تهيّا له. كما ان الفاكهة هي الثمرة الناضجة للأكل والقطف. جاء فى المعجم الوسيط: الأبّ: العُشب رطبه ويابسه. يقال: فلانٌ له الحق وطاع له الأب اذا زكى زرعه واتسع مرعاه.

(١٥) الموافقات٢:٨٧–٨٨. (الذهبي١:٣٤)

(١٦) مجمع البيان٦:٣٦٣.

والرحل: القتب وهو ما يجعل على ظهر البعير كالسرج للفرس. والتامك: السنام، لارتفاعه، يقال. تمك السنام تُموكاً اذا طال وارتفع. والقرد: الذي تجعّد شعره فصار كأنه وقاية للسنام. والنبع: شجر للقسيّ والسهام. والسفن: مايُنحت به كالمبرَد ونحوه.

ومعنى البيت: ان الرحل قد أخذ من جوانب السنام فجعل يأكله وينقص من اطرافه، رغم سموكه وتجعّده بالشعر المتلبّد. كما يأخذ المبرد من اطراف عود النبعة البريه سهماً او قوساً.

(١٧) معاني القران٢:١٠١.

(١٨) ونظيرتها آية أخرى في سورة الرعد: ٤١ «اولم يروا أنا نأتي الارض...».

(١٩) الاتقان٢:٤ (ط٢) و١:١١٣ (ط١).

(٢٠) التفسير والمفسرون١:٣٥.

(٢١) الاتقان٤:٢٠٤.

(٢٢) التفسير والمفسرون١:٦٣-٦٤.

(٢٣) البرهان٢:١٧٥. والبحار٨٩:١٠٥ (بيروت).

(٢٤) وناهيك عن قولة ابن الخطاب: «لاابقاني الله لمعضلة ليس لها ابو حسن» (أنساب الأشراف: ١٠٠، رقم٢٩).

(٢٥) التفسير والمفسرون١:٨٩.

(٢٦) بحار الانوار ج٨٩ (ط بيروت) ص١٠٥-١٠٦ عن كتاب سعد السعود للسيد ابن طاووس٢٨٥-٢٨٦.

(٢٧) راجع في ذلك اسد الغابه لابن الأثير

٢٢:٤-٢٣. والاصابة لابن حجر٢: ٥٠٩.
وحيلة الاولياء لابي نعيم١:٦٥. وانساب الاشراف للبلاذري ١٠٠٠،رقم٢٩.

(٢٨) سعد السعود٢٨٥ والبحار٨٩-١٠٥.

(٢٩) شرح النهج ٢:١٩.

(٣٠) المستدرك٢:١٢٦و١٢٤.

(٣١) أنساب الأشراف للبلاذري ٩٨-٩٩ رقم ٢٦و ٢٨.

(٣٢) الكافي والموازنه للاسكافي ٣٠٠.

(٣٣) الكافي الشريف١:٦٤ كتاب فضل العلم -باب اختلاف الحديث- رقم١.

(٣٤) المعيار والموازنه:٣٠١.

(٣٥) بفتح العين: رائحته الذكيّه.

(٣٦) الخصل: الخطأينشأ من عدم الرويّه.

(٣٧) الخطبه رقم١٩٢ النهج١:٣٩٢-٣٩٤.

(٣٨) حلية الالياء١:١٢٤-١٣٩. واسد الغابة ٣:٢٥٦-٢٦٠. والاستيعاب بهامش الاصابة ٢:٢١٦-٢٢٤ والأصابة ٢: ٣٦٨-٣٧٠.

(٣٩) التقارن٤:٢٠٧-٢٠٨.

(٤٠) سعد السعود: ٢٨٥. البحار ٨٩:١٠٥.

(٤١) راجع الغدير١:٥٢ رقم٧٩.

(٤٢) الدر المنتور٢:٢٩٨. والآلوسي في روح المعاني٦:١٧٢.

(٤٣) وثّقه أصحاب التراجم. قال الأعمش: اذا حدّثك زيد بن وهب عن أحد فكأنك سمعته من الذي حدّثك عنه. اسلم في حياة النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وهاجر اليه. فبلغته وفاته في الطريق. فهو معدود من كبار التابعين، سكن الكوفة وكان في الجيش الذي مع علي (عليه السّلام) في حربه الخوارج. وهو اول من جمع خطب علي(عليه السّلام) في الجُمَع والأعياد وغيرهما. توفى سنة٩٦ وقد عمر طويلاً...

(٤٤) الخصال٢:٤٦١ باب١٢.

(٤٥) راجع بحار الانوار(بيروت) ٣٦:٢٢٩و٢٣٠ و٢٣٣و٢٣٤.

(٤٦) قاموس الرجال للتستري٦:١٢٦ ط١ نقلا عن الشافي.

(٤٧) تقريب المعارف: ١٦٨.

(٤٨) وفي نسخة:جلبتُ.

(٤٩) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف:٣٦ برقم٢٥. وقاموس الرجال٦:١٤١-١٤٢.

(٥٠) الطبقات(ط ليدن) ٦:٤ س١٥ و٢٠.

(٥١) المصدر: ٥ س٢٠.

(٥٢) المصدر: ٤س١٩.

(٥٣) الطبقات ٦:٥ س٤.

(٥٤) المصدر: ٤س٢٤.

(٥٥) وسائل الشيعة ١٨:١٠٩ رقم ٤٤.

(٥٦) الاتقان ٤:٢٠٩-٢١٠.

(٥٧) تقريب المعارف لابى الصلاح:١٦٨. وراجع سفينة البحار ١:٨.

(٥٨) بنقل التستري في قاموس الرجال١:٢٣٧.

(٥٩) الخصال للصدوق ٢:٤٦١.

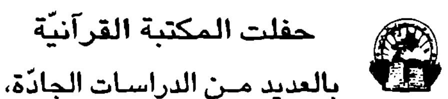
(٦٠) شرح النهج لابن ابي الحديد ٢:٥٢.

(٦١) المصدر ٦:٤٤.

* * *

سعيد بن جبير
حياته ومنهجه فى التفسير
القسم الأوّل

حسن السعيد



حفلت المكتبة القرآنيّة بالعديد من الدراسات الجادّة، سواء تلك التي تتبعت الأصول التاريخية للثقافة الإسلامية، أو التي تناولت القضايا ذات العلاقة بالمعرفة الحديثة.

غير أن ثمة تبايناً واضحاً لا تزال تشكو منه دوائر البحث، حينما تستغرق دراسات كثيرة في محور واحد، وعلى حساب، بقية الأبعاد الأخرى، والتي لم تحظ -بدورها- بالعناية الفائقة التي حظيت بها غيرها. وبدلاً من السعي الحثيث لردم هذه الهوّه -إن صح التعبير- نجد في المقابل تكريساً مدهشاً لهذه الظاهرة. وعلى سبيل المثال لا الحصر. لا تزال الأضواء تسلط، وبشكل مكثف. على بعض الشخصيات العلمية فيما بقيت شخصيات أخرى تنتظر من يطرق الأبواب.

وهذا «جهبذ العلماء» وأعلم التابعين في التفسير «سعيد بن جبير»(رضي الله عنه) أحد اولئك الأفذاذ الّذين لم ينالوا ما يستحقون من الدراسة والبحث.

هنا وقفة سريعة مع هذا التابعي الجليل، الّذي ساهم مساهمة فعالة في اثراء الحياة الفكرية، خاصة على صعيد المعالجات القرآنية، وبالأخص في مجال النشاط التفسيري، ودوره الريادي فيه.

مدارس التفسير

لم يدوّن التفسير في عهد الصحابة، لقرب العهد برسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، ولقلّة الإختلاف، والتمكن من الرجوع إلى الثقاة.

فلما انقضى عصر الصحابة أو كاد،

وصار الأمر إلى تابعيهم، انتشر الإسلام واتسعت الأمصار وتفرقت الصحابة في الأقطار، وحدثت الفتن واختلفت الآراء، وكثرت الفتاوى والرجوع إلى الكبراء، فأخذوا في تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن. فأوّل ما دوّنوه من العلوم التفسير... وقد تميزت في عصر التابعين ثلاث مدارس في التفسير.

١- مدرسة مكة: وأصحابها تلاميذ إبن عباس (رضي الله عنه).

٢- مدرسة العراق: وأصحابها تلاميذ إبن مسعود (رضي الله عنه).

٣- مدرسة المدينة: ورجالها تلاميذ أبي بن كعب، وأصحاب زيد بن أسلم.[١]

بهذا الصدد يقول «إبن تيمية»: «وأمّا التفسير فان أعلم الناس به أهل مكة، لأنّهم أصحاب إبن عباس، كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمه مولى إبن عباس، وغيرهم من أصحاب إبن عباس كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير وأمثالهم». وكذلك أهل الكوفة من أصحاب «عبدالله بن مسعود» - ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل «زيد بن أسلم»، الّذي أخذ عنه «مالك»، وأخذ عنه أيضاً ابنه «عبدالرحمن» و«عبدالله بن وهب».[٢]

جدير ذكره أن مدرسة التفسير بمكة قامت على عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما)، فكان يجلس لأصحابه التابعين، ويفسر لهم كتاب الله تعالى، ويوضّح لهم ما أشكل من معانيه، وكان تلاميذه يعون عنه ما يقول، ويرون لمن بعدهم ما سمعوه منه.

وقد اشتهر من تلاميذ إبن عباس بمكة، سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمه مولى إبن عباس، وطاوس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح.[٣] ولقد جمع سعيد علم الصحابه من التابعين، وألّم بما عندهم من النواحي التي برزوا فيها، فقد قال خصيف: «كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيّب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاوس، وبالتفسير ابوالحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير».[٤]

من هنا تتضح المكانة العلمية المرموقة لسعيد بن جبير، ويتجلّى دوره الفذ والمبكّر في إرساء اسس المناحي المعرفية، وتوطيد أُطرها المنهجية التي وضع لبناتها استاذه عبدالله بن

عباس(رضي الله عنه).

عصره

سنركز الحديث في هذه النقطة حول الحياة السياسية والفكرية فقط، لطبيعة إرتباطهما بالبحث، رغم أهمية الجوانب الأخرى:

أ- الحياة السياسية

عاش «سعيد بن جبير» كل سني حياته في ظل الحكم الأموي. وكانت المرحلة التي شهدها قد تميزت بقدر غير يسير من الخطورة، والإنحراف -على صعيد الحكم- ممّا ساعدت في خلق مناخ غير صحي، لا يزال يستوطن العديد من الأجواء، رغم تباعد الزمن.

فمنذ اللحظات الأولى لعصر صدر الرساله لعب الأمويون دوراً قيادياً في مناهضة الإسلام ورسوله، حتى دانوا بالدين الجديد مخافة القتل عند ما فتحت مكة بجيش الإسلام (سنة ٨ هـ).

وبعد وفاة الرسول كان الأمويون دعاة لجعل السلطة في قريش لا في الأنصار، وعند ما ولي الخلافة عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، اتخذ الأمويون هذا الظرف سبيلاً لفرض سيطرتهم على مقاليد دولة الخلافة، ممّا أدّى إلى ثورة قتلت عثمان، ونصبت علي بن أبي طالب، فناهضوها ورفضوا الإعتراف بشرعية تغييراتها السياسية، ومضوا في طريقهم حتى اجتمع لهم الأمر بقيادة معاوية بن أبي سفيان (سنة ٤٠هـ - ٦٦١م) عندما خلص لهم الحكم فتأسست دولتهم، واتخذوا دمشق عاصمة لها.[٥] وهكذا شهد المسلمون ارهاصات نظام جديد عرف في الأصول الإسلامية والتجربة الإسلامية بنظام الملك، وهو نظام بدأ معاوية أوّل تطوراته، وخلاله استطاع أن يمكّن لنفسه ولسلطانه تمكيناً قوياً، وقد اقتضاه ذلك أن يمد طرفه نحو حضارات الآخرين يستلهم منها ما يوافق ادارة ملكه، وقد قطع في هذا الصدد شوطاً كبيراً.[٦] وكان يحس -كما يحس كثير من المغتصبين- أنّه بحاجة إلى أن يحيط عرشه بالأبهة والمظاهر الفخمة، وتشبّه في هذا بأباطرة الدولة البيزنطية، الّذين تشبهوا هم أنفسهم بملك ملوك الفرس.[٧]

ولم يمض على التحاق الرسول محمّد بن عبدالله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالرفيق الأعلى سوى ثلاثين عاماً حتى

أصبحت الخلافة، في بداية العهد الأموي، نظام توريث أوّل مرّة في تاريخ الإسلام.[٨]

على أن التأثيرات السلبية لم تبق على مستوى النظام السياسي ، بل شملت البعدين المكملين له وهما الفكر السياسي والممارسة السياسية، إذ انقسم المجتمع الإسلامي إلى فرق متعددة، على مستوى الفكر السياسي، بينما شهدت الممارسة السياسية -وخاصة بين الحاكم والمحكوم- انتكاسة مروعة.

وتأسيساً على ذلك، ليس بمقدور أي منصف أن يتغاضى عن الفتنة الأموية، التي ما كانت لتمردون أن تترك بصماتها على مناحي الحياة الإسلامية السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية والأدبية وغيرها.[٩]

وأيّة متابعة تاريخية لعصر سعيد بن جبير، تثبت هذه الحقيقة، وقد كانت ثورة الإمام الحسين(عليه السّلام) ايذاناً بتحطيم الإطار الديني المزيف الذي كان الأمويون وأعوانهم يحيطون به سلطانهم، وفضح الروح اللادينية الجاهلية التي كانت أطروحة الحكم انذاك. ولقد هزت الثورة الضمير المسلم هزاً متداركاً، وأيقظته من سباته الطويل، ليكسب الحياة الإسلامية سمة كانت قد فقدتها قبل ثورة الحسين(عليه السّلام)، ثم أخذ المجتمع الإسلامي يشهد من حين لأخر ثورات عارمة يقوم بها الرجال العاديون على الحكام الظالمين، وكانت روح كربلاء تلهب أكثر القائمين بها، وتدفعهم إلى الإستماته في سبيل ما يرونه حقا.[١٠]

ويكفي أن يكون عصر «سعيد بن جبير» قد شهد خمس ثورات، ما عدا ثورة كربلاء (٦١هـ)، وهذه الثورات هي: ثورة المدينة (٦٣هـ)، ثورة التوابين (٦٥هـ)، ثورة المختار الثقفي (٦٦هـ)، ثورة مطرف بن المغيرة (٧٧هـ)، وثورة إبن الأشعث (٨١هـ)، والتي ساهم فيها سعيد بن جبير مساهمة فعالة، حتى لحظة إخمادها عام ٨٣هـ لتندلع، بعد استشهاده بسبع وعشرين سنة، ثورة زيد بن علي (رضي الله عنه).

في غضون ذلك، تبلورت المعالم الرئيسية للإتجاهات السياسية سواء أكانت الحاكمة أو المعارضة من قبيل

الشيعة والخوارج. في حين كانت الساحة الفكرية تشهد مخاضات العديد من التيارات الفكرية التي تركت بصماتها على حركة الفكر الإسلامي بكل تفصيلاته وتشعباته واتّجاهاته.

ب- الحياة الفكرية والثقافية

كانت أهم مواطن الفكر والثقافة في القرن الهجري الأوّل، هي مكة والمدينة والبصرة والكوفة والفسطاط. وقد تعددت العناصر والثقافات والأفكار والأجناس، وامتزجت في ظل حركة فكرية ازدهرت فيها مجالس العلم والعلماء في التفسير والحديث والفقه والأدب.(١١) ومما لا شك فيه أن حالة المسلمين، في العصر الأموي قد تغيرت عن عصر الرسول والخلفاء من بعده، فلقد كثر فيه العلماء وانتشروا في البلاد الإسلامية شرقها وغربها، وتفرغوا لدراسة الدين عن طريق الحديث والقرآن ليتعرفوا على أحكام الحوادث التي استجدت بسبب اتساع رقعة الإسلام والإتصال بالأمم التي خضعت للدولة الفاتحة، تلك التي كانت تتميز بخصائصها وأديانها وعاداتها مما اضطر المسلمين والعلماء إلى التوسّع في البحث ودراسة القرآن والحديث واللغة ليستعينوا بذلك على معرفة أحكام المستجدات التي اقتضتها طبيعة الزمن، لا سيما ان الكثير منها لا يشبه ما كان في عصر الرسول، ومن تلك الدراسة الواسعة للقرآن والحديث انتقل العلماء إلى مرحلة جديدة لم تكن شائعة في العصرين اللذين سبقا هذا العصر. . .

وممّا لا شك فيه ان تعمقهم في دراسة القرآن والحديث كان له أكبر الأثر في النزاع العقائدي الذي بدأ في العصر الأموي، واتسع حتى بلغ ذروته في العصر العباسي. ويبدو ذلك حينما نلاحظ أنّ الخوارج والمرجئة والمعتزلة والأشاعرة وأتباعهم على ما بينهم من تباعد في الرأي بلغ حد الإسراف في بعض المسائل، كانوا يحتجون لآرائهم ومعتقداتهم بالقرآن والحديث، وما ذاك إلّا لأنّهم وجدوا فيهما ما يصلح أن يكون سنداً لأكثر تلك المباحث التي اختلفت فيها آراء تلك الفرق.(١٢)

ويدور جوهر الخلاف حول محور خطير وحساس، ونعني به الامامة، علماً بأن أوّل ماحدث من الاختلاف بين المسلمين -بعد نبيهم(صلّى الله عليه وآله

وسلّم)- اختلافهم في الإمامة[١٣] وهكذا وجدنا العصر الأموي يعجّ بالتيارات الفكرية المختلفة... ولقد كان بعض هذه التيارات مخالفاً لبعضها الأخر أو مناقضاً له.[١٤]

من جهة أُخرى، أدّى اختلاط المسلمين بغيرهم من أصحاب الديانات الذين لم يدخلوا في الدين الإسلامي إلى الكثير من الإحتكاكات العقائدية. وقد نتج من الإختلاط اثارة الشكوك حول العقائد الإسلامية وانتشار الالحاد في البلاد الإسلامية[١٥] ووسط هذه الأجواء المزدحمة بالآراء والأفكار نشأت تيارات لا عهد للمسلمين بها كالزندقة والتصوّف وغيرها.

ورغم تمتع أكثر تلك التيارات بحرية الحركة والتعبير عن منطلقاتها، بدعم وحث يصل الى حد التبني من قبل السلطة الأموية لبعضها... إلاّ أن الثابت في الموقف الأموي الذي لم يطرأ عليه أي تغيير -ما عدا فترة قصيرة من الزمن- هو الارهاب الفكري ضد أتباع آل محمّد(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، ولم يترك خصومهم وسيلة في القضاء عليهم إلاّ استعملوها، حتى اتهموهم بالزندقة، والخروج عن الدين، وصدرت الفتاوى بحقهم في الابادة... وحكم السيف في الرقاب، حتى كان أحب إلى الرجل أن يقال له زنديق وكافر من أن يقال له شيعي.[١٦]

في مثل هذه الظروف العصيبة واصل علماء الإسلام دورهم التاريخي، وكان في مقدمتهم بالطبع علماء مدرسة أهل البيت(عليهم السّلام)...، رغم ما كان يلحق بهم من أذى وعنت واضطهاد. بلغ أوجه مع السعيدين «سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير» وقصة الأوّل معروفة حينما ضربه عامل الأمويين وطاف به في المدينة سنة (٨٥هـ). جرّاء رفضة بيعة الوليد وسليمان ابني عبدالملك.

أمّا الثاني فقد تخضبت هامته بالدم، على يد الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفي.

حياته

اسمه ونسبه

هو أبومحمّد، أو أبوعبدالله، سعيد بن جبير بن هشام الأسدي: تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق. وهو حبشي الأصل، من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد.[١٧]

يقول عنه ابن شهرآشوب في المناقب: أبومحمّد سعيد بن جبير مولى بني أسد نزيل مكّة وكان يسمى جهبذ العلماء[١٨] أصله الكوفه، من أصحاب السجاد(عليه السّلام).[١٩]

لم يحدد المؤرخون تاريخ ولادته، ولعلّها في ٤٥هـ. تلقى إبن جبير طرفاً من تعليمه على ابن عباس وعبداللّه بن عمر. بعد أن أحسن القراءة والكتابة بدأ بالتردد على حلقة ابن عباس ليكتب عنه علوم الدين، وظل ملازماً له وكانت ذاكرته الحافظة تناسب غزارة علم إبن عباس، وهذا مالفت انتباهه إليه[٢٠] فسأله يوماً: «ممّن أنت؟ فقال سعيد: من بني أسد. فقال له: من عربهم أو من مواليهم؟ فقال: لا بل من مواليهم. فقال له إبن عباس: فقل أنا ممّن أنعم اللّه عليه من بني أسد».[٢١]

أما عن طفولته فلم يذكر المؤرخون عنها شيئاً يستحق الذكر، وكل ما ذكروه عن مرحلة صباه هو إشارات قليلة لا تكفي لتشكيل انطباع كامل، أو حتى ملامح سريعة عن شخصيته في تلك الفترة المبكرة من عمره.

ومن ذلك ما ذكره إبن سعد في طبقاته. قال: أخبرنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا همّام بن يحيى عن محمّد بن جحادة عن أبي معشر عن سعيد بن جبير قال: رآني أبومسعود البدري في يوم عيد ولي ذؤابة. فقال: يا غلام! (أو يا غليم)، إنه لا صلاة في مثل هذا اليوم قبل صلاة الإمام فصلّ بعدها ركعتين وأطل القراءة.[٢٢]

غير أن سعيداً دخل إلى دائرة الضوء حينما تتلمذ على استاذه عبداللّه بن عباس. إذ ظل ينهل من علم حبر الأمة ما استطاع الى ذلك سبيلاً. ولما سكن إبن عباس الحجاز في أخريات أيامه كان سعيد، رغم كونه مفسراً ومحدثاً يرجع إليه في الكوفة، لكنه لم ينقطع عن الحج مرتين كل عام، فكان يلتقي هناك بابن عباس، ثم بإبن عمر ليأخذ عنهما.[٢٣]

وهذا يعني أن سعيد بن جبير بقي ملازماً لاستاذه إبن عباس حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى سنة ثمان وستين على الأرجح. وكان عمر سعيد بن جبير يومئذ ثلاثاً وعشرين سنة.

من هنا نستطيع القول بأن سني التلمذه، التي لانعرف مدتها بالضبط، كانت في مرحلة الشباب المبكر، وهي

الأخصب والأنسب في العمر لتلقي العلم ووعيه.

وعلى ما يبدو أن علاقة إبن عباس بتلميذه سعيد بن جبير قد مرّت بثلاثة أدوار:

الأوّل: البدايات

ويعود هذا الدور إلى بدايات انخراط سعيد بن جبير في حلقات دروس عبدالله بن عباس. وقد كانت هذه البدايات عادية وطبيعية شأنها شأن كل البدايات، اللّهم إلّا النوابغ الأفذاذ الذين قلّما يجود الدهر بأمثالهم فانهم يثيرون الانتباه من وقت مبكر.

وبالنسبة للتلميذ سعيد بن جبير كان دؤوباً على الحضور والاستفادة باقصى ما يمكن. جهد الفتى الصغير على أن يلوذ بالصمت واكتفى بالتلقي فقط. وقد سئل سعيد بن جبير ذات مرّة حول إذا ما كان كل حديثه سؤالاً منه لإبن عباس فأجاب: لا، كنت أجلس ولا أتكلم حتى أقوم، فيتحدثون فاحفظ.[٢٤]

في مرحلة لاحقة لم يكتف هذا الفتى الحبشي بالحفظ، وإنّما انتقل الى خطوة متقدمة، فبدأ يكتب مايسمع من حديث... ومن الطريف في الأمر انه استخدم كل الوسائل المتاحة له في هذا الاتجاه. وهذا هو سعيد بن جبير يقول: ربّما أتيتُ إبن عباس فكتبتُ في صحيفتي حتى املأها، وكتبت في نعلي حتى أملأها، وكتبت في كفي، وربّما أتيته فلم أكتب حديثاً حتى أرجع، لايسأله أحد عن شيء.[٢٥]

وبسبب ازدحام درس إبن عباس بطلّاب العلم من جهة، ولأن سعيداً كان يلوذ بالصمت من جهة أخرى... فان إبن عباس لم يتمكن من اكتشاف مكامن عبقرية تلميذه سعيد بن جبير، ومنذ الوهلة الأولى، ولهذا لا نستغرب إذا ما كانت البدايات هي مرحلة ما قبل الاكتشاف.

الثاني: الاكتشاف والتبنّي

ربّما لم يمر وقت طويل حتى اكتشف إبن عباس تلميذه سعيد بن جبير، وكانت البداية حينما بادر إبن عباس في الإستفسار عن تلميذه بقوله: ممن أنت؟.

والذي يبدو أن هذه الحادثة كانت ايذاناً بعهد جديد من العلاقة بين الاستاذ

والتلميذ، أعقبتها مرحلة أُخرى اتسمت بالتبنّي من قبل الاستاذ لتلميذه، وهو ما وثّق عرى العلاقة ودفع بها إلى أمام. ومن بوادر ذلك التبنّي هو دفع الاستاذ تلميذه في التصدي للحديث، وهذا ممّا لاريب فيه دفع قوي نحو الإعتماد على النفس... والتشجيع... والدعم.

عن روح بن عُباده قال: أخبرنا شعبه عن سليمان عن مجاهد قال: قال إبن عباس لسعيد بن جُبير. حدّث، فقال: أُحَدّث وأنت ها هنا؟ فقال: أو ليس من نعمة اللّه عليك أن تتحدث وأنا شاهد فان أصبت فذاك وإن أخطأت علّمتك؟[٢٦]

وواضح ممّا تقدم ان إبن عباس يدفع تلميذه بالاتجاه المطلوب، بمعنى أنّه كان يتبناه في محاولة لاعداده، لكي يتبوأ موقعه في دنيا العلم. ويتحمل المسؤولية كاملة في الحفاظ على الشريعة. وهناك رواية تزعم هذا الإستنتاج، فعن مؤذّن بن وادعة قال: دخلت على عبداللّه بن عباس وهو متكئ على مرفقة من حرير، وسعيد بن جبير عند رجليه وهو يقول له: انظر كيف تحدّث عني فانك قد حفظت عني حديثاً كثيراً.[٢٧]

لهذا كله كان إبن عباس يولي تلميذه سعيد بن جبير اهتمامه ورعايته ومدحه. وقد حدّث قتادة عن أبي حسّان عن سعيد بن جبير أن أمرأة كتبت إلى إبن عباس بعد ما ذهب بصره، قال فدفع الكتاب إلى إبنه فلبّس، قال فدفع الصحيفة اليّ فقرأتها عليه فقال لإبنه: ألا هذرمتها كما هذرمها الغلام المضري؟[٢٨]

وبديهي أن تتوطد هذه العلاقة، وتترسخ يوماً بعد يوم حتى تصل مدياتها الأخيرة. وبذا تكتمل أو اصر الاكتشاف والتبنّي حينما تتمخض عن الدور الأخير المأمول.

ثالثاً: الاعتماد المطلق

وفيه يكون ابن عباس قد منح تلميذه ثقته الكاملة بل المطلقة، وقد جرى العرف أن لا يولي أهل العلم ثقتهم المطلقة إلّا لعدد خاص جداً، ربّما لا يتجاوز في كثير من الأحيان عدد أصابع اليد الواحدة. وهذا فقيه آل محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) الامام الصادق(عليه السّلام) قد أجاز لأربعة فقط من تلامذته أن يتحدثوا نيابة عنه، من بين أربعة آلاف تلميذ كانوا يتلقون العلم في مدرسته الكبرى.

وليس أدل على تلك الثقة المطلقة

التي منحها ابن عباس تلميذه بن جبير من استنكاره على أهل الكوفة حينما جاءوا يسألونه بعد ما عمي وهو في مكة: تسألوني وفيكم ابن أمّ دهماء؟ يعني سعيد بن جبير.(٢٩) وهذا اعتراف صريح بمنزلة سعيد بن جبير، واعتماد ابن عباس المطلق عليه، رغم صغرسنه.

هذا الموقف المنسجم تماماً مع أخلاقية حبّر الأمة يقودنا بالضرورة الى أن نشكك بحادثة ترتطم وهذه الأريحية المعهودة من لدن مدرسة أهل البيت(عليهم السّلام). فقد ذكر ابن خلكان في وفياته، ومن بعده ابن سعد في طبقاته... أن ابن جبير كان يسائل ابن عباس قبل أن يعمى فلم يستطع أن يكتب معه، فلمّا عمى ابن عباس كتب، فبلغه ذلك فغضب!(٣٠)

فعَلىٰ ما يغضب ابن عباس وهو في أواخر العمر؟

وهل يليق به ذلك وهو الذي يدفع سعيد بن جبير إلى أن يحدّث... ويوصيه بالتقيّد فيما يحدّث عنه... وأخيراً ألم يغضب حينما يسأله أهل الكوفه وبين ظهرانيهم ابن أم دهماء...؟!

ان هذه الرواية لا نستبعد كونها إحدى مصاديق الاشكالية المنهجية التي تطرقنا إليها سريعاً في موضوع؛ ابن عباس: مدرسته ومنهجه في التفسير.(٣١)

هو... والسلطة

عُرف عن سعيد بن جبير انه لا يمكث في مكة إلاّ مدة قصيرة أيام الحج ثم يعود إلى الكوفة ليكسب لقمة العيش، ومع أن الكوفة مركز العلم والرواية ومن كان مثل سعيد يستطيع العيش معتمداً على علمه، إلاّ أنه كان يأبى كسب العيش بغير عمل يده، عملاً بقول الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) حين سُئل: أي الكسب أطيب؟ قال(صلّى الله عليه وآله وسلّم): «عمل الرجل بيده والبيع مبرور».

كان كاتباً لعبداللّه بن عتبة بن مسعود حين كان على قضاء الكوفة. وعند ما قدم الحجاج العراق والياً لعبدالملك بن مروان منحه سلطات واسعة في ولايته لأسباب سياسية معروفة لها صلة بادارة الحكم وتثبيت سلطة بني أمية، فلمّا جدد أخذ البيعة من أهل العراق لعبدالملك كان سعيد ممن أخذ البيعة منهم للمرة الثانية.

ولما لم يكن في الكوفة من هو أعلم

من سعيد في زمانه، قلده الحجاج إمامة الصلاة في الكوفة، وكانت العادة أن لايصل هذا المقام إلاّ عربي، ولايمانه وتقواه ولاّه قضاء الكوفة، ولما ضجّ أهل الكوفة من أنصار الأمويين على كون القضاء صار أمره إلى أحد الموالي، استقضى الحجاج مكانه أبا برده بن أبي موسى الأشعري وألزمه سعيداً كاتباً ووزيراً، وأمره ان لايقطع أمراً دون أخذ مشورة ابن جبير، وبقي سعيد على هذه الحال مدّة من الزمن.(٣٢)

ابن جبير... والحجاج

وعلى ذكر الحجاج، فان ثمة معرفة قديمة تربطه بسعيد بن جبير، تمتد الى أيّام التلمذة على يد عبدالله بن عباس. لقد ورد عن سعيد أنه قال: «لقد رأيته يزاحمني عند ابن عباس، يعني الحجاج(٣٣) وإن صحّت الرواية فان اللقاء الأوّل بينهما في حلقة ابن عباس ربما تم أيّام كان الحجاج مغموراً، أمّا اللقاء الثاني فعند ما تولى الحجاج ولاية الحجاز، بعد قضائه على حركة عبدالله بن الزبير وقتله، وأخذه بيعة أهلها لعبدالملك بن مروان، فكان ابن جبير ممن أخذ الحجاج منهم البيعة، ففي محاورته قبل قتله يقول الحجاج لسعيد: «ألم أقدم مكه فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأميرالمؤمنين». وفي هذا ما يظهر لنا الأهمية التي بلغها سعيد حيث نرى الحجاج يؤكد على أخذه البيعة من سعيد.(٣٣)

بيد أن ذلك لم يحل دون إنضمام سعيد إلى حركة المعارضة المناوئة لسلطة بني أمية. ولما وصل جور بني أمية والحجاج إلى حد تجبرهم في الدين وأماتتهم الصلاة واستخذالهم الضعفاء، تكاملت عند سعيد دوافع الثورة على هذا الحكم، ولكنه استبطن ذلك وانتظر الفرصة المواتية.

وحين وجه الحجاج عبدالرحمن بن الأشعث إلى «رتبيل» لقتاله جعل ابن جبير على عطاء الجند، فلمّا أعلن عبد الرحمن ثورته على الحجاج ونادى بخلعه انضم سعيد معه وبايعه، وخرج معه ضمن كتيبة القرّاء التي كان عليها جبلّة بن زحر بن قيس الجعفي. وكانت كتيبتهم مثلاً للبسالة، حتى قتل جبلة، فانفل عقدها، ولما قتل ابن الأشعث تشتت الثوار بعد أن قتل منهم من قتل، وكان ابن

جبير ممّن هربوا متخفين، وظل على هذه الحال حتى تمكن منه الحجاج بعد ١٢ عاماً تقريباً وقتله في واسط.[٣٥]

كان شجاع اللسان، جرىء القلب، يقول الحق السافر دون أن تأخذه في الله لومة لائم، وجرأة القلب لم تزل دافعة إلى التحرّش بالباطل ومهاجمته، ولاسيما بعد أن استندت إلى رصيد ذهبي من التبصر والذكاء[٣٦] وقد كانت له مواقف مشهودة في معركة دير الجماجم، إذ كان في الوقت الذي يقاتل فيه قتال المستميتين كانَ يحث الآخرين على القتال. ومن ذلك ما روي عن الزبرقان الأسدي قال: سألت سعيد بن جبير في الجماجم فقلت له: إني مملوك ومولاي مع الحجاج، أفتخاف عليّ إن قتلت أن يكون عليّ وزر؟ قال: لا، قاتل فان مولاك لوكان هٰهنا قاتل بنفسه وبك.

وعن أبي اليقظان قال: كان سعيد بن جبير يقول يوم دير الجماجم وهم يقاتلون: قاتلوهم على جورهم في الحكم، وخروجهم من الدين، وتجبّرهم على عباد اللّه، واماتتهم الصلاة واستذلالهم المسلمين.[٢٧]

بعد فشل ثورة ابن الأشعث هرب سعيد إلى «اصبهان» لأنه سبق له أن اقام بها ردحاً ثم ارتحل عنها إلى العراق، وسكن قرية سنبلان، وبعد أن علم الحجاج بمكانه كتب إلى عامله هناك يستجلبه، ولكن عامله تحرّج فأرسل إلى سعيد أن يتنحى عنه، فأتى «اذربيجان» وفيها طالت عليه السنون واعتمر، فخرج إلى مكة وأقام بها. وهناك كان هو وأناس أمثاله يستخفون فلا يخبرون أحداً باسمائهم. ولم يطق ابن جبير تلك الحال فبدأ يظهر في مجالس الامام علي بن الحسين(عليه السّلام) ويأتم به، حتى قيل ان الحجاج قتله لهذا السبب.[٣٨]

وفي هذا الصدد قيل ان الحجاج طلب الاذن من الوليد بن عبدالملك في سعيد وجماعته. وهناك رواية تقول إنّ الحجاج لم يكن هو الّذي طلبه وإنّما خالد بن عبداللّه القسري والي الحجاز هو الذي قبض على عطاء ومجاهد وسعيد وطلق بن حبيب وعمربن دينار، إذ يروي مجاهد: فبلغنا ان خالداً قد أُمّر على مكة، فقلت لسعيد إن هذا الرجل لا يؤمن... فاظعن واشخص فقال: يا أبا حصين! قد واللّه لقد فررت حتى استحييت من اللّه: سيجيئني ما كتب اللّه لي. وقيل أن خالداً

أمر ومعه كتاب القبض على سعيد.[٣٩]

وعن حفص بن خالد قال: حدثني من سمع سعيد بن جبير يقول يوم أُخِذ: وَشَى بي واشٍ في بلد اللّه الحرام أكله إلى اللّه.[٤٠] وكان الّذي أخذ سعيد بن جبير خالد بن عبداللّه القسري، وكان والي الوليد بن عبدالملك على مكة، فبعث به الى الحجاج... وعن شريك عن هشام الدستوائي قال: رأيت سعيد بن جبير يطوف بالبيت مقيّداً ورأيته دخل الكعبة عاشر عشرة مقيدين. ويقال أن خالد بن عبداللّه سمع صوت القيود فقال: ما هذا؟ فقيل له: سعيد بن جبير وظلق بن حبيب وأصحابهما يطوفون بالبيت. فقال: اقطعوا عليهم الطواف.[٤١]

في وجه الطغيان

حينما جيء بسعيد بن جبير الى واسط أُدخل على الحجاج ودار بينهما حوار مثير وطويل نسبياً. وكان الحجاج يقوم يدور الخصم والحَكَم في آن واحد. ومحاكمة سعيد حدث رائع يسجل آيات البطولة من مسلم يثق بعدل اللّه ورحمته، ويرى من المحتمَ أن يجابه الطغيان في جبروته. ولا عليه إذا كانت نتيجة ذلك قاسية أليمة -فهو يعلم في ميزان الشريعة أن حياة الذل والخنوع لا تقاس بمكانة الشهادة العالية- لقد أذل بكبريائه قسوة الحجاج في المحكمة، وحطم غروره. بل ان سعيداً قد أبى أن يهرب من طريقه الى المحاكمة، وقد مهّد له الحارس سبيل الفرار. أبى ذلك- ولقد انتفخ الحجاج في جلسته وسأل في إستخفاف.[٤٢]

-ما اسمك؟

-اسمي سعيد بن جبير.

-بل شقي بن كسير!

-أبي كان أعلم باسمي منك.

-لقيد شقيت وشقي أبوك!

-الغيب إنّما يعلمه غيرك.

-لأبدّلنّك ناراً تلظّى!

-لو علمت أن ذلك لك، ما اتخذتُ الهاً غيرك!

-ما قولك في محمّد؟

-نبي الرحمة وامام الهدى، بعثه اللّه رحمة للعالمين.

-وما رأيك في علي؟ أهو فى الجنة أم فى النار؟

-لو دخلتها وعرفت من فيها لعرفت أهلها.

-ما قولك فى الخلفاء؟

-لست عليهم بوكيل!

-أيّهم أحبّ اليك؟

-أرضاهم لخالقه.

-فأيّهم أرضى للخالق؟

-علم ذلك عند الذي يعلم سرّهم ونجواهم.

-أبيت أن تصدقني

-بل لم أحب أن أكذبك.

ولما أعيا الحجاج أن يفحمه، حاول أن يجره ليظهر الإستكانة والخنوع، فيعفو عنه:

-أتريد أن أعفو عنك؟ (فردّ سعيد في ثقة وايمان).

-إن كان العفو فمن اللّه، وأما أنت فلا تملك عفواً عن انسان!

-ويلك يا سعيد!

-الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النّار.

-اختر أي قتلة تريد أن أقتلك بها؟

-بل اختر يا عدو اللّه لنفسك، فواللّه ما تقتلني اليوم قتلة إلاّ قتلتك فى الآخرة بمثلها!

-إذهبوا به فاقتلوه.

فلمّا خرجوا به من الباب ضحك فأخبر الحجاج بذلك فأمر بردّه وقال له: ما أضحكك؟

-عجبت من جرأتك على اللّه وحلم اللّه عنك.

وهنا صرخ الحجاج: اقتلوه!!

قال سعيد: حتى أصلّي ركعتين، فاستقبل القبلة، وهو يقول: وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين.

قال الحجاج: اصرفوه عن القبلة إلى قبلة النصارى...

فصرف عن القبلة...

وقال سعيد: فأينما تولّوا فثمّ وجه اللّه.

قال الحجاج: كبوه لوجهه!

قال سعيد: منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى.

قال الحجاج: اذبحوه!

قال سعيد: أما إنّي أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له وأن محمّداً عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة.

ويساق سيد التابعين إلى الذبح، وكان آخر ما قاله: اللّهم لا تسلّط الحجاج على أحد بعدي!

وقد استجاب اللّه دعاءه، فمات

الحجاج بعد هذا الحادث بخمس عشرة ليلة دون أن يريق دماً لإنسان، وكان قبل موته قد جفاه النوم، والتاث عقله، فكان يستيقظ في الليل فزعاً وهو يصيح:

يا قوم! ما لي ولسعيد بن جبير، كلما عزمت على النوم أخذ بحلقي.[٤٣]

قتل ابن جبير في شعبان عام ٩٤هـ، وفي رواية أخرى ٩٥هـ.

وقد قال أحمد بن حنبل: لقد قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحد إلّا وهو مفتقر إلى علمه. وقال الحسن البصري عند سماعة بمقتل سعيد: «اللّهم أعن على فاسق ثقيف، واللّه لو أن أهل الأرض اشتركوا في قتله لكبّهم اللّه في النار».[٤٤]

وروي أن ابن جبير لما قتله الحجاج سال منه دم كثير، فسأل الحجاج عن السبب، فقيل له: قتلته ونفسه عنده، ومن كنت تقتله قبله كانت نفسه تذهب من الخوف، فلذلك قلّ دمهم.[٤٥]

قتل سعيد بن جبير وهو ابن تسع وأربعين سنه[٤٦] وقيل ابن خمسين، ودفن في ظاهر واسط من الجهة الغربية، وقبره يزار بها وهو على بُعد ميلين من مدينة الحي، وقيل لهذا الحي حي واسط للتمييز بينه وبين أحياء كانت هناك في القديم...

وبعد زوال عهد الحجاج أُعتني بقبر سعيد(رضي الله عنه) وأصبح مزاراً، وعلى مر السنين هيأ اللّه أحد المحسنين فشيّد له قبّة ضخمة وذلك عام ١٠٥٣هـ - ١٦٤٣م. وفي عام ١٩٠٠م أضاف أحد المحسنين جامعاً ملاصقاً للبناء القديم من الجهة الجنوبية، فيما بوشر ببناء حديث يليق بمقام سعيد عام ١٩٦١م واكتمل عام ١٩٦٨م من قبل أبناء مدينة الحي.[٤٧]

عقيدته

يذهب العديدون، وفي مقدمتهم علماء الرجال، إلى أن مذهب سعيد بن جبير كان هو موالاة أهل البيت(عليهم السّلام). وقد أسند أبو عمرو الكشي في كتاب الرجال عن أبي عبداللّه الصادق أنه قال سعيد بن جبير كان يأتم بعلي بن الحسين، وكان علي بن الحسين يثني عليه، وقال ما كان سبب قتل الحجاج له إلّا على هذا الأمر يعني التشيّع، وكان مستقيماً ثم روى روايات دالة على تشيّعه، ونص جمال الدين العلّامة بن

المطهر في الخلاصة أيضاً على تشيعه، وسائر علماء الرجال في كتبهم الرجالية كذلك.[48]

وقد عدّه الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب السجاد(عليه السّلام)[49] أما ابن شهر آشوب فقال في الجزء الرابع من المناقب في فصل في أحواله (علي بن الحسين عليه السّلام) وتاريخه: ومن رجاله من التابعين: أبومحمّد سعيد بن جبير. . .الخ.

وقال الكشي في ترجمة سعيد بن المسيب. قال الفضل بن شاذان: ولم يكن في زمن علي بن الحسين(عليه السّلام)، في أول أمره، إلاّ خمسة أنفس: سعيد بن جبير، سعيد بن المسيّب، محمّد بن جبير بن مطعم، يحيى بن أم الطويل، أبوخالد الكابلي. . .[50]

ورغم خصوصيته، في كونه أحد خمسة من أقرب التابعين للامام علي بن الحسين (عليه السّلام)، لكن البعض حاول الغمز من قناته، بحجة اجتهاده في الفتوى دون اتباعه أثر أهل البيت المعصومين(عليهم السّلام) وعضدوا ذلك بعدم شيوع رواية منه أيضاً عن أئمة زمانه(عليهم السّلام)[51] وكذلك ما روي عن لعبه الشطرنج استدباراً[52] أو عدم ايمانه بالتقية بقوله: لا تقية في الإسلام[53] ناهيك عن مشاركته في بعض الوظائف الرسمية، كما تقدّم.

أما تشيعه فقد كانت رواية الامام الصادق(عليه السّلام) كافية للتدليل على ذلك: (ما كان سبب قتل الحجاج له إلاّ على هذا الأمر يعني التشيع)، وقد وصفه المؤرخون بالاستقامة -أي على مذهب أهل البيت-(عليهم السّلام)[54]. والذين يؤاخذون عليه عدم شيوع رواية منه عن أئمة زمانه(عليهم السّلام) تغيب عنهم حقيقة مهمة الا وهي أن التشيّع لم يكن وقتئذ مبلوراً بالشكل الذي أصبح فيه فيما بعد مرحلة الامام الصادق(عليه السّلام)، ثم والأهم من ذلك أن الفترة التي شهدها سعيد بن جبير كانت من أحلك فترات التاريخ الإسلامي وأكثرها ظلماً ومرارة خاصة بالنسبة لأتباع مذهب أهل البيت(عليهم السّلام) وقد مر الكلام في أوّل المقال بأنه كان أحب إلى الرجل أن يقال له زنديق كافر من أن يقال له شيعي (انظر الهامش«١٦»).

وما ينطبق على سعيد بن جبير ينطبق على غيره من علماء عصره،

الّـذيـن عـايشـوا مـرحلـة الامـام زين العابدين(عليه السّلام).

أمّا حـول لعبه الشطرنج استـدباراً، كما روى ابـن خلكان[٥٥] فان هـذا الأمر لا يليق بزاهد كسعيد بن جبير وهو الذي يقول: «مـا مضت علـيّ ليلتان منـذ قتل الحسين إلاّ أقرأ فيهما القـرآن إلاّ مسافراً أو مريضاً».[٥٦]

وقد رويـت عنه مـواقف كـان فيها صارماً جاداً يعرف للوقت قدره وأهميته، ومن ذلك ما ذكره جرير عن حبيب بن أبي عمـرة قال: كلمـت سعيد بـن جبير بعـد مطلع الفجر فلم يكلمني.[٥٧]

أما عن مشاركته فـي الوظائف، فقد كفانـا مؤونة الـرد على الشبهـة الاستاذ شوقي أبوخليل: «ورغـم مظالم الحجاج، شارك في بعض الوظائف مشاركة فعالة، ليدرأ بها ما قد يحيق به من كيد وعدوان».

أمّا منطق عصرنا، يا غيرة الله: سيد التابعين عند الحجاج؟

وجوده خيـر من عـدمه، ليـدفع مـا أمكنـه أن يـدفـع علـى ضـوء «ميـزان الشريعـة» فان وجـد عند الحجـاج، وجد لمصلحة الشريعة، ولا يعنـي ذلك مطلقاً، أنّه باع دينه؟!

ولقد قال بعضـهم: أولـى به أن يترك الحيـاة جانبـاً، ويتفرّغ للفقـه في إمـارة ظالمـه أميرها الحجـاج، ولكن ارجـع إلى «الميزان الشرعي».

كفاح المجاهد المخلص يجلب منافع صائبه، ويدفع نوائب كارثة، وإذا تعاون المصلحـون فـي أوقـات الطغيـان علـى الخيـر، أسهموا فـي الكفـاح، وأنهم لابـد واصلـون إلـى بعـض مـا يبتغـون مـن السداد، ولئن لم يتمكنـوا من اخماد النار المشتعلة، فهم على الأقل يحصرونها في نطاق أضيق.

وإذا كان الحسن البصري «معاصر سعيد» وقـريعه فـي الفقه والتقـوى، قد اعتزل وظـائف الدولـة، وشاء لنفسـه أن يقتصر على النصيحة والتوجيه في رفق وحيطة فليـس لنا أن نجبـر سعيداً علـى ارتسام منهجه، فالانطوائي في كل عصر لا يساهم في توجيـه، ودرء المفاسد، كما يقوم به المكافح المجاهد.

ومن يرى أن موقـف الحسن صائب وموقف سعيد خاطئ، لا يعلم أن الإسلام دين كفاح وعمل، وليسـت قيمة الورع أن

تعتزل المناصب، وتترك ميدان العمل لفاسق فاجر، بل عليك أن تزهد وتتورع والدنيا في يدك، تصرفها «بميزان العدالة المنصف»، فتدفع شراً يطرأ، وتجلب خيراً يتاح، ولم يتخلف سعيد بن جبير عن الغزو والجهاد[58] ويكفيه أنه أطلق صرخة في وجه أموي حاقد، وقدّم نفسه على منحر التضحية والفداء، وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، فسلام عليه في الصالحين.

الهوامش

(١) د. عبداللّه محمود شحاته؛ «القرآن والتفسير»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، ص:٩٢-٩٦.

(٢) يراجع كتابه؛ «مقدمة في أُصول التفسير» تحقيق د. عدنان زرزور، دارالقرآن الكريم، الكويت، ١٩٧١م، ص:٦١.

(٣) للمزيد عن مدرسة مكة في التفسير؛ يراجع «التفسير والمفسرون» لمحمّد حسين الذهبي، القاهرة، ١٣٨١هـ-١٩٦١م، ١٠١:١ وما بعدها.

(٤) محمّد حسين الذهبي: «التفسير والمفسرون» ١٠١:١.

(٥) د. عبدالوهاب الكيالي وآخرون: موسوعة السياسة ٧٠٩:٢، بيروت، ١٩٨١م.

(٦) مجلة المسلم المعاصر، العدد (٤٢)، السنة (١١)، ربيع الثاني - جمادي الأخر ١٤٠٤هـ، ص:١٥٥.

(٧) ول وايريل ديورانت: «قصة الحضارة» ٨١:٧، بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨.

(٨) مجلة «الفكر العربي»، العدد (٢٣)، السنة (٣)، تشرين الأوّل (اكتوبر) - تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١، مقال: «نظرة إلى تطور الفكر السياسي الإسلامي». ص:٢٦٣.

(٩) مجلة المسلم المعاصر: المرجع السابق، والغريب حقاً أن نجد بين ظهرانينا اليوم من ينافح عن بني أمية... وعن أبي سفيان وزوجته آكلة الأكباد هند، كما هو حال الدكتور عبدالعظيم الديب، انظر مرافعته عن بني أمية في مجلة المسلم المعاصر: العدد (٤٧)، رجب، شعبان، رمضان ١٤٠٦هـ، ص:١١٧.

(١٠) عادل الأديب: «الأئمة الاثنا عشر: دراسة وتحليل»، بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.، ص:١٣٨.

(١١) محمّد عبدالمنعم خفاجي: «صور من الفكر العربي وتاريخ الإسلام»، مصر ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م، ص:٤٩.

(١٢) هاشم معروف الحسني: «الشيعة بين الاشاعرة والمعتزلة». بيروت ١٩٧٨م، ص:١٧.

(١٣) أبوالحسن الأشعري: «مقالات الإسلاميين»، ط (٢)، مصر، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م، ص:٣٩.

(١٤) د. عمر فروخ: «تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية»، دارالعلم للملايين، بيروت ١٩٧٦م، ص:٢٠٠.

(١٥) هاشم معروف الحسني؛ المرجع السابق:٢١.

(١٦) أسد حيدر: «الامام الصادق والمذاهب الأربعة» ط (٣)، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، المجلد الثالث: ٤٥١.

(١٧) خير الدين الزركلي: «الاعلام» ٣:٩٣، ط (٧)، بيروت، ١٩٨٦م.

(١٨) نقلاً عن «معجم رجال الحديث» للامام الخوئي ٨:١١٣، ط (٣)، بيروت، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

(١٩) المرجع السابق.

(٢٠) مجلة «رسالة الإسلام»، العدد (١-٢)، السنة (٣)، كلية أصول الدين/ بغداد، ١٩٦٨، مقال سعيد بن جبير لسلام محمّد علي البياتي.

(٢١) إبن سعد: «الطبقات الكبرى» ٦:٢٥٦، بيروت (د.ت).

(٢٢) المرجع السابق.

(٢٣) مجلة رسالة الاسلام، المرجع السابق: ١٢٩.

(٢٤) ابن سعد؛ المرجع السابق: ٢٥٧.

(٢٥) المرجع نفسه

(٢٦) المرجع نفسه: ٢٥٧.

(٢٧) المرجع نفسه

(٢٨) المرجع نفسه: ٢٥٩.

(٢٩) المرجع نفسه: ٢٥٧.

(٣٠) المرجع نفسه

(٣١) مجلة رسالة القرآن: العدد (٤)، شوّال، ذوالقعدة، ذوالحجة ١٤١١هـ.

(٣٢) مجلة رسالة الاسلام؛ المرجع السابق:١٣١.

(٣٣) إبن سعد؛ ٦:٢٦٧.

(٣٤) مجلة رسالة الاسلام؛ المرجع السابق:١٣٠.

(٣٥) المرجع نفسه:١٣١-١٣٢.

(٣٦) شوقي أبوخليل: «من ضيّع القرآن؟» (ط٣)، دمشق: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٣٧) إبن سعد ٦:٢٦٥.

(٣٨) الأردبيلي: «جامع الرواة ١:٣٥٩»، الطوسي: «الرجال: ٩٠»، الحائري: «منتهى المقال: ١٤٦»... نقلاً عن مجلة رسالة الاسلام:١٣٦.

(٣٩) مجلة رسالة الاسلام؛ المرجع

السابق:١٢٦.

(٤٠) إبن سعد ٦:٢٦٤.

(٤١) المرجع نفسه

(٤٢) شوقي أبوخليل؛ المرجع السابق:١٥٥.

(٤٣) د. محمّد رجب البيومي: «علماء في وجه الطغيان» نقلاً عن مراجعة للكتاب في مجلة العربي الكويتية، العدد (٨٩)، أبريل – نيسان ١٩٦٦.

(٤٤) إبن العماد الحنبلي؛ «شذرات الذهب ١:١٠٨».

(٤٥) إبن خلكان؛ «وفيات الأعيان٢:١١٦».

(٤٦) إبن سعد؛ المرجع السابق: ٢٦٦.

(٤٧) مجلة رسالة الاسلام؛ المرجع السابق:١٣٩.

(٤٨) السيد حسن الصدر؛ «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام» بغداد (د.ت) ص: ٣٢٢، وانظر روضات الجنات ٤:٣٩، رجال الخوئي ٨:١١٣، جامع الرواة: ٣٥٩، مجمع الرجال ٣:١١٣.

(٤٩) يراجع معجم الرجال ٨:١١٣.

(٥٠) المرجع نفسه، وكذلك: الطبرسي؛ مجمع البيان ٩:٢٨٨، رجال الكشي: ١١٠–١٠٧.

(٥١) روضات الجنات ٤:٣٩.

(٥٢) المرجع نفسه، الاعلام للزركلي ٣:٩٣.

(٥٣) إبن سعد ٦:٢٦٣.

(٥٤) محمّد هادي معرفة؛ «التمهيد في علوم القرآن»، قم ١٢٩٧هـ، ص:١٩١.

(٥٥) وفيات الأعيان ٢:١١٦.

(٥٦) إبن سعد ٦: ٢٦٠.

(٥٧) المرجع السابق.

(٥٨) شوقي أبوخليل:١٥٤.

* * *

من أساليب الحرب النفسية في القرآن الكريم

القسم الأوّل

الشيخ محمدعلي جواد

لقد استخدمت الحرب النفسية على مدى التاريخ ومنذ العهود السابقة كسلاح لتحطيم معنويات العدو و زلزلة أفراده ، والقرآن هو الرسالة الالهية الكاملة والشاملة والمبيّنة لكل شيء استعملت في طريق مواجهتها لقوى الضلال والكفر والنفاق الحرب النفسية وعلى مستوى لم تصل ولن تصل اليه مدرسة اكاديمية قديمة أو حديثة في الفن والحكمة والطرح ، وذلك لانه كتاب الله العليم الخبير بهذه النفس وبمداخلها الدقيقة والكثيرة .

والحرب النفسية محور من محاور المعركة الكبرى المستعرة بين جبهة الحق والايمان من جهة وجبهة الباطل والضلال من جهة اخرى - والقرآن الكريم بشموليته يغطي هذه المساحة (الحرب النفسية) بكل الاساليب والمفردات التي تحتاجها قبل وبعد واثناء المعركة.

ونحن في بحثنا هذا اذ نستكشف العطاء الثر والتقديم الافضل لرسالة السماء في هذا المجال انما يأتي ايماناً منا بأن المعركة القائمة اليوم هي بين الشعوب المستضعفة التي لا تجد معينا تستعين به ومنقذاً ينقذها الا رسالة الله تبارك وتعالى، وبين انظمة سلطوية كافرة ومتجبرة غايتها اذلال الشعوب وابتزاز خيراتها بوسائلها الماكرة الخبيثة وكذلك ايماناً منا بان الاساليب القرآنية هي المنتصرة الظافرة، لانها من ابداع وتصميم الارادة الالهية القاهرة المهيمنة ونحن اذ نضع هذا بيد الشعوب

المستضعفة نرجو من ذلك اضافة لما ذكرنا هدفاً آخر وهو من أهم أهداف الحرب النفسية، ألا وهو جذب الأفراد المضلّلين في جبهة الباطل والضلال نحو اللّه تعالى أو تفريغ نفسيتهم من كل مقومات القوة والمعنوية، لكي يكون ذلك مقدمة لهزيمتهم العسكرية ان لم يتم الغرض الاول.

وأول ما يستعمله القرآن الكريم من وسائل في مجال الحرب النفسية هو ايصال الكلمة الطيبة واحسن القول واصدق النصيحة لتحقيق ما تتوخاه الحرب النفسيه من أهداف.

قال تعالى : **﴿الَّذينَ اجتَنَبُوا الطّـٰغوتَ أَن يَعبُدوها وَأَنابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ البُشرىٰ فَبَشِّرْ عِبادِ*الَّذينَ يَستَمِعونَ القَولَ فَيَتَّبِعونَ أَحسَنَهُ أُولـٰئِكَ الَّذينَ هَدىٰهُمُ اللهُ وَأُولـٰئِكَ هُم أُولُوا الأَلبـٰبِ﴾** (الزمر:١٧-١٨).

فالآية هنا تستعمل اسلوب الدعوة والبشارة والمنحة الإلهية لمن يتصف بمواصفات معينة تحددها الآية وهي:

الف-الاجتناب عن الطاغوت وعبادتها

ب- الإنابة الى اللّه تعالى.

ج- الاستماع الى أحسن القول.

د- الرجوع الى العقل والابتعاد عن الطاعة العمياء .

فالحرب النفسية اذن دعوة للّه تعالى ودعوة لطاعة أوامره عزوجلّ ودعوة لترك طاعة الظالمين والطغاة قبل ان يشتعل فتيل الحرب وأوار المعركة، لعل هذه الدعوة الحقة تأخذ مجراها في نفوس المقهورين على العدوان والبغي أو في نفوس الذين أغواهم ائمة الضلال والكفر ولعلها تقودهم الى ساحل النجاة والخلاص فيما لواستمعوا الى ندائها ومضامينها .

ولقد استعمل ائمة الحق هذا الاسلوب القرآني بكل صراحة ووضوح فهذا الامام علي(عليه السلام) كما في رواية يرويها عنه ابو عبداللّه (عليه السلام) قال: قال اميرالمؤمنين (عليه السلام): لما وجهني رسول الله (صلّى اللّه عليه واله وسلّم) الى اليمن قال : يا علي! لا تقاتل احداً حتى تدعوه الى الإسلام وايم اللّه، لأن يهدى اللّه عزوجلّ على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت ولك ولاؤه».[١]

وهذا هو الامام الحسين (عليه السّلام) يقول أيام قدومه لاثنين من المسلمين

التقيا به في الطريق بعد أن رفضا دعوته لهما بالالتحاق به: «انطلقا! فلا تسمعاني واعية ولا تريـاني سواداً، فان مـن سمع واعيتنا أو رأى سوادنا فلـم يجبنا أو يعنّا كان حقّاً علـى اللّه عزوجل ان يكبّـه على منخريه في النار». [٢]

وقد ذكـر أحد الكتـاب الاسلاميين هذه الوسيلـة القرآنية في مقـال له قائلاً: «اذا كانـت وسيلة الحـرب التقليديـة هي الرصـاصة فـإن وسيلة الحـرب النفسية هـي الكلمة التـي تنفذ الـى ما وراء جلـد الانسـان لتستقر فـي اعمـاقـه محدثـة الاحتراق الأكثر خطورة». [٣]

ومـن الـوسـائل الاخـرى التـي يستعملها القرآن الكريم في مجال الحرب النفسية بعد الاسلوب الأول هو:

بيان السنن الإلهية

عبّر القرآن الكريم في بعض الآيات عن سنـة اللّه تعالـى في اعطـائه النصر دائماً لـرسله وجنـوده قال اللّـه تعالـى: **﴿وَلَقَـدۡ سَبَقَـتۡ كَلِمَتُنـا لِعِبـادِنَـا المُرسَلينَ*إِنَّهُم لَهُمُ المَنصورونَ*وَإِنَّ جُندَنا لَهُمُ الغـٰلِبونَ*فَتَوَلَّ عَنهُم حَتّىٰ حيـنٍ*وَأَبصِـرهُـم فَسَـوفَ يُبصِرونَ﴾**(الصافات:١٧١-١٧٥).

وعبّـر بعـض الآيـات الكـريمة الاخرى عن هزيمةالباطل، قال اللّه تعالى: **﴿وَلَو قـٰتَلَكُمُ الَّذينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدبـٰرَ ثُمَّ لايَجِدونَ وَلِيّـاً وَلانَصيراً*سُنَّةَ اللهِ الَّتي قَد خَلَـت مِن قَبلُ وَلَن تَجِـدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبديلاً﴾**(الفتح:٢٢-٢٣).

ان اسلوب التـذكير بالسنـن الالـهية من الاسـاليب القرآنيـة التي عـوّل عليها كثيراً في ردع أهل الباطـل وفي تهديدهم وانذارهم ان هم بقوا معـاندين ومخالفين لها كما ان السنن الالهية أدلة عملية تؤثر مباشـرة في نفـوس الاعداء وتُلقـي فيها صورة الواقع المستقبلـي الذي ينتظرهم وتوحـي اليهم بـالهزيمـة لانهم فـي اثر اولئك الذين عتوا عن أمر اللّه .

قال الله تعـالى فـي كتابـه الكريـم: **﴿... وَنُخَـوِّفُهُـم فَمـا يَـزيـدُهُـم إِلاّ طُغيـٰناً كَبيراً﴾**(الإسراء:٦٠).

وقـال صاحـب مجمـع البيان فـي معنى هذا النص القرآني: «اي نرهبهم بما نقص عليهم من هلاك الامم الماضية».

اذن، فحيـاة الامم السـالفة وصـور الاهلاك الالهى الذي ذاقوه وقضى عليهم وسيلـة مـن وسائل التخـويف حسب

صريح النص القرآني، والاستفادة من هذا الاسلوب في ميدان الحرب النفسية ينبغي ان يتم باستعراض حياة اسلاف المعادين للحق بشكل قصصي جذاب ومؤثر وكيف انتهى مصيرهم الى الهلاك الفظيع، لعل في اسلوب التخويف وعرض النتائج المريعة التي ينتهون اليها درساً بليغاً في طلب الهداية واستماع كلمة الحق، أو لعلهم يضنون بأنفسهم فلايعرضونها للاهلاك الذي تعرض له من سبقهم في طريق الباطل والعدوان والغيّ.

خلق حالة الإحباط في الصف المعادي (Frustration)

حبط بطنه : انتفخ حَبَطاً بالتحريك وحبط جلده في السياط . وفي المجاز حبط عمله حبوطاً وحبطاً بالسكون واحبط اللّه عمله . وتقول إن عمل عملاً صالحاً أتبعه ما يحُبطه وإن أصعَدَ كلماً طيباً ارسل خلفه ما يهبطه، استعير من حبط بطون الماشية اذا أكلت الخَضَر فاستوبَلَتهُ وهلكت به . ومنه حبِطَ دَمَ القتيل: هدَرَ وبَطَل.(٤)

فالاحباط الذي نحن بصدده هو ابطال العمل واهدار السعي الذي يقدم عليه الانسان من خلال مايقوم به نفس الشخص من اعمال اخرى مهلكة ومبطله يسري بطلانها وهلاكها الى الاعمال الاخرى فيفنيها ويحرقها ويفسدها. والقرآن يؤكد على وجود هذه الظاهرة في نفسية الصف المعادي للايمان من خلال كثير من الشواهد كأمثال قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَـٰتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ*أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِن نَـٰصِرِينَ﴾**(آل عمران:٢١-٢٢).

فهذا الاحباط كان نتيجة لاعمال عدوانية يمارسها هذا المجتمع الكافر ازاء الانبياء وازاء الآمرين بالقسط.

ومثل قوله تعالى: **﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَـٰجِدَ اللهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُوْلَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى النَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ﴾**(التوبة:١٧).

فالاحباط هنا انما لحق المشركين بسبب شركهم وكفرهم.

ومثل قوله تعالى: **﴿كَالَّذِينَ مِن**

قَبلِكُم كانُوا أَشَدَّ مِنكُم قُوَّةً وَأَكثَرَ أَموالاً وَأولاداً فَاستَمتَعُوا بِخَلٰقِهِم فَاستَمتَعتُم بِخَلٰقِكُم كَمَا استَمتَعَ الَّذينَ مِن قَبلِكُم بِخَلٰقِهِم وَخُضتُم كَالَّذي خاضُوا أُوْلٰئِكَ حَبِطَت أَعمٰلُهُم فِى الدُّنيا وَالآخِرَةِ وَأُوْلٰئِكَ هُمُ الخٰسِرونَ﴾ (التوبة:٦٩).

فهنا الاحباط انما كان نصيب الآتين بعد السابقين نتيجة مسيرهم على نفس ماسار عليه اولئك من الاستمتاع الكامل بكافة الملذات والخوض بامور لا تدرّ على الانسان نفعاً في حياته الاخرى.

ومثل قوله تعالى: **﴿قُل هَل نُنَبِّئُكُم بِالأَخسَرِينَ أَعمٰلاً*الَّذينَ ضَلَّ سَعيُهُم فِى الحَيوٰةِ الدُّنيا وَهُم يَحسَبُونَ أَنَّهُم يُحسِنُونَ صُنعاً*أُوْلٰئِكَ الَّذينَ كَفَرُوا بِآيٰتِ رَبِّهِم وَلِقائِهِ فَحَبِطَت أَعمٰلُهُم فَلانُقيمُ لَهُم يَومَ القِيٰمَةِ وَزناً﴾**(الكهف:١٠٥).

فهؤلاء الخاسرون الذين لا يقام لهم وزن يوم القيمة نتيجة فساد اعمالهم كلها انما هو نتيجة ضلال سعيهم في الحياة الدنيا وكفرهم بآيات اللّه ولقائه.

ومن خلال استقراء الآيات التي ذكرت الاحباط نجد ان الشرك والقتل والصد عن سبيل اللّه والخوض بالباطل والاستغراق في الملذات والكفر بآيات اللّه ولقائه واختيار طريق الغيّ وكراهية ما أنزل اللّه وكراهية ما يُرضى اللّه تعالى ومعاندة الرسول ومشاقفته بعد تبين الهدى الى غير ذلك من اعمال ضالة وعدائية وترفية وجاهلية.

ومن المعلوم ان هذه العراقيل التي يصنعونها بأيديهم والتي تحول دون الوصول الى نتيجة لا فى الدنيا حيث الخسران نصيب الباطل حتماً ولا فى الآخرة حيث النار مثوى هؤلاء. ان مجرد الاحساس أو الادراك بمثل هذه النتيجة كافٍ أن يخنق النفس ويقتلها أذىً وتعباً ويقهرها ويفقدها الثقة بما حولها ويربكها بحيث تبقى تتخبط في هذا الواقع الفاسد الضال الفاقد للقيم والكرامة والحرية والقانون ومبادئ الخير.

ان مثل هذه الحصيلة اذا ما سلط الضوء عليها من خلال العراقيل التي تؤدي الى الاحباط ستكون بحد ذاتها حرباً نفسية للصف المعادي أفراداً ومجتمعات .

وخلاصة القول في هذه النقطة ان القرآن كأنما يقول لمن يقف في الصف المعادي للايمان: لا قيمة لعملك، عملك يذهب سدى، سوف لا تنتفع بعملك لا في الدنيا ولا في الآخرة، عملك كالعدم وباطل لا وجود له ، حقيقة عملك كجسم منتفخ اصابه الوباء القاتل، اي هالك ومهلك لك ولمن يسير عليه . ان مثل هذه النتائج والاساليب كفيلة ان تضيّق على نفس صاحب العمل وتؤذيه وترهقه وتقتل روح الحماس عنده وتفقده الثقة بنفسه وبمن حوله وكفيلة أن تخلق منه انساناً متوتر الاعصاب يوعد ويهدد اكثر مما يعمل، يعيش الكبت ويركن الى التبرير لتوجيه فشله أو يفكر بالعدوان، لكن لا من أجل شيء بل من أجل الخلاص من ضغط الاحباط الذي يعيشه في داخله .

والذي يتأمل اكثر بعد أن يرى زحمة هذه العراقيل وتعددها امام سير هذا المجتمع الكافر او المشرك أو الجاهلي المترف المعادي للقيم والرسالات السماوية يجده، مجتمعاً مخنوقاً يراوح في مكانه، مجتمعاً يشبه الماء الراكد المتفسخ الذي لا يصلح أن يكون الا مصدراً للوباء والامراض واثارة العفونات في هواء البشرية الطلق.

استعمال أسلوب التكرار والتلقين

«ومن الأساليب القرآنية المتفوقة في غرس الفكرة التي يراد غرسها هو اسلوب التكرار والتلقين، لهذا ترى القرآن بين الحين والآخر يكرر المقطع المهم والحادثة التي فيها عبرة أو درس ينتفع به ويحذر منه وعملية التلقين كما يقول علماء النفس ومنهم «ثورندايك» تسير وفقاً لقوانين معينة واهم تلك القوانين هو قانون التدريب أو تكرار المادة التي يراد تلقينها». (٥)

وقد استعمل القرآن الكريم عملية التكرار والتفصيل لقصص الانبياء والامم التي عاصروها من أجل اظهار سنة اللّه في عباده. هذه السنة التي يراد من الناس ان يعوها ويعتبروا بها ويوفقوا للسير على ضوئها فمثلاً قصّة نوح (عليه السّلام) فصلت في ستّ من السور القرآنية (الاعراف، هود، المؤمنون، الشعراء، القمر، وسورة نوح)، واكثرها تفصيلاً سورة هود التي ذكرت قصته (عليه السلام) في خمس وعشرين آية (من٢٥-٤٩)،

وهكذا مع موارد كثيرة اتبع فيها نفس الاسلوب.

يقول السيد الطباطبائي (قدّس سرّه) في تفسيره: «التلقين يجعل النفس تذعن بما تلقن وتطمأن وتركن اليه بالتلقين، وان هذا التلقين يؤثر أثر العلم كما بين ذلك علماء النفس فصارت الفرية الباطلة بالتكرار والتلقين تغرهم عن دينهم وتمنعهم عن التسليم لله والخضوع للحق الذي انزله في كتابه، وهو الذي انتج على أيديهم قتل الانبياء بغير حق، اذ عندما يقوم الانبياء بتبليغ رسالة اللّه بينهم يلاقون استكباراً واعراضاً منهم، لان هذه الفرية توحي لهم انهم لن تمسهم النار وانهم احباء اللّه وانهم اولياؤه وانهم كذا وكذا مما لا مبرّر لدعوة الانبياء بينهم، اذ هم كأنما يقطعون بأنّ النار لن تمسهم، وهذا القطع ناتج عن تكرار التلقين، فعندما يخبرهم الانبياء بان الله سيعذبهم اذا لم يستجيبوا لرسالة الله الحقة يدفعهم دافع الشعور بالغرور بهذه الفرية المستحكمة الى قتلهم بغياً وعدواناً، بل يشعرون في ممارسة هذه الجريمة لذة وجاذبية لا تدعوهم هذه اللذة والجاذبية الى التفكير في صحة عملهم هذا أو خطئه أو هل ينبغي أو لا ينبغي أو يجب الاجتناب عنه أو لا يجب». [٦]

وقد استخدم هذا الاسلوب اليهودي فى التغطية على الحقائق وقلبها وتلقين الاكاذيب غوبلز في المانيا واخرون منهم طغاة في بلادنا الاسلامية.

ومن الأمور التى اعتمد القرآن تكرارها في مجال الحرب النفسية، هو هزيمة اعداء اللّه وانتصار المؤمنين الصابرين الثابتين، واعتمد تكرار البشارة بالجنة والاجر العظيم لمن يجاهد في سبيل اللّه وتكرار اوصاف الجنة ليزيد التشوق اليها وتكرار اوصاف جهنم ليزيد الخوف والتحذر منها واجتناب ما يؤدي اليها وتكرار عداوة الشيطان للانسان وعداوة اوليائه كذلك، لكي لا تكون هناك مودة لهم في صدور المؤمنين -وان كانوا آباءهم أو إخوانهم أو أبناءهم أو عشيرتهم-، وكرر الطاعة لله ولرسوله والجهاد في سبيله دون غيره من السبل والغايات، كل هذا من أجل ان تزداد كل قضية يراد تلقينها قوة ورسوخاً في ذهنية من يراد توجيهه وتلقينه بتكرارها عليه، ومن المعلوم انها

تضعف باهمالها أو بالمرور عليها بشكل بارد أو بشكل عابر.

ان تكرار كثير من القضايا قد يحرج الجبهة المقابلة ويؤذيها نفسياً، فتباكي الظالم المعتدي مثلاً على السلم والصلح ظاهرياً كثيراً ما يشوش على أذهان العوام نظرتهم عن هذا الظالم، فقد يؤدي تكرار الموضوع وتلقينه بشكل فني وذكي الى التصديق به، وبالتالي لو حصل هذا التصديق ولو بدرجة واطئة يكون نواة في شق الصف ووحدة كلمة الطرف المقابل وهذا من أهم الاهداف التي تسعى الحرب النفسية لتحقيقه، وهكذا قس مع تكرار القضايا الأخرى وما تعطيه من نتائج ايجابية أو سلبية، ايجابيه لصالح الطرف الذي يستعمل الحرب النفسية ضد الطرف الآخر، وسلبيه على ذلك الطرف الآخر (الخصم).

الهوامش

(١) فروع الكافي، كتاب الجهاد ٥:٣٦.
(٢) حياة الامام الحسين للقرشي ٣:٨٨-٨٩.
(٣)صحيفة الجهاد، العدد ١٤:٢٨٠،حسن السعيد.
(٤) اساس البلاغة للزمخشري،مادة حَبِط: ٧٢.
(٥) اساليب ميدانية فى الحرب النفسية:٩٤، محمد علي جواد.
(٦) تفسير الميزان٣:١٢٥[نقل بتصرف].

الإستقامة ومقوماتها فى القرآن الكريم

القسم الأوّل

الشيخ حسين الربيعي



﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنونَ*أُوْلَـٰئِكَ أَصحَـٰبُ الجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾(الأحقاف:٤٦).

ما هي الإستقامة؟

الإستقامة: هي لزوم المنهج المستقيم والثبات عليه بمواصلة الحركة فيه وحفظه من التحريف وأداء جميع متطلباته، ولو كلف ذلك التضحية بالغالي والنفيس.

إن الثبات والإستقامة مرتبط بمدى صلاحية المبدأ الفكرية والعملية. وشموله لجميع جوانب حياة الإنسان والإيمان به والوعي الكلي له والعمل به وفق مقرراته الموضوعية، والحركة نحو تحقيق أهدافه على المدى البعيد...

ومقومات الإستقامة هي: صلاحية المبدأ وفهمه فهماً سليماً، بل وعيه وعياً عميقاً، والتفاني من أجله فكراً وعاطفة وسلوكاً.

أما صلاحية المبدأ فهو الشرط الأساس فى استقامة الإنسان عليه. وهنا يجدر بنا أن نعرض بشكل إجمالي لشروط المبدأ الصالح الذي يمكن للإنسان الثبات رغم كل الظروف والصعاب، أما تلك الشروط فهي:

١- أن يكون قابلاً للإثبات العقلي والإستدلال المنطقي، وبعبارة أخرى: أن لا يكون مخالفاً للعقل السليم والمنطق الصحيح ونقول العقل السليم، لأن هناك

ما يشبه العقل وليس من العقل في شيء. فقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السَلام): أنه سئل ما العقل؟ قال (عليه السَلام): ما عبد به الرحمن واكتسب الجنان، قال: قلت: فالذي كان في معاوية؟ فقال (عليه السَلام): تلك النكراء[1].

تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل، وليست بالعقل[2].

٢- أن يعطي تفسيراً واضحاً وكاملاً للحياة والوجود، يجيب فيه على المسائل الأساسية الكلية المرتبطة بالوجود الكلي للإنسان والكون والحياة عموماً، مبدأً ومعاداً. ولا يكتفي بالتفسيرات الجزئية الناقصة على أن يكون هذا التفسير ثابتاً، وقابلاً للإعتماد والإدامة الى آخر مطاف حياة الإنسان.

٣- أن تكون له هدفية بناءة وسليمة وواقعية تخلق في الإنسان الشوق للحركة في تحقيق تلك الأهداف.

٤- أن يكون له القدرة على إيجاد القدسية في نفوس معتنقيه.

٥- أن يكون قادراً على خلق الشعور بالمسؤولية في أعماق حامليه.

٦- أن لا يكون متعارضاً مع الغرائز والدوافع الطبيعية في الإنسان كما هي في الرهبانية المسيحية.

٧- أن يحتوي المبدأ على نظام كامل وشامل لجميع جوانب الحياة مترابطاً مع خطه العقائدي، ومستنداً اليه، ومنطلقاً منه...

بقي علينا أن نشير بايجاز الى معالم الشخصية المبدئية من ناحية الإيمان بالمبدأ، والوعي له، والعمل به، والتحرك نحو تحقيق أهدافه. ولا شك أن هذه العوامل مترابطة ترابطاً جذرياً لا يمكن أن يفصل بعضها عن البعض الآخر... فلا يصح الإيمان إذا لم يعتمد على الوعي العميق، والفهم السليم القائم على الأدلة العقلية، والبراهين المنطقية. وكل إيمان لا يدعمه العلم والمعرفة الصحيحة إيمان واهٍ يمكن أن يتزلزل وينهدم بسرعة، وكل علم لا يؤدي الى عمل وبناء لقلقة لفظية فارغة لا قيمة لها.

يقول مولانا أميرالمؤمنين (عليه السَلام): «العلم ينادي العمل، فإن أجابه وإلا ارتحل».

وفي ضوء هذا نستطيع القول: إن الإستقامة المبدئية هدف قائم بذاته

تتحقق من خلاله كل الأهداف الأخرى. وما لم تتحقق الإستقامة في داعية المبدأ لا يمكن أن يحقق بقية الأهداف:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ (هود:١١٢).

ولأهمية وعظمة هذا الأمر قال إبن عباس: ما نزل على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) آية كانت أشد عليه ولا أشق من هذه الآية. ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: أسرعَ اليك الشيب يا رسول الله: «شيبتني هود والواقعة»[٣].

الإستقامة فى القرآن الكريم

هي الثبات على العقيدة الإلهية، بالإلتزام الواعي المُحكَم بالأوامر، والإنتهاء عن النواهي، ومواصلة الحركة الجدية الفاعلة، لنشر وتحكيم شرعة الله فى الأرض، وتحقيق إرادته. والصبر على تجاوز العقبات والعوائق المعترضة لخط السير نحو تحقيق الأهداف الكلية لرسالة السماء.

وبتعبير أدق: هي قوة إيمانية، وطاقة رسالية تنشأ فى النفس وتترسخ فيها، من خلال المعرفة بالله، والعلم بأحكامه، والحب له فتمنحها الصمود الحركي في خط الإيمان، والمقاومة العنيفة للتيارات المعاكسة والكدح المتواصل في طريق ذات الشوكة بدون وهن، ولا ضعف ولا استكانة، ولا تراجع. رجاء رضاه فقط، والتقرب اليه بقلب مطمئن عامر بالإيمان والحيوية، موقنة بالنصر على كل حال...

وبعد فهي كرامة إلهية يمنحها الله لخُلَص عباده الصابرين فى البأساء والضرّاء وحين البأس كما جاء في دعاء صاحب الأمر والزمان (عجّل الله تعالى فرجه الشريف): «وأكرمنا بالهدىٰ والإستقامة».

إن الشخصية القرآنية لها مميزات وأبعاد رسالية ابتنت منها. وقامت عليها نذكرها بشكل إستطرادي مختصر دون الدخول فى التفاصيل، لأنها خارجة عن البحث، وهذه المميزات مقتبسة من أحاديث أهل البيت (عليهم السّلام) خصوصاً زبور آل محمد، «الصحيفة السجّادية» وأبرز تلك الخصائص هي:

إنها مؤمنة بوعد الله تعالى إيمان يقين لا ريب فيه، وبما أن هذه الميزة هي الأساس الذي يقوم عليه البناء الفوقي

للشخصية نجد أئمة الهدى يتوسلون بالله تعالى أن يثبتها فيهم رغم ثباتها فيهم قولاً وفعلاً. فقد ورد في دعاء أبي حمزة عن السّجاد (عليه السّلام):

«اللهم إني أسألك إيماناً لا أجلَ له دون لقاءك، أحيني ما أحييتني عليه، وتوفني إذا توفيتني عليه، وابعثني إذا بعثتني عليه... اللهم إني أسألك إيماناً تباشر به قلبي ويقيناً حتى أعلم أنه لم يصبني إلا ما كتبتَ لي».

كما ورد في أدعية أُخرى: «اللهم صلِّ على محمّد وآل محمّد، وهب لي ثبات اليقين، ومحض الإخلاص، وشرف التوحيد، ودوام الإستقامة، ومعدن الصبر...»

راضية بقضاء الله، موقنة بأن هذا القضاء لخيرها، وصلاحها وتكاملها. قائلة في مواجهة كل الصعاب: ﴿**لَن يُصيبَنا إلّا ما كتبَ اللهُ لنا**﴾... وهذه السمة من السمات الأساسية في شخصية المسلم. لأنها تملأ القلب طمأنينة وتجعله راضياً بكل ما يلاقي في سبيل الله تعالى. فعن الإمام علي بن الحسين (عليه السّلام) قال: «الصبر والرضا عن الله رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله فيما قضى عليه فيما أحب، أو كره لم يقضِ الله عزوجل له فيما أحب أو كره إلا ما هو خير له»[٤].

وعن أبي جعفر (عليه السّلام) قال: «أحق خلق الله أن يسلم لما قضى الله عزوجل من عرف الله عزوجل، ومن رضي بالقضاء أتى عليه القضاء وعظم الله أجره، ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء وأحبط الله أجره»[٥].

مُسَلِمةً لأمر الله تسليماً مطلقاً من دون لماذا؟ وكيف؟ ومتى لا أمر لها مع أمره وليس لها قدرة على الخروج من سلطانه.

متطلعة الى بلوغ درجة إيمانية عُليا، ونية رشيدة، وسلوك طريقةٍ لا زيغَ فيها، وزيادة فى العمل الصالح وَجِلَة من عدم قبوله.

طامحة الى تطهير نفسها من ذمائم الأخلاق، ومن أدران المعاصي، عاملة على تفريغ قلبها من غير حب الله تعالى، مائلة الى طاعته، جارية في سبيله على كل حال.

زادها من الدنيا تقوى الله، ورغبتها

فيما عنده من النعم والخيرات والرحمة في دار الخلود. وقبل ذلك ساعيه لنيل رضاه تعالى. فرضا الله غاية كل عمل عندها.

لا تنسى ذكر الله فيما أولاها من النعم، ولا تغفل إحسانه فيما ابتلاها من الفتن. فلا تيأس من إجابته وإن أبطأ عنها في سراء، أو ضراء، أو شدة أو رخاء، أو عافية، أو بلاء...

راجية أن يغنيها الله من فضله، وأن ينفرد بحاجتها وأن يتولى كفايتها، وأن لا يوكلها الى أحد من خلقه قريب، أو بعيد...

طالبة العون منه على شهواتها. متحسرة على الذنوب متورعة عن المحارم والشبهات.

هواها فيما عند الله، ورضاها فيما يرد عليها منه على كل حال...

مهتدية بنور الله في الظلمات الفكرية، والإجتماعية والسياسية مستضيئة بمبادئ الله تعالى وأحكامه من كل شك.

أشغل قلبها خوف غم الوعيد، وشوق ثواب الموعود...

تعمل الحسنات شوقاً، وتهرب من السيئات فرقاً وخوفاً، متحفظة من الخطايا، محترسة من الزلل في حال الرضا والغضب.

مؤثرة رضا الله تعالى على رضا كل أحد على درجة واحدة فى الأولياء والأعداء. لا يخرجها الغضب من العدل، ولا يدخلها الرضا فى الجور.

تستقل الخير من أعمالها ولو علت الجبال، وتستكثر الشر منها ولو صغر عن الذرة...

صابرة فى الشدائد، وقرة فى الهزاهر، شاكرة فى النعماء.

دعائها فى الرخاء كدعائها فى الشدة والضراء.

سالمة الصدر من الحسد فلا تحسد الناس على ما أتاهم الله من فضله. ولكنها ترجو أن ينعم الله عليها بأفضل ما أنعم به على الآخرين.

ملتزمة بعهد الله الذي قطعته على نفسها أن لا تشرك به شيئاً، ولا تُخلف له عهداً، ولو در عليها كل أموال الدنيا كلها. لعلمها أن مخالفة العهد خيانة والله لا يحب الخائنين.

صادقة في قولها وفعلها مع الله ورسوله وأوليائه وعامة الناس وخاصتهم، مؤثرة الصدق حتى لو أضر بها، متجنبة الكذب حتى لو خدم مصالحها...

لا يجد الوهن الى نفسها طريقاً عند ملاقاة الشدائد والصعاب في طريق الله... وإنما تمضي بقوة، وجدارة غير أبهة بكل ما أصابها في سبيل الله. بل تحتسبه عند الله، وتطمع بعفوه، ومغفرته، ورضوانه.

إذا رأت طغيان الباطل، وتعاليه، واجتماعه، ووحدته لحرب الحق وأهله لا ينقص ذلك من إيمانها شيء وإنما تزاد إيماناً وجهاداً، ومواصلة فى الكدح الى الله تعالى.

دائمة التفكير في عظمة الله تعالى المتجلية في مخلوقاته من أصغر مخلوق الى أكبر جرم سماوي. وفي حركة التاريخ وجريانه ومتغيراته، وسننه، وما قام به أئمة العدل، وأئمة الضلال، وعاقبة كل منهما.

معرضة عن اللغو وعن كل عمل لا يعود على الإنسانية بفائدة مادية أو معنوية.

مسارعة الى الخيرات لا يسبقها سابق، ولا يمنعها طمع ولا بخل، ولا جبن، ولا يشغلها طلب الدنيا عن الآخرة، بل طلب الدنيا عندها وسيلة للفوز بنعيم الآخرة الدائم.

مبلغة رسالة الله الى الناس، ومجاهدة في سبيله لا تأخذها فى الله لومة لائم، ولا تخشى في هذا المسلك غير الله تبارك وتعالى. تدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة.

تلك بعض مميزات الشخصية القرآنية وكل تلك الخصائص إرتباط بالله تعالى، ولا نشك أن من إرتبط بالله تعالى إرتباطاً واعياً، وصادقاً، ومخلصاً فلن يثنيه شيء، ولن تزلزله شدة مهما بلغت، فإن جوهر الإسلام وروحه هو الإرتباط بالله. وما عداه فى الإسلام فهو متفرع منه وراجع اليه... وما العبادات والأذكار. وجميع الفرائض من واجبات، ومستحبات ومكروهات، ومحرمات والمباحات بكل أحكامها إلا وسيلة لتعبيد الإنسان لله، وتحقيق ملكة التقوى فيه...

ويمكن تقسيم العرض القرآني للإستقامة الى ثلاثة أقسام هي:

أولاً: التأكيد على الإستقامة

ثانياً: بيان عاقبة المستقيمين

ثالثاً: وسائل الإستقامة

أما التأكيد عليها فقد جاء بصيغة الأمر القطعي الذي لا يقبل التردد والتراجع. ومن المعلوم أن الأمر يفيد الوجوب. يقول تعالى: **﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعمَلونَ بَصيرٌ﴾**(هود:١١٢).

﴿فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِم كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِع أَهواءَهُم﴾(الشورى:١٥).

﴿فَمَا استَقَامُوا لَكُم فاستَقِيمُوا لَهُم إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَقِينَ﴾(التوبة:٧).

إذا تأملنا جيداً في هذه الآيات نجد أن الأوامر قطعية ملزمة بوجوب الإستقامة والثبات على إمتثال أوامر الله تعالى، والصمود في وجه العدوان على حرمات الله حتى يرتد منحسراً، كسيراً، مخذولاً، خاسئاً، ذليلاً، وبغير الإستقامة لا يمكن أن يتحقق شيء من أهداف الإسلام العظيم ولذا قال أمير المؤمنين (عليه السّلام):

«من إستقام فإلى الجنة، ومن زل فإلى النار».

وجاء تأكيده على الإستقامة بعبارة أوضح في قوله (عليه السّلام): «العمل العمل، ثم النهاية النهاية، والإستقامة الإستقامة».

وأما القسم الثاني من آيات الإستقامة فقد بينت عاقبة المستقيمين على دينهم الثابتين على عقيدتهم، وزفت لهم البشرى بالإمداد الغيبي، ونصرة عباده المطهرين من الملائكة المقربين الى الله في الدنيا والآخرة. كما بشرهم تعالى بالجنة والنعيم الدائم يقول تعالى:

﴿إِنَّ الَّذينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيهِمُ المَلٰـئِكَةُ أَلاّ تَخافُوا وَلا تَحزَنُوا وَأَبشِرُوا بِالجَنَّةِ الَّتي كُنتُم تُوعَدُونَ۞نَحنُ أولِياؤُكُم فِي الحَيوٰةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُم فيهَا مَا تَشتَهي أَنفُسُكُم وَلَكُم فيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾(فصلت:٣٠-٣١).

إن سعادة المجتمع البشري وإزدهاره بالخير والبركات مقرون باستقامة الأمة على منهاج أمر الله تعالى وعلى الطريقة الصالحة في عبادته، ونيل

تقواه مما يُهطل السماء رحمة وبركة على أهل الأرض.

﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَاءً غَدَقاً﴾ (الجن:١٦).

﴿وَلَو أَنَّهُم أَقَامُوا التَّورَيٰةَ وَالإِنجِيلَ وَما أُنزِلَ إِلَيهِم مِن رَبِّهِم لَأَكَلُوا مِن فَوقِهِم وَمِن تَحتِ أَرجُلِهِم مِنهُم أُمَّةٌ مُقتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنهُم سَاءَ ما يَعمَلُونَ﴾ (المائدة:٦٦).

وأما القسم الثالث من آيات الإستقامة فقد بينت السبل والوسائل المؤدية الى الإستقامة نذكر منها على سبيل الإجمال:

١- الإيمان بالإمداد الغيبي

يستمد المؤمن العون من الله تعالى على تجاوز العقبات في طريقه. لعلمه بأنه بعين الله تعالى لن ينساه، ولن يقليه. وأنه معه أينما حل، وأينما ارتحل... إن الشعور بالمعية الإلهيّة يمنح الإنسان قوة جبارة تتناسب تناسباً طردياً مع درجة إيمانه ففي الساعات الحرجة، والظروف الصعبة نجد الحبيب المصطفى (صلّى الله عليه وآله وسلّم) حيث رأى الحزن والإضطراب بادياً على صاحبه وهما في الغار لا ناصر لهما ولا معين، وكل العالم يطاردهما ليستأصل شوكة الإسلام يقول له: ﴿لا تَحزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا﴾ علام الحزن والإضطراب إذا كانت يد الله هي التي تسددك، وتعينك، وتوجهك، وتكفيك كيد الأعداء؟! وتأكيداً لهذه الحقيقة جاءَت آيات الإستقامة صريحة تبشر المؤمنين بالإمداد الغيبي لهم معنوياً ومادياً. متجسداً بإنزال الملائكة لنصرتهم في جهادهم ضد العدو الكافر، يقول تعالى في وصف هذه الحقيقة:

﴿إِذْ تَستَغِيثُونَ رَبَّكُم فَاستَجابَ لَكُم أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلفٍ مِنَ المَلَٰئِكَةِ مُردِفِينَ*وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاّ بُشرَىٰ وَلِتَطمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُم وَمَا النَّصرُ إِلاّ مِن عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الانفال:١٩).

﴿إِذ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلَٰئِكَةِ أَنّي مَعَكُم فَثَبِّتُوا الَّذينَ ءَامَنُوا سَأُلقِي في قُلوبِ الَّذينَ كَفَرُوا الرُّعبَ فَاضرِبُوا فَوقَ الأَعناقِ وَاضرِبُوا مِنهُم كُلَّ بَنانٍ﴾ (الانفال:١٢).

وقوله تعالى: ﴿إِذ تَقُولُ لِلمُؤمِنِينَ

﴿أَلَن يَكفِيَكُم أَنْ يُمِدَّكُم رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِنَ المَلَـٰئِكَةِ مُنزَلِينَ*بَلَىٰ إِنْ تَصبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأتُوكُم مِن فَورِهِم هَـٰذَا يُمدِدكُم رَبُّكُم بِخَمسَةِ ءَالَـٰفٍ مِنَ المَلَـٰئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾(آل عمران:١٢٤-١٢٥).

إن هذا الإحساس بالإمداد الغيبي يجعل المؤمن قوياً مستقيماً لا يطلب العون من غير بارئه، وهذا هو السلاح الجبار الذي تسلح به رسل الله على طول خط الرسالة، فقد كانوا يستمدون النصر والعون من هذا الإيمان والشعور بالإمداد الغيبي، وخير مثال على ذلك خليل الرحمن (عليه السّلام) حين يُلقى فى النار لم يطلب العون حتى من جبرئيل (عليه السّلام) حين عرضه عليه كما في بعض الروايات، ولم يغير هذا الموقف من شعوره وإحساسه بنصر الله وثقته الكاملة به، ولم يجره الى الخوف، أو التراجع قيد أنمله... وهذا موسىٰ (عليه السّلام) حين قال له أصحابه: إنا لمدركون، يعني من جيش فرعون المطارد لهم وهم متوجهون الى البحر، حيث البحر أمامهم والعدو خلفهم أجاب: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهدِينِ﴾(الشعراء:٦٢).

وهكذا رأينا خاتم الرسل (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في ساعة العسر والشدة حين أقبلت زحوف قريش وأمامها عدد قليل من المؤمنين وعُدد ضَعيفة، يقول إبن مسعود: ما سمعت مُناشِداً ينشد أشد من مُناشَدة محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يوم بدر جعل يقول: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد»[٧].

تلك هي المواجهة الحقيقية بقوة الله لا بقوته. حين تكالبت قوى الكفر والشرك والنفاق وأجمعت على إطفاء شعلة التوحيد وأقبلت من كل مكان صوب المدينة المنورة. وهكذا لا زال هاتفاً متضرعاً بخشوع تتهافت له الجبال الرواسي وترتعد منه السماء حتى يسقط رداؤه[٨] يستمطر النصر ويستمد العون من الله تعالى...

٢- مواصلة ذكر الله تعالى:

إن لكل مبدأ قاعدة ينطلق أتباعه منها، ويرجعون إليها، ويستمدون العون منها... ولما كان الإيمان بالله هو قطب الرحىٰ فى التصور الإسلامي. مبدأ،

وحركة، ومعاداً. بل كل شيء يتعلق بحياة الإنسان، وتقرير مصيره في الدنيا والآخرة، وهذا هو مدلول الشعار الإسلامي: ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رٰجِعُونَ﴾ فقد سمع أمير المؤمنين رجلاً يتلفظ بهذا الشعار، فقال (عليه السّلام): إن قولنا «إنا لله» إقرار على أنفسنا بالملك، وقولنا «وإنا إليه راجعون» إقرار على أنفسنا بالهلك»[٩].

وما دام الإنسان معرضاً للغفلة والنسيان، وكان ذلك من أهم أسباب الزلل والإنحراف عن جادة الحق، لذا يلزم على المؤمن أن يواصل ذكر الله بطاعته، يقول رسول‌الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم):

«من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن».

يقول العلامة الطباطبائي معلقاً على الحديث: «في الحديث إشارة الى أن المعصية لا تتحقق من العبد إلا بالغفلة والنسيان، فإن الإنسان لو ذكر ما حقيقة معصيته وما لها من الأثر لم يقدم على معصية»[١٠].

ومن هنا كانت مواصلة الذكر حصانة ومناعة تجعل المؤمن في يقظة وحذر وانتباه تمنعه من الوقوع في المخالفات الشرعية.

إذن الذكر الدائم عامل مهم بل من أهم العوامل التي تؤدي الى الإستقامة المبدئية، وحينئذٍ يكون الإنسان في شعور دائم بأنه بعين الله، وأن الله معه هو دليله ومعينه. ولهذا جاء البرنامج العبادي في الإسلام رابطاً للإنسان المؤمن بالله عزوجل في كل حالة من حالاته لئلا يتعرض للإنحراف ولذلك نجد في التعاليم الإسلامية ذكراً خاصاً لكل حالة. وما من وضع خاص من أوضاع الإنسان سواء كان حركة أو سكوناً إلا وله ذكر خاص من نوم، أو أكل، أو لقاء، أو مجلس عام، أو خاص، أو حرب أو سلم. ولعل هذا هو مدلول قوله تعالى: ﴿فَإِذا قَضَيتُمُ الصَّلوٰةَ فَاذكُرُوا اللهَ قِيٰماً وَقُعُوداً وَعَلىٰ جُنُوبِكُم﴾ وهو كناية عن الذكر المستوعب لجميع الأحوال[١١].

وقوله تعالى في وصف عبادة الذاكرين: ﴿الَّذينَ يَذكُرونَ اللهَ قِيٰماً

وَقُعوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِم﴾(آل عمران:١٩١) وقد روي عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم)أنه كان يذكر الله في أحواله.

إن استمرارية الذكر تحفظ الإنسان من الزيغ والإنحراف وبذلك تتحقق الإستقامة على خط الإيمان... فالصلاة اليومية، وصلاة الجمعة، والعيدين وغيرها من الصلوات الواجبة والمستحبة محطات أمان من الغفلة والنسيان. ولذا كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، بل اعتبر مواصلة الذكر صلاة وهو أبلغ تعبير عن أهمية الذكر في استقامة حياة الإنسان الإيمانية، فعن الإمام الباقر (عليه السّلام): «لا يزال المؤمن في صلاة ما كان في ذكر الله قائماً كان أو جالساً، أو مضطجعاً إن الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَـٰماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرونَ في خَلْقِ السَّمَـٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا مَا خَلَقْتَ هَـٰذا بَـٰطِلاً سُبحَـٰنَكَ فَقِنَـا عَذابَ النَّارِ﴾(١٢).

وليست الصلاة وحدها ذكراً بل إن الصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلها فرائض تشد الإنسان الى خالقه إذا لاحظنا الشرط الأساسي فيها وهو «نية التقرب الى الله» حيث لا يقبل أي عمل بدونها وحدها بلا ضميمة أُخرى اليها. وباجماع الفقهاء إن الإنسان إذا أدخل معها أي ضميمة أُخرى أو قصداً آخر فقد العمل قيمته الرسالية مهما كان كبيراً. ولو بمستوى بذل النفس، لأن الأصل في الإسلام: أن قيمة العمل تنشأ من الدوافع التي ينطلق منها وليس من المنافع التي يتمخض عنها.

ولم يقتصر الإسلام في مسألة الذكر على الفرائض اليومية المعروفة. بل شمل جميع شؤون الإنسان الأُخرى، ليكون ذكر الله تعالى عنصراً فعالاً في تربيته، وبناء شخصيته وهذا يواكبه من مبدأ تكوينه حين يوضع نطفة في رحم أمه حيث يسمى الواضع باسم الله، ومروراً بيوم ولادته حيث يُؤذن بأُذنه اليمنى ويقام في اليسرى -وانتهاءً برحيله من هذه الدنيا حيث يخاطب «يُلَقن» من باب مخاطبة الروح للروح- بأسس الإسلام العظيم: الله، الرسول، القرآن، الإمام، القبلة، القيامة في آخر محطة يفارق فيها الدنيا ويحل في الآخرة...

الهوامش

(١) النكراء: هي الدهاء والفطنة وهي جودة الرأي، وحسن الفهم. . .

(٢) الكافي ٣:١٦.

(٣) تفسير الميزان ١١:٦٦.

(٤) أصول الكافي ج٢ باب الرضا بالقضاء.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) نهج البلاغة الخطبة:١٧٦.

(٧) السيرة النبوية لإبن كثير ٢:٤١٩.

(٨) المصدر نفسه:٤١١.

(٩) نهج البلاغة الكلمات القصار رقم:٩٩.

(١٠) الميزان في تفسير القرآن ١:٣٢.

(١١) تفسير الميزان ٥:٦٣.

(١٢) بحار الأنوار ٩٣:١٥٨.

* * *

أحكام الوضوء
القسم الثاني

الشيخ محمد هادي آل راضي



البحث السابع

ويرتبط بقوله تعالى ﴿وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، وهذه الفقرة ورد فيها كلمة «ايديكم» وهي جمع يد وهو العضو الخاص؛ وقد تطلق على تمام العضو من المنكب الى الاصابع، وقد تطلق على ابعاض هذا العضو فيقال: ناولت بيدي؛ وانما ناول باصابعه، ويقال: ضرب بيده؛ وانما ضرب بكفه. والظاهر ان استعماله في تمام العضو وفي ابعاضه يكون على نحو الحقيقة، لاننا لا نشعر باي تجوز وعناية عند استعمال الكلمة في الابعاض كاستعمالها في مجموع العضو، وعليه فتعيين المراد منها يحتاج الى قرينة كما في الآية الشريفة، وكذا كلمة«المرافق» وهي جمع مِرفَق بكسر الاول وفتح الثالث او بالعكس، وهو عبارة عن مجمع عظمي العضد والذراع قالوا سمي بذلك لانه يرتفق به او عليه عند الاتكاء. ولا اشكال في استفادة وجوب غسل اليدين الى المرافق من الآية في الجملة وانما الكلام يقع في نقطتين:

الاولى: ان المرفق هل يدخل فيما يجب غسله او انه خارج عنه؟ ذهب المشهور من الفريقين الى الاول حتى ان الشافعي ادعى عدم وجود مخالف فيما يعلم[1]. ولتحقيق هذه المسألة نذكر ثلاثة احتمالات في كلمة «الى» في هذه الفقرة، وعلى ضوئها يتحدد الجواب عن السؤال السابق.

الاوّل: انها بمعنى«مع» قالوا انها استعملت بهذا المعنى في جملة من الآيات الشريفة كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ﴾ وقوله: ﴿وَيَزِدْكُم قُوَّةً إِلىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلا تَأكُلُوا أَمْوٰلَهُمْ إِلىٰ أَمْوٰلِكُمْ﴾، ويؤيده الروايات الدالة على ان النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) كان يغسلهما في الوضوء. وهذا الاحتمال اختاره جملة من الفقهاء والمفسرين خصوصاً العامة. وبناء عليه يكون استفادة وجوب غسل المرافق من الآية واضحاً. وهذا الاحتمال لا يمكن الالتزام به وذلك لان «الى» ليست موضوعة لمعنى«مع» بالاتفاق، وانما هي موضوعة لانتهاء الغاية، واللفظ الموضوع لمعنى لا يحمل على غيره الا بقرينة وهي مفقودة في المقام، والآيات التى استشهد بها المدعي ليس فيها شهادة على مدعاه، لاننا لا ننكر هذا الاستعمال اذا دلت القرينة عليه، وفي هذه الآيات توجد قرينة وهي عدم استقامة المعنى فيها اذا اريد بـ«الى» المعنى الموضوع له كما لا يخفى مع امكان ان يقال ان«الى» في الآية الثالثة ليست بمعنى«مع» اصلاً، لان الاكل فيها يتضمن معنى الضم والاستيلاء وهذا يتعدى الى متعلقه بـ«الى» بمعناها الاصلي لا بمعنى«مع». نعم، اذا اريد من الاكل معناه الحقيقي اي الازدراد، يصح افتراض انها بمعنى مع. واما الروايات التي جعلت مؤيدة فهي لم ترد في مقام تفسير الآية حتى يستدل بها على تعين معنى«الى» في الآية، فان غاية ما تدل عليه هو وجوب غسل المرفق، واما ان ذلك مستفاد من نفس الآية -الذي هو محل البحث- فلا.

الثاني: ان يراد بها معناها الحقيقي اي الغاية فتفيد الآية ان المرافق هي غاية للغسل الواجب او للمغسول على الخلاف الآتي ومن ثم فهل تدخل المرافق فيما يجب غسله في الآية ام لا؟ وهذا النزاع يدخل في بحث مفهوم الغاية حيث ذكروا هناك بحثاً جانبياً وهو ان الغاية هل هي داخلة في المغيّى او خارجة عنه؟ قد يقال بالدخول مطلقاً وبعدمه كذلك، وهناك تفصيل بين ما اذا كانت الغاية من جنس المغيّى فتدخل والا فلا، وهناك تفصيل

بين اداة الغاية، ففي بعضها يلتزم بالدخول وفي بعضها لا يلتزم به. والظاهر انه لا يمكن اعطاء قاعدة كلية في تلك المسئلة وانما الامر يختلف باختلاف الموارد والاستعمالات، فاذا امكن تجميع قرائن على الدخول او عدمه فى الآية فبها والا يحكم بالاجمال في نفس الآية وقد يستعان بالادلة الخاصة لرفعه ان وجدت.

الثالث: انها بمعنى«من» الابتدائية، اي: اغسلوا ايديكم من المرافق فتدخل فيما يجب غسله. ومستند هذا الاحتمال ما رواه الكليني فى الكافي عن الهيثم بن عروة التميمي قال: سألت ابا عبد الله (عليه السّلام) عن قول الله عزوجل **﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِلَى المَرَافِقِ...﴾**، قال: ليس هكذا تنزيلها، انما هي«فاغسلوا وجوهكم وايديكم من المرافق»، ثم امرَّ يده من مرفقه الى اصابعه[٢]. والظاهر ان المراد بالتنزيل فيها ما يساوق التأويل والتفسير كما يقال: نُزّل الحديث على كذا اي حمل وفسر بكذا، ويقال: هذه الآية يمكن تنزيلها على كذا. ويرد على هذا الاحتمال انه مخالف لظاهر «الى» كما تقدم فلا يصار اليه الا بدليل، والرواية وان كانت ناظرة الى تفسير الآية الا انها لا تصلح لذلك لسقوطها سنداً بوجود سهل بن زياد في جميع طرقها.

وعليه فالصحيح هو الاحتمال الثاني.

ثم ان بعضهم حاول الاستدلال على دخول المرفق فيما يجب غسله بان الغاية كما كانت لا تتميز عن المغيّى بامر محسوس وجب غسلها لكي يتحقق العلم بامتثال الواجب اي من باب المقدمة العلمية. وفيه انه على عكس المقصود ادل لانه يعترف ضمناً بخروج الغاية «المرفق»، وانما يجب غسلها احتياطاً لتحصيل العلم بالامتثال، وهذا معناه ان الامتثال يتحقق بدونها وان كان العلم به يتوقف عليها. مضافاً الى انه لا ينفع في محل البحث وهو بيان ما يستفاد من نفس الآية الشريفة.

النقطة الثانية في ان الابتداء بالغسل هل يجب ان يكون من اطراف الاصابع كما ذهب اليه بعض علماء العامة او يجب الابتداء من المرافق كما هو رأي جمهور

علمائنا الامامية او يجوز كل منهما كما ذهب اليه جمهور العامة وبعض فقهاء الامامية؟ وحينما نعرض هذه الاقوال على الآية الشريفة نجد ان فيها احتمالين:

الاوّل: ان يكون الجار والمجرور (الى المرافق) متعلقاً باغسلوا بحيث يكون غاية وقيداً للغسل الواجب، فيكون معنى الآية: ان عملية الغسل الواجب تنتهي بالمرافق وقد يتعين الابتداء من الاصابع وبهذا يثبت القول الاول.

الثاني: ان يكون قيداً للمغسول اي ايديكم فيكون تحديداً للمغسول، فيكون معنى الآية وجوب غسل اليد المحددة بهذين الحدين المرافق والاصابع وعليه لا يتعين الابتداء من الاصابع ولا عكس، لان كيفية الغسل على هذا الاحتمال تكون مهملة في الآية. ومن الواضح ان غسل اليد بهذا التحديد كما يصدق على غسلها مع الابتداء من الاصابع يصدق على العكس ايضاً وبهذا يثبت القول الثالث المتقدم. وهذا الاحتمال له امثلة عرفية كثيرة مثل قول الاب لولده: اغسل رجلك الى الركبة، وقول القائل: اصقل سيفي الى القبضة، فانه لا يفهم منه عرضاً لزوم الابتداء بالغسل من القدمين والانتهاء بالركبة وانما يفهم ان الركبة لتحديد العضو المغسول. وفائدة التحديد في عدم وجوب غسل ما زاد على ذلك اي ما بعد الغاية لا عدم جواز الابتداء بالغسل من الغاية فلاحظ.

ومنه يظهر ان القول الثاني وهو المشهور عند الامامية لا يمكن استفادته من الآية الشريفة لان مفادها لا يعدو هذين الاحتمالين. ولذا لم يستدل احد منهم بالآية وانما استدلوا بالاجماع والروايات الخاصة الدالة على لزوم الابتداء بالمرافق. بل هذا القول لا يمكن الالتزام به بناء على الاحتمال الاول حتى لو دلت عليه الادلة الخاصة للمنافاة الواضحة بينهما فسقطت هذه الادلة عن الاعتبار لمخالفتها للكتاب بخلافه على الاحتمال الثاني كما هو واضح. ومن هنا اتجه الكلام نحو ترجيح الاحتمال الثاني على الاول، وقد استدل عليه بان الاحتمال الاول من الآية يلزم منه الاجمال فيها بخلاف الثاني، وقيل في توضيحه: ان

كلمة اليد مشتركة اشتراكاً لفظياً بين الكل والابعاض وليس هناك قرينة، فاذا بنينا على الاحتمال الاول فستبقى هذه الكلمة على اجمالها من الآية، اذ لا تحديد للمغسول وانما التحديد للغسل كعملية يقوم بها المكلف بخلافه اذا قلنا بالثاني فان الآية بنفسها تحدد العضو الذي يجب غسله وانه عبارة عن المحدود بالمرافق فيرتفع الاجمال فى الآية.

وفيه ان الاجمال مرتفع على كلا التقديرين لان معنى الآية على الاحتمال الاول وجوب الغسل الذي ينتهي بالمرافق وهذا يجرنا تلقائياً الى تحديد العضو المغسول وانه لا يشمل ما زاد على المرافق، واما من جهة الحد الآخر فهو الاصابع واذا ادعي اجماله على هذا الاحتمال فهو مجمل على الاحتمال الآخر ايضاً. وهذا المطلب لا ندعيه من باب ان كلمة «الى» تكون قيداً للغسل والمغسول معاً حتى يقال بانه خلاف الظاهر او غير ممكن -كما اشار اليه العلامة الطباطبائي فى الميزان-، وانما ندعيه لاجل ان البناء على الاحتمال الاول يرفع الاجمال بنفسه كما اوضحناه.

ثم انه قد يستدل فى المقام بان الغالب فى القيود ان تكون قيوداً للموضوع اي لمتعلق المتعلق وهو المغسول لا للمتعلق، وفيه ان ذلك مجرد دعوى لاننا نلاحظ بالوجدان صحة كل منهما فى الآية والغلبة ان سُلّمت فهي لا تصلح لذلك فى الآية.

فالصحيح ان يقال: اننا تارة نتكلم في مقابل اصحاب القول الاول واخرى في مقابل اصحاب القول الثالث. فاذا كان المقصود ابطال القول الاول فيكفي في ابطاله اجمال الآية، لانه مبني على اثبات الاحتمال الاول فى الآية، ونحن اذا عجزنا عن ارجاع القيد للمغسول لعدم الدليل فكذلك لا يمكن اثبات ارجاعه للغسل لعدم الدليل ايضاً فتكون الآية مجملة. وان كان المقصود ابطال القول الثالث فالظاهر عدم امكان ذلك من نفس الآية، نعم، يمكن ابطاله وبالتالي اثبات القول الثاني بالادلة الخارجية وهي متوفرة عندنا ودالة على لزوم الابتداء من المرافق. وهنا يكفي في صحة الالتزام بهذه الادلة

اجمال الآيــة، والذي يمنع من ذلــك -كما اشــرنا اليــه- هو البنــاء على الاحتمــال الاول فى الآية وهو لا دليل عليه كما قلنا. ومن هنا قد تجعل هــذه الادلة دليلاً على عــدم صحــة الاحتمــال الاول للمنــافــاه الواضحة بينهما بحيـث لا يمكن الالتزام بصحــة هذه الادلــة علــى هذا الاحتمــال وبذلك يمكن تشـخيـص الاحتمال الثاني.

وهذا وان لــم يكن تشـخيصــاً للمراد مــن نفس الآية الا انه يكفي في مقام تفسير المراد من الآية الشريفة.

الهوامش

(١) احكام القرآن للشافعي١:٤٣.

(٢) الوسائل ابواب الوضوء ب١٩ح١.

حياة الرسول وشخصيته في القرآن الكريم (٦)

الاحتجاج بالأمور الواهية

الشيخ جعفر سبحاني



قد اطّلعت على الظنون والشبهات التي نسجها القوم على منوال التهم وعرفت إجابة القرآن عنها، فهلمّ معي ندرس استنكارات القوم الباطلة التي جعلوها سدّاً في وجه الاذعان برسالته، وهاتيك الاحتجاجات وإن كانت قد صدرت من أفواه رجال طعنوا في السن ولكنّها أشبه شيء بمنطق الصبيان الذين لايعون ما يقولونه وإليك سردها واحدة واحدة:

١- لماذا لم ينزل القرآن على رجل ثري؟

كان الوليد بن المغيرة رجلاً ثرياً معروفاً في مكّة ومثله عروة بن مسعود الثقفي في الطائف، فكان من حججهم الواهية على النبي أنّه لماذا لم ينزل ما تدّعيه من القرآن عليهما ونزل عليك؟ فهما ثريان وأنت معوز فقير، فبما أنّ الرجلين كانا عظيمي قومهما ومن أصحاب الأموال الطائلة في البلدين فقد دخلت الشبهة عليهم حتّى اعتقدوا أنّ من كان كذلك فهو أولى بالنبوّة. قال سبحانه حاكياً عنهم: ﴿**لَولا نُزِّلَ هـٰذَا القُرءَانُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ القَريَتَينِ عَظيمٍ**﴾(الزخرف:٣١). فهؤلاء وإن كانوا صادقين في أنّ شأن القرآن أن ينزل على من له مكانة مرموقه يمتاز بها عن الآخرين، ولكنّهم أخطأوا في جعل السموّ والعظمة في الثروة والمال، لأنّ نزول الوحي رهن كون المنزّل عليه رجلاً تقيّاً طاهر النفس، صامداً في تحمل أعباء الرسالة الإلهيّة، لا يخاف من مواجهة الملك، ولا يخفى عليك أنّه لا صلة لهذه

الشروط بالغنى والفقر، أو الثروة وخلّو اليد، والقرآن يرد على تلك الفرية بقوله: **﴿أَهُم يَقسِمُونَ رَحمَتَ رَبِّكَ نَحنُ قَسَمنَا بَينَهُم مَعِيشَتَهُم فِي الحَيَوٰةِ الدُّنيَا وَرَفَعنَا بَعضَهُم فَوقَ بَعضٍ دَرَجَٰتٍ لِيَتَّخِذَ بَعضُهُم بَعضاً سِخرِيّاً وَرَحمَتُ رَبِّكَ خَيرٌ مِمَّا يَجمَعُونَ﴾**(الزخرف:٣٢)، والمعنى انّهم لا يملكون النبوّة التي هي رحمة اللّه ولطفه الذي يختصّ به من يشاء من عباده. حتى يمنعوك منها، فيعطوها من شاءوا، فهم عاجزون عن قسمة ما هو دون النبوّة بمراحل وهو معيشتهم في الحياة الدنيا فنحن قسمناها بينهم، فكيف يتدخّلون فيما هو أرفع منزلة بما لا يقاس، ألا وهي النبّوة التي هي من شؤون الباري جلّ وعلا؟

٢- الرسالة الإلهيّة فوق طاقة البشر

كان عرب الجاهلية يزعمون: انّ الرسالة الالهية فوق قدرة البشر وانّما هى من شؤون الملك، وإليه يشير قوله سبحانه: **﴿وَأَسَرُّوا النَّجوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَل هَٰذا إِلاّ بَشَرٌ مِثلُكُم أَفَتَأتُونَ السِّحرَ وَأَنتُم تُبصِرُونَ﴾**(الانبياء:٣).

وقال سبحانه: **﴿وَما مَنَعَ النّاسَ أَن يُؤمِنُوا إِذ جاءَهُمُ الهُدىٰ إِلاّ أَن قالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسولاً﴾**(الاسراء:٩٤).

ويظهر من غير واحد من الآيات انّ تلك الظاهرة الفكرية كانت تدور في أذهان أقوام نوح وثمود وعاد من قبل، حيث اعترضوا على رسلهم بأنّهم بشر مثلهم، قال سبحانه حاكياً عنهم: **﴿قالُوا إِن أَنتُم إِلاّ بَشَرٌ مِثلُنا تُرِيدُونَ أَن تَصُدّونا عَمّا كانَ يَعبُدُ ءَاباؤُنا فَاتونا بِسُلطَٰنٍ مُبينٍ*قالَت لَهُم رُسُلُهُم إِن نَحنُ إِلاّ بَشَرٌ مِثلُكُم وَلَٰكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلىٰ مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ﴾**(ابراهيم:١٠-١١). ويلوح من بعض الآيات انّ بعض اليهود المعاصرين للنبى الأكرم كانوا يتذرّعون بهذه الحجّة الواهية كما يحكي عنهم بقوله: **﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدرِهِ إِذ قالُوا ما أَنزَلَ اللهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِن شَيءٍ﴾**، يقولون ذلك بصلافه ووقاحة في الوقت الذي كانوا يعتقدون بنبوّة موسى وكتابه، وإليه يشير قوله سبحانه: **﴿قُل مَن أَنزَلَ الكِتَٰبَ الَّذى جاءَ بِهِ موسىٰ نوراً وَهُدىً لِلنّاسِ تَجعَلونَهُ قَراطيسَ تُبدونَها وَتُخفونَ كَثيراً﴾**(الأنعام:٩١).

والقوم على جهل بسرّ لزوم كون

الرسول بشراً لا ملكاً، ولو كانوا على إحاطة به ومنصفين في الحكم لما احتجّوا بمثل تلك الحجّة الواهية، إذ يترتب على وجود المماثلة النوعية بين الرسول والمرسل إليه ما لا يترتّب على عدمها وذلك لأمور:

أوّلاً: المسانخة والمماثلة - أساس ترتكز عليه القيادة، فلو عدمت لانتفت الغاية المنشودة، فإنّ القائد إذا كان مشاكلاً للمقود يكون واقفاً على حدود طاقات المرسل إليهم وغرائزهم وطبائعهم وميولهم، فيبادر إلى معالجة ما يعانونه من تخلّف وجهل وانحطاط كما يقوم بتنمية طاقاتهم واستعداداتهم في مجالي المادة والمعنى، إذ يحسّ منهم ما يحسّ من نفسه، فأين طبيعة الملك من فطرة الإنسان، فالملك مخلوق على نمط خاص لا يحيد عنه فلا يتمكن من العصيان، وأمّا البشر فقد خلق مخيّراً بين الطاعة والمخالفة إن شاء امتثل وآمن، وإن شاء ارتدّ وكفر.

وبعبارة ثانية: إنّ الإنسان جبل على غرائز متضادّة سائدة عليه، ففيه الشهوة والغضب وهما من الميول السفليّة في كيان ذاته، كما فيه الميول العلوية التي تجرّه إلى الخير والإحسان والتجافي عن الطبيعة والتوجّه إلى ما وراءها، فالإنسان المثالي هو من يقوم بتعديل تلك الفطريات المتضادة، وأمّا الملك فقد جبل على سلوك الخير والطاعة، فلا يقدر على الخلاف والعصيان، فهل يدرك هذا الموجود المفارق موقف الإنسان الذي خلق هلوعاً؟

وثانياً: إنّ القائد كما يهدي بكلامه ومقاله، يهدي بفعله وعمله، فهو قدوة في مجالي القول والعمل، والدعوة بالفعل أرسخ في القلوب من الدعوة بالقول، وهذا يقتضي وجود السنخية بين الرسول والمرسل إليهم حتّى يكون الرسول في الغرائز الباعثة إلى الشرّ والعصيان، مثل المرسل إليهم في ذلك المجال، وبالتالى يكون سلوكه طريق الخير والصلاح حجّة على المرسل إليهم، ولولا السنخيّة لما تمّت الحجّة وبقي مجال للاعتراض، قال أميرالمؤمنين(عليه السّلام): «إنّما هي نفسي أُروّضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر».(١)

وإلى بعض ما ذكرنا يمكن أن يشير قوله سبحانه: **﴿وَما مَنَعَ النّاسَ أَن يُؤمِنُوا إِذ جاءَهُمُ الهُدىٰ إِلاّ أَن قالُوا**

أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسولاً*قُل لَوكانَ فِي الأَرضِ مَلَـٰئِكَةٌ يَمشونَ مُطمَئِنِّينَ لَنَزَّلنا عَلَيهِم مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسولاً﴾(الاسراء:٩٤-٩٥)، أي لو وجد في الأرض ملائكة يمشون كما يمشي البشر، ويقيمون فيها كما يقيمون ويسهل الاجتماع بهم، وتلقى الشرائع منهم، لنزّلنا عليهم من السماء رسلاً من الملائكة للهداية والإرشاد وتعليم الناس ما يجب عليهم تعلّمه، ولكن طبيعة الملك لا تصلح للاجتماع بالبشر، فلا يسهل عليهم التخاطب والتفاهم معهم، لبعد ما بين الملك وبينهم، ومن ثمّ لم نبعث ملائكة، بل بعثنا خواص البشر، لأنّ اللّه قد وهبهم نفوساً زكيّة، وأيّدهم بأرواح قدسيّه، وجعل لهم ناحية ملكية، بها يستطيعون أن يتلقوا من الملائكة، وناحية بشرية، بها يبلّغون رسالة ربّهم إلى عباده.[٢]

وقد نبّه سبحانه إلى عظيم هذه الحكمة وجليل تلك النعمة بقوله: ﴿**لَقَد مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤمِنينَ إِذ بَعَثَ فيهِم رَسولاً مِن أَنفُسِهِم...**﴾(آل عمران:١٦٤)، وقوله: ﴿**لَقَد جاءَكُم رَسولٌ مِن أَنفُسِكُم عَزيزٌ عَلَيهِ ما عَنِتُّم حَريصٌ عَلَيكُم بِالمُؤمِنينَ رَءُوفٌ رَحيمٌ**﴾(التوبه:١٢٨)، وقوله: ﴿**كَما أَرسَلنا فيكُم رَسولاً مِنكُم يَتلُوا عَلَيكُم ءَايـٰتِنا وَيُزَكّيكُم وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتـٰبَ وَالحِكمَةَ وَيُعَلِّمُكُم ما لَم تَكونُوا تَعلَمونَ**﴾(البقرة:١٥١)، إلى غير ذلك من الآيات التي وقع التنصيص فيها بكون الرسول من جنس البشر.

٣- نبذ سنّة الآباء

التشبث بسيرة الآباء من الامور الجبليّة للبشر، خصوصاً فيمن يعيش في واحات الصحراء بعيداً عن الحضارة وأسبابها، فقد كان العرب متعصّبين على مسلك آبائهم تعصّباً حال بينهم وبين الإيمان بالرسول بحجّة انّه يدعو إلى خلاف سيرة آبائهم، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿**وَإِذا قيلَ لَهُم تَعالَوْا إِلىٰ ما أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسولِ قالُوا حَسبُنا ما وَجَدنا عَلَيهِ ءَاباءَنا أَوَلَو كانَ ءَاباؤُهُم لايَعلَمونَ شَيئاً وَلايَهتَدونَ**﴾ (المائدة:١٠٤)، وقد عرفت الكلام في ذلك عند البحث عن الدوافع الروحيّة التي منعتهم عن الايمان إجمالاً.

وعلى ضوء ذلك كانوا يتعجبون من جعل الآلهة المتعدّدة إلهاً واحداً، فقد كان

للعرب أصنام منصوبة على سطح الكعبة، كاللات والعزّى وهُبل، ويعكفون على عبادتها، فقال لهم النبى: يا معشر العرب! أدعوكم إلى عبادة اللّه، وخلع الأنداد والأصنام، وأدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلاّ اللّه، فقالوا: أنَدع ثلاث مائة وستين إلهاً ونعبد إلهاً واحداً؟ وإليه الإشارة في قوله سبحانه: **﴿وَعَجِبُوا أَن جاءَهُم مُنذِرٌ مِنهُم وَقالَ الكـٰفِرونَ هـٰذا سـٰحِرٌ كَذّابٌ*أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلـٰهاً وٰحِداً إِنَّ هـٰذا لَشَيءٌ عُجابٌ﴾** (ص:٤-٥).[٣]

روى المفسّرون انّ أشراف قريش وهم خمسة وعشرون، منهم: الوليد بن المغيرة وهو أكبرهم، وأبوجهل، وأبيّ، وأُميّة إبنا خلف وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والنضر بن الحارث، أتوا أباطالب، وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فإنّه سفّه أحلامنا وشتم إلهتنا، فدعا أبوطالب رسول اللّه وقال: يابن أخي! هؤلاء قومك يسألونك، فقال: ماذا تسألونني؟ قالوا: دعنا وآلهتنا، ندعك وإلهك، فقال: أتعطوني كلمة تملكون بها العرب والعجم؟ فقال أبوجهل للّه أبوك، نعطيك ذلك عشر أمثالها، فقال: قولوا لا إله إلاّ اللّه، فقاموا وقالوا: اجعل الآلهة إلهاً واحداً، وروي أنّ النبي استعبر ثمّ قال: يا عمّ! واللّه لو وضعت الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا القول حتى أنفذه أو أقتل دونه، فقال له أبوطالب: امض لأمرك فواللّه لا أخذلك أبدا.[٤]

٤- الدعوة إلى الحياة الأخروية

كان عرب الجاهلية خصوصاً المترفين منهم يخافون من سماع أخبار البعث والنشور، وأنّ الإنسان سيبعث بعد موته ويحاسب ويجزى حسب أعماله، وكان هذا أحد الدوافع للإعراض عن الدعوة، وقد جاء فى الذكر الحكيم ما ذكروه في هذا المجال من الحجج الواهية، وسنوافيك به عند البحث عن المعاد في الذكر الحكيم ونكتفي في هذا المقام ببعض الآيات، فقال سبحانه: **﴿أَءِذا ضَلَلنا فِى الأَرضِ أَءِنّا لَفي خَلقٍ جَديدٍ﴾** (السجدة:١٠)، وقال سبحانه: **﴿وَقالُوا أَءِذا كُنّا عِظـٰماً وَرُفـٰتاً أَءِنّا لَمَبعوثونَ خَلقاً جَديداً﴾**(الاسراء:٩٨)، وقال سبحانه: **﴿وَقالَ الَّذينَ كَفَرُوا هَل نَدُلُّكُم عَلىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُم إِذا مُزِّقتُم كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُم لَفي خَلقٍ جَديدٍ﴾**(سبا:٧).

وتعرب الآية الأولى عن انّهم كانوا يظنّون أنّ الموت إفناء للإنسان واعدام وإضمحلال له، فكيف يمكن احياؤه ثانياً؟ والقرآن يجيب عنه بقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّيٰكُم مَلَكُ المَوتِ الَّذي وُكِّلَ بِكُم ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم تُرجَعونَ﴾(السجدة:١١)، إنّ الوفاة في الآية بمعنى الأخذ، وحاصل الجواب: إنّ ملك الموت الذي وكّل بكم يأخذكم فلا تضلون في الأرض ثمّ إلى ربّكم ترجعون.

وبعبارة ثانية: إنّ الإنسان مركّب من جسم وروح فما يبقى في الأرض هو جسمه وليس حقيقته وواقعيته، وأمّا حقيقة الإنسان فهي روحه ونفسه وهي محفوظة عندنا يأخذها ملك الموت فما بقي فهو غير حقيقته، وما هو واقعية الإنسان «الروح»، والنفس فهي محفوظة عندالله غير ضالة في الأرض.

قال العلامة الطباطبائي: «أمر سبحانه رسوله أن يجيب عن حجّتهم المبنيّة على الاستبعاد بأنّ حقيقة الموت ليس بطلاناً لكم وضلالاً منكم في الأرض، بل ملك الموت الموكّل بكم يأخذكم تامّين كاملين من أجسادكم أي ينزع أرواحكم من أبدانكم بمعنى قطع علاقتها من الأبدان، وأرواحكم تمام حقيقتكم، فأنتم أي ما يعني لفظه «كم» محفوظون لا يضل منكم شيء في الأرض، وإنّما تضلّ الأبدان وتتغير من حال إلى حال، وقد كانت في معرض التغيّر من أوّل كينونتها ثمّ إنّكم محفوظون حتّى ترجعوا إلى ربّكم بالبعث ورجوع الأرواح إلى أجسادها».[5]

وتعرب الآية الثانية عن أنّ سبب الانكار هو تخيل قصور القدرة وعدم امكان البعث فكيف يمكن احياء العظام الرميمة؟ فردّ عليه سبحانه بقوله: ﴿أَوَلَم يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرضَ قادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخلُقَ مِثلَهُم﴾ (الاسراء:٩٩). فليس احياء العظام الرميمة أكبر وأعظم من خلق السموات والأرض، فالقادر على خلقهما قادر على احيائهم من جديد.[6]

٥- طلب المشاركة في إمتيازات النبوة

كان المشركون -لأجل قصور معارفهم عن درك مقام النبوّة السامي- يطلبون المشاركة في أمر النبوّة، فكان الوليد بن المغيرة يقول: لو كانت النبوّة

حقّاً لكنت أولى بها منك، لأنّي أكبر سنّاً وأكثر منك مالاً! وقال أبوجهل: زاحمنا بني عبدمناف في الشرف حتى صرنا كفرسي رهان حتى قالوا منّا نبيّ يوحى إليه، واللّه لا نؤمن به ولا نتّبعه أبداً إلاّ أن يأتينا وحي كما يأتيه.(٧)

وإلى هذه الحجّة الواهية يشير قوله سبحانه حاكياً عنهم: ﴿وَإِذا جاءَتهُم ءَايَةٌ قالُوا لَن نُؤمِنَ حَتّىٰ نُؤتىٰ مِثلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾(الأنعام:١٢٤).

إنّ كلامهم هذا ينمّ عن حقد دفين وعناد مستبطن، فردّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿اَللهُ أَعلَمُ حَيثُ يَجعَلُ رِسالَتَهُ﴾(الأنعام:١٢٤)، فهو سبحانه أعلم منهم ومن جميع الخلق بمن يصلح لتنفيذ رسالاته، ويعلم من له الأهلية لتحمل أعباء الرسالة.

٦- المطالبة بمثل ما اُوتي سائرالرّسل

كان المشركون المتواجدون في عصر الرسالة، بلغ مسامعهم بأنّ الكليم موسىٰ بعث بمعاجز مثل العصا اذا رمى بها في مجال التحدّي تنقلب ثعباناً، وبادخال اليد في الجيب إذا أخرجها منه تكون بيضاء للناظرين، فاعترضوا عليه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بأنّه يجب أن تكون حجّة رسالته كحجج الكليم موسى(عليه السّلام) وقد حكى ذلك عنهم سبحانه بقوله: ﴿فَلَمّا جاءَهُمُ الحَقُّ مِن عِندِنا قالُوا لَولا أُوتِيَ مِثلَ ما أُوتِيَ موسىٰ﴾(القصص:٤٨).

وفي آية اخرى: ﴿وَقالُوا لَولا نُزِّلَ عَلَيهِ ءَايَةٌ مِن رَبِّهِ قُل إِنَّ اللهَ قادِرٌ عَلىٰ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلٰكِنَّ أَكثَرَهُم لايَعلَمونَ﴾(الأنعام:٣٧). وربما يحتجّ بهذا الاعتراض من في قلبه مرض من المستشرقين فيجب علينا تناوله بشيء من الدراسة والتحليل لرفع مافيه من الايهام والابهام وذلك من خلال جوابين مستفادين من القرآن الكريم:

١- إنّ هذا الاعتراض كان لمحض اختلاق المعاذير، والشاهد على ذلك انّ هؤلاء المشركين وصفوا ما أوتي الكليم بالسحر أيضاً فقد روى المفسّرون انّ المشركين بعثوا رهطاً إلى رؤوس اليهود في عيد لهم فسألوهم عنه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) فأخبروهم بنعته وصفته في كتابهم التوراة فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: ﴿سِحرانِ تَظٰهَرا﴾ وإليه يشير قوله

سبحانه: ﴿أَوَلَم يَكفُرُوا بِما أُوتِيَ موسىٰ مِن قَبلُ قالُوا سِحرانِ تَظٰهَرا وَقالُوا إِنّا بِكُلٍّ كٰفِرُونَ﴾(القصص:٤٨).

ويظهر من الآيات الواردة بعد هذه الآية انّهم رجعوا إلى أهل الكتاب واستفتوهم في أمره وعرضوا عليهم بعض القرآن النازل عليه فأجابوا عنه بتصديقه والإيمان به، فساء ذلك المشركين واغلظو عليهم بالقول واعرض الكتابيون عنهم وقالوا: سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين. قال سبحانه: ﴿الَّذينَ ءَاتَينٰهُمُ الكِتٰبَ مِن قَبلِهِ هُم بِهِ يُؤمِنونَ... وَإِذا يُتلىٰ عَلَيهِم قالُوا ءَامَنّا بِهِ إِنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّنا إِنّا كُنّا مِن قَبلِهِ مُسلِمينَ... وَإِذا سَمِعُوا اللَّغوَ أَعرَضُوا عَنهُ وَقالُوا لَنا أَعمٰلُنا وَلَكُم أَعمٰلُكُم سَلٰمٌ عَلَيكُمُ لانَبتَغِي الجٰهِلينَ﴾ (القصص:٥٣-٥٥).(٨)

٢- إنّ هؤلاء جاهلون بالحكمة في اختلاف المعاجز والآيات التي تنزل على إنبياء اللّه تعالى ويزعمون أنّه يجب أن تكون معاجز الجميع على حد سواء مع أنّ المصالح تقتضي أن تختلف معاجز الأنبياء ذاتاً وسنخاً حتى تتم الحجّة على المرسل إليهم، وتفصيل القول في ذلك انّه يجب أن تكون معجزة كل نبي مجانسة للفن الرائج في عصره حتى إذا عرضت على مهرة ذلك الفن، وخبرائه، أذعنوا بتفوّقه على قدراتهم وطاقاتهم والذي جاء به مدعي النبوّة فوق حدود العلم والفن الذى تمرّسوا فيه، وهذا يقتضي كون المعجزة مسانخة لما برعوا فيه في ذلك العصر، إذ لو كان مغايراً ومفارقاً لما تمّت الحجة ولما الزموا بها إذ بوسعهم إن يعترضوا ويقولوا لا خبرة لنا بشأن ما أتيت به، فكيف لنا التحدي والمناجزة أو التصديق بأنّ ما جئت به معجزة إلهية تفوق قدرة البشر، فاقتضت المصلحة تسانخ المعاجز للفنون الرائجة في عصر كل نبي.

وقد بلغ فن السحر والشعبذة في عصر الكليم موسى الذروة والقمّة كما اكتسب الطب في عصر المسيح أهميّة بالغة فجاء الكليم موسى بالعصا، واليد البيضاء فأبطل سحرهم وأثبت انّ ما أتى به معجزة تفوق حد السحر وإن كان بينهما مشاكلة في الصورة ولكنّها تباينه بالذات، كما أنّ المسيح بابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى كان قد أثبت أنّ ما أُتى به فوق علمهم وطاقتهم وبراعتهم،

وخارج عن الموازين الطبيعية التي كانوا يعتمدونها في الابراء والمداواة.

فنفس تلك المصلحة تتطلب أن تكون معجزة النبي الأكرم مشابهة لما برع فيه العرب في العصر الجاهلي لأنّه كان قد راج بينهم إنشاء الخطب البليغة الفصيحة ونظم الشعر والتحدّي بينهم في ذلك، فجاء بكتاب متحدياً بصريح نصه: ﴿وَإِن كُنتُم فِى رَيبٍ مِمَّا نَزَّلنا عَلَىٰ عَبدِنا فَأْتُوا بِسورَةٍ مِن مِثلِهِ وَادعُوا شُهَداءَكُم مِن دونِ اللهِ إِن كُنتُم صٰدِقينَ*فَإِنْ لَم تَفعَلُوا وَلَن تَفعَلُوا فَاتَّقُوا النّارَ الَّتي وَقودُهَا النّاسُ وَالحِجارَةُ أُعِدَّت لِلكٰفِرينَ﴾(البقرة:٢٣-٢٤).

وإلى هذا الجواب يشير قوله سبحانه في ذيل الآية التي نبحث عنها: ﴿قُل فَأتُوا بِكِتٰبٍ مِن عِندِ اللهِ هُوَ أَهدىٰ مِنهُما أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُم صٰدِقينَ﴾ (القصص:٤٩).(٩)

ويدلّ على هذه الحقيقة مضافاً إلى ذلك ما روي عن أبي السكيت أنّه قال لأبي الحسن الرضا(عليه السّلام):

«لماذا بعث اللّه موسى بن عمران(عليه السّلام) بالعصا، ويده البيضاء، وآلة السحر؟ وبعث عيسى بآلة الطب؟ وبعث محمّداً (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وعلى جميع الانبياء) بالكلام والخطب؟

فقال أبوالحسن(عليه السّلام): إنّ اللّه لمّا بعث موسى(عليه السّلام) كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عنداللّه بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجة عليهم. وإنّ اللّه بعث عيسى(عليه السّلام) في وقت قد ظهرت فيه الزمانات، واحتاج الناس إلى الطب، فأتاهم من عنداللّه بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيى لهم الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص باذن اللّه، وأثبت به الحجّة عليهم.

وإنّ اللّه بعث محمّداً (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام. وأظنه قال: الشعر، فأتاهم من عنداللّه من مواعظه وحكمه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجّة عليهم».(١٠)

أضف إلى ذلك أنّ نبوّة الرسول الأكرم نبوّة خالدة ورسالته رسالة أبدية فهو خاتم الأنبياء والمرسلين كما أنّ كتابه خاتم الكتب، ورسالته خاتمة الرسالات، فيجب أن تقترن الرسالة

الأبدية بمعجزة خالدة حتى تتم الحجّة علـى مرّ الأجيـال والعصور، ولا يختلـق الجاهل عذراً يبرّر له رفضه لتلك الرسالة بعـد رحيل الصـادع بها، وتبـاعد العهـد وطول الشقّة الزمنية.

كـل ذلك كـان حافـزاً لـدعم دعـوة النبي(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالقرآن الكريم الذي ما أفلت أنواره منذ ان بزغ نجمه في أوّل مرّة.

٧- لماذا لا ينزل عليه ملك؟!

وهذا الإعتـراض يحكيه عنهم قـوله سبحانـه: ﴿**وَقـالـُوا لَولا أُنـزِلَ عَلَيـهِ مَلَكٌ**﴾(الأنعام:٨)، وما كانـوا يقصدون به أنّه لمـاذا لا ينزل الملـك إليه فـانّه كـان يدّعـي نزول الملـك عليه والقـرآن أيضاً يصدّقه في ذلك بقوله: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَميـنُ*عَلـىٰ قَلبِكَ لِتَكُـونَ مِـنَ المُنذِرينَ**﴾(الشعراء:١٩٣-١٩٤).

وقال سبحانه: ﴿**إِنَّهُ لَقَولُ رَسولٍ كَـريـمٍ*ذي قُـوَّةٍ عِنـدَ ذِى العَـرشِ مَكينٍ*مُطاعٍ ثَمَّ أَمينٍ**﴾(التكوير:١٩-٢١) إلى غير ذلك من الآيـات الصريحة في أنّ الوحـي ينزل على النبـي بتوسـط الملك، ومـع هذا التصـريح فمـا معنـى قولـه: ﴿**لَولا أُنزِلَ عَلَيهِ مَلَكٌ**﴾؟

أقول: إنّ الاقتراحات التي تقدّم بها المشركـون في نزول الملك معـه أو إليه كانت على أنحاء:

الأوّل: إنّهم كانوا يطلبون المشاركة في امتيازات مقام النبوّة ويقولون: إنّه لو صـحّ نـزول الملـك علـى النبـي فلمـاذا لا ينـزل علينـا مبـاشـرة علـى جهـة الاستقلال، وقـد ورد في ذلك آيـات نحو قوله تعـالى: ﴿**وَقالَ الَّـذينَ لا يَـرجُونَ لِقاءَنا لَولا أُنزِلَ عَلَينَا المَلـٰئِكَةُ أَو نَرىٰ رَبَّنا**﴾ (الفرقان:٢١)، وقال سبحـانه: ﴿**إِذ جاءَتهُـمُ الرُّسُلُ مِـن بَينِ أَيديهِـم وَمِن خَلفِهِم أَلّا تَعبُـدُوا إِلّا اللهَ قالُوا لَـو شاءَ رَبُّنا لَأَنزَلَ مَلـٰئِكَةً فَإِنّـا بِما أُرسِلتُم بِهِ كـٰفِرونَ**﴾(فصّلت:١٤).

إنّ هذا القسم من الآيـات مبنى على إعتقادهم بأنه لا يصـحّ لأحد من البشر ولـو كان أرقـاهم عقـلا وخلقاً وأدبـاً أن يكون رسـولاً وواسطة بين اللّـه وعباده، لأنّهم يأكلون ويشربـون، وفي ذلك قال سبحانه وتعالـى حاكياً عنهم: ﴿**ما هـٰذا إِلّا بَشَرٌ مِثلُكُم يَـأكُلُ مِمّا تَأكُلـونَ مِنهُ وَيَشـرَبُ مِمّـا تَشـرَبـونَ*وَلَئِـن أَطَعتُـم بَشَـراً مِثلَكُـم إِنَّكُـم إِذاً لَخـٰسِرونَ**﴾(المؤمنون:٣٣-٣٤).

الثاني: كانوا يطلبون أن ينزل مع النبي ملك يصدّقه، وقد ورد هذا المعنى في عدة آيات. قال سبحانه: **﴿وَقالُوا ما لِ هـٰذَا الرَّسولِ يَأكُلُ الطَّعامَ وَيَمشي فِي الأَسواقِ لَولا أُنزِلَ إِلَيهِ مَلَكٌ فَيَكونَ مَعَهُ نَذيراً﴾**(الفرقان:٧)، فالغاية من نزول الملك على النبي كونه نذيراً معه ومصدّقاً له، قال سبحانه: **﴿فَلَولا أُلقِيَ عَلَيهِ أَسوِرَةٌ مِن ذَهَبٍ أَو جاءَ مَعَهُ المَلـٰئِكَةُ مُقتَرِنينَ﴾**(الزخرف:٥٣)، وقال سبحانه: **﴿فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعضَ ما يُوحىٰ إِلَيكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدرُكَ أَن يَقولُوا لَولا أُنزِلَ عَلَيهِ كَنزٌ أَو جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنتَ نَذيرٌ وَاللهُ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ وَكيلٌ﴾**(هود:١٢).

وعلى ذلك يحمل قوله سبحانه: **﴿وَقالُوا لَولا أُنزِلَ عَلَيهِ مَلَكٌ وَلَو أَنزَلنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمرُ ثُمَّ لا يُنظَرونَ﴾**(الأنعام:٨).

ويحتمل أن يكون المراد مشاهدة الملك معه فقط سواء أنذر معه أو لا؟ فيدخل في القسم الثالث الآتي.

ثمّ إنّ انزال الملك مع النبي ليصدّق دعوته وينذر معه يتصوّر على وجهين:

ألف- أن ينزل الملك بصورته الواقعية وسيوافيك في القسم الثالث إنّ نتيجه ذلك هو موت المنذرين، لأنّهم لا يحتملون رؤيته ومشاهدته بحسب طاقتهم البشريّة إلّا بالانسلاخ عن المادية والإنتقال إلى مرحله أعلى منها.

ب- أن ينزل الملك لا بصورته الواقعيّة، بل يتمثّل بصورة إنسان وهذا لا يفيد شيئاً، لانّ باستطاعتهم أن يتهموه بأنه بشر مثل النبي وليس بملك.

وبعبارة أخرى: لو جعله ملكاً في صورة بشر لجزموا ببشريّته لأنّهم لا يدركون منه إلّا صورته الظاهريّة وصفاته البشريّة التي تمثّل بها، وحينئذ لا يصدّقونه ويرجع الأمر كما كان في بادئ ذي بدء، وإليه يشير قوله سبحانه: **﴿وَلَو جَعَلنـٰهُ مَلَكاً لَجَعَلنـٰهُ رَجُلاً وَلَلَبَسنا عَلَيهِم ما يَلبِسونَ﴾**(الأنعام:٩)، أي لكان يلحقهم فيه من اللبس مثل ما لحق، وهذا إحتجاج عليهم بأنّ الذي طلبوه لا يزيدهم بياناً بل يكون الأمر عبثاً ولغواً لا طائل وراءه.(١١)

الثالث: كانوا يطلبون مشاهدة الملك عياناً على أن يكون الاتيان بالملك، احدى معاجزه مثل قوله سبحانه: **﴿أَو تَأتِيَ بِاللهِ وَالمَلـٰئِكَةِ قَبيلاً﴾**(الإسراء:٩٢) قال سبحانه:

﴿لَو ما تَأتِينا بِالمَلـٰئِكَةِ إن كُنتَ مِنَ الصّـٰدِقينَ﴾(الحجر:٧)، وقال سبحـانه: ﴿وَلَو أَنَّنا نَزَّلنا إِلَيهِمُ المَلـٰئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوتىٰ وَحَشَرنا عَلَيهِم كُلَّ شَيءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤمِنُوا إلاّ أَن يَشاءَ اللهُ وَلٰكِنَّ أَكثَرَهُم يَجهَلونَ﴾(الأنعام:١١١).

ويردّ القرآن على هذا الاحتجاج انّه: ﴿وَلَو أَنزَلنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمرُ ثُمَّ لا يُنظَرونَ﴾(الأنعام:٨)، أي يكـون هلاكهـم قطعيّاً على مـا يوضّحـه النص التالـي: إنّ نفوس المتـوغّلين فـي عالـم المادة لا تطيق مشاهدة الملائكة لو نزلوا عليهم واختلطـوا بهم لكون ظرفهـم غير ظـرف الملائكة فلو إرتفـع الناس إلـى المرتبة الـوجودية للملائكة لـم يكن ذلك إلاّ انتقالاً منهم من حضيـض المادة إلى ذروة مـا وراءها وهـو المـوت، كما قـال تعالى: ﴿وَقالَ الَّذينَ لايَرجونَ لِقاءَنا لَولا أُنزِلَ عَلَينَا المَلـٰئِكَةُ أَو نَرىٰ رَبَّنا لَقَدِ استَكبَرُوا فِي أَنفُسِهِم وَعَتَوا عُتُوّاً كَبيراً*يَومَ يَرَونَ المَلـٰئِكَةَ لا بُشرىٰ يَومَئِذٍ لِلمُجرِمينَ وَيَقولونَ حِجراً مَحجوراً﴾(الفرقان:٢١-٢٢).[١٢]

قال ابن عباس: ولو أتـاهم ملك في صورته لأهلكناهم ثم لا يؤخّرون.[١٣]

٨- التفاؤل بغلبة فارس على الروم

نشبـت حـرب داميـة بيـن الـروم والفرس، والنبي والمسلمون بمكّة حوالي سنة سبع من البعثة، فغلبت الفرس الروم وتفاءلـت بذلك قـريش بحجّـة أنّ الفرس وثنيّون والروم أهل كتـاب فقالوا: الروم أهـل كتـاب وقد غلبتهـم الفـرس وأنتـم تزعمـون أنّكم ستغلبـون بالكتـاب الذي أُنزل علـى نبيكم، فسنغلبكـم كما غلبت فـارس آلـروم، فـأنزل اللّـه سبحـانـه: ﴿الٓمٓ*غُلِبَتِ الرّومُ*في أَدنَى الأَرضِ وَهُم مِن بَعدِ غَلَبِهِم سَيَغلِبونَ*في بِضعِ سِنينَ لِلّهِ الأَمرُ مِن قَبلُ وَمِن بَعدُ وَيَومَئِذٍ يَفرَحُ المُؤمِنونَ*بِنَصرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشاءُ وَهُوَ العَزيزُ الرَّحيمُ﴾(الروم:١-٥).

والآية تتضمن خبراً غيبياً بل خبرين حيث يخبـر عن غلبة الروم علـى الفرس أوّلاً فـي بضـع سنيـن، اي فـي مـدة لا تتجـاوز تسع سنيـن، وانّـه في ذلـك اليوم ينـزل النصر على المؤمنيـن أيضاً وقد تحقّق الخبران يـوم ظهر المسلمون على مشركي قريش يوم بدر. قال عطية: وسألت أبا سعيد الخدري عن ذلك، فقال التقينا مع رسول اللّـه ومشركي العرب،

والتقت الروم وفارس، فنصرنا اللّه على مشركي العرب، ونصر أهل الكتاب على المجوس، ففرحنا بنصر اللّه إيّانا على مشركي العرب ونصر أهل الكتاب على المجوس، وذلك قوله: ﴿وَيَومَئِذٍ يَفرَحُ المُؤمِنونَ*بِنَصرِاللهِ﴾.[١٤]

٩- طلب رفع عذاب

لما رأى رسول اللّه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) من النّاس إدباراً فقال: اللّهم سبع كسبع يوسف، فأخذتهم سنة حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام فجاءه أبوسفيان وناس من أهل مكّة فقالوا: يا محمّد! إنّك تزعم أنّك بعثت رحمة وانّ قومك قد هلكوا فادع اللّه لهم، فدعا رسول اللّه فسقوا فأطبقت عليهم سبعاً، فشكى الناس كثرة المطر، فقال: اللّهمّ حوالينا ولا علينا، فانحدرت السحابة عن رأسه فسقى الناس حولهم.[١٥]

وروى السيوطي: إنّ قريشاً لما استعصت على رسول اللّه وأبطأوا عن الإسلام قال: اللّهمّ أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابهم جهد وقحط حتى أكلوا العظام فجعل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجوع فأنزل اللّه: ﴿فَارتَقِبْ يَومَ تَأتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبينٍ*يَغشَى النّاسَ هٰذا عَذابٌ أَليمٌ﴾(الدخان:١٠-١١)، فأتى النبي، فقيل: يا رسول اللّه! استسق اللّه لمضر، فاستسقى لهم فسقوا فأنزل اللّه: ﴿إِنّا كاشِفُوا العَذابِ قَليلاً إِنَّكُم عائِدونَ﴾(الدخان:١٥).

فلمّا أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل اللّه: ﴿يَومَ نَبطِشُ البَطشَةَ الكُبرىٰ إِنّا مُنتَقِمونَ﴾فانتقم اللّه منهم يوم بدر.[١٦]

١٠- كيف يمكن احياء العظام الباليه؟

مشى أبي بن خلف إلى رسول اللّه بعظم بال قد ارفتّ، فقال: يا محمّد! إنّك تزعم أنّ اللّه يبعث هذا بعد ما ارم؟ ثم فتّه بيده ثم نفخه فى الريح، فقال رسول اللّه: نعم، أنا أقول ذلك. يبعثه اللّه وإيّاك بعد ما تكون هكذا ثمّ يدخلك اللّه النار، فأنزل اللّه تعالى فيه: ﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلقَهُ قالَ مَن يُحيِي العِظامَ وَهِيَ رَميمٌ*قُل يُحييهَا الَّذي أَنشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلقٍ عَليمٌ*الَّذي جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الأَخضَرِ ناراً فَإِذا أَنتُم مِنهُ توقِدونَ﴾(يس:٧٨-٨٠).[١٧]

١١-هل المسيح حصب جهنّم؟!

جلس رسول اللّه مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث، حتى جلس معهم في المجلس، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلّم رسول اللّه، فعرض له النضر بن الحارث، فكلّمه رسول اللّه حتى أفحمه، ثم تلى عليه وعليهم: **﴿إنَّكُم وَما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُم لَها وٰرِدُونَ*لَو كانَ هٰؤُلاءِ ءَالِهَةً ما وَرَدوها وَكُلٌّ فيها خٰلِدونَ*لَهُم فيها زَفيرٌ وَهُم فيها لايَسمَعونَ﴾** (الأنبياء:٩٨-١٠٠).

فأقبل عبداللّه بن الزبعرى السهمي حتى جلس، فقال الوليد بن مغيرة لعبداللّه بن الزبعرى: واللّه قد زعم محمّد إنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنّم، فقال عبداللّه بن الزبعرى: أما واللّه لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً: أكلّ ما يعبد من دون اللّه في جهنّم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى بن مريم، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبداللّه بن الزبعرى، ورأوا أنّه قد احتجّ وخاصم، فذكر ذلك لرسول اللّه من قول ابن الزبعرى... فأنزل اللّه تعالى عليه: **﴿إنَّ الَّذينَ سَبَقَت لَهُم مِنَّا الحُسنىٰ أُولٰئِكَ عَنها مُبعَدونَ*لا يَسمَعونَ حَسيسَها وَهُم فيمَا اشتَهَت أَنفُسُهُم خٰلِدونَ﴾**(الأنبياء:١٠١-١٠٢)،أي عيسى بن مريم وعزيراً ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة اللّه، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون اللّه.

فنزل فيما يذكرون أنّهم يعبدون الملائكة وانّها بنات اللّه: **﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحمٰنُ وَلَداً سُبحٰنَهُ بَل عِبادٌ مُكرَمونَ*لا يَسبِقونَهُ بِالقَولِ وَهُم بِأَمرِهِ يَعمَلونَ...﴾**إلى قوله: **﴿وَمَن يَقُل مِنهُم إنّي إلٰهٌ مِن دونِهِ فَذٰلِكَ نَجزيهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجزِى الظّٰلِمينَ﴾** (الأنبياء:٢٦-٢٩).

ونزل فيما ذكر من أمر عيسى بن مريم أنه يعبد من دون اللّه. وعجب الوليد ومن حضر من حجّته وخصومه: **﴿وَلَمّا ضُرِبَ ابنُ مَريَمَ مَثَلاً إذا قَومُكَ مِنهُ يَصِدّونَ*إن هُوَ إلاّ عَبدٌ أَنعَمنا عَلَيهِ وَجَعَلنٰهُ مَثَلاً لِبَني إسراءِيلَ*وَلَو نَشاءُ لَجَعَلنا مِنكُم مَلٰئِكَةً فِى الأَرضِ يَخلُفونَ*وَإنَّهُ لَعِلمٌ لِلسّاعَةِ فَلا**

تَمتَـرُنَّ بِهـا وَاتَّبِعـونِ هـٰذا صِـراطٌ مُستَقيمٌ﴾(الزخرف:٥٧-٦١).

خاتمة الطاف

دعاء النبي على سبعة من قريش

استقبل رسول اللّه البيت فدعا على نفر من قريش سبعة فيهم أبوجهل، وأُميّة بن خلف، وعتبة بن ربيعة وشيبه بن ربيعة، وعتبة بن أبي مُعَيط، قال عبداللّه بن مسعود اقسم باللّه لقد رأيتهم صرعى على برد، قد غيّرتهم الشمس وكان يوماً حاراً.[١٨]

وقد نزلت آيات في حقّهم وحق غيرهم تقدم بعضها وإليك البقية الباقية منها:

١- لمّا أرادت قريش البطش بالنبي أخذوا يتناولونه بالنبز واللمز والهمز وصور الاستهزاء المختلفة، وجعل القرآن ينزل في قريش يخبر عن أعمالهم وعدائهم، فمنهم من سمّي لنا، ومنهم من لم يسمّ، وممّن سمّي لنا من قريش عمّه أبولهب بن عبدالمطلب وامرأته امّ جميل بنت حرب بن اميّة، حمّالة الحطب، وإنّما سمّاها اللّه تعالى حمّالة الحطب، لأنّها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول اللّه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) حيث يمرّ، فأنزل اللّه تعالى فيهما: ﴿تَبَّت يَدا أَبي لَهَبٍ وَتَبَّ*ما أَغنىٰ عَنهُ مالُهُ وَما كَسَبَ*سَيَصلىٰ ناراً ذاتَ لَهَبٍ*وَامرَأَتُهُ حَمّالَةَ الحَطَبِ*في جيدِها حَبلٌ مِن مَسَدٍ﴾.[١٩]

٢- كان اميّة بن خلف إذ رأى رسول اللّه(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، همزه ولمزه، فأنزل اللّه تعالى فيه: ﴿وَيلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ*الّذي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ*يَحسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخلَدَهُ*كَلاّ لَيُنبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ*وَما أَدرٰيكَ مَا الحُطَمَةُ*نارُ اللهِ المُوقَدَةِ*الَّتي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفئِدَةِ*إِنَّها عَلَيهِم مُؤصَدَةٌ*في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾(الهمزه:١-٩).[٢٠]

٣- لقى أبوجهل بن هشام رسول اللّه فقال له: واللّه يا محمّد! لتتركن سب آلهتنا أو لنسبنّ إلهك الذي تعبد، فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذينَ يَدعونَ مِن دونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدواً بِغَيرِ عِلمٍ﴾(الأنعام:١٠٨).[٢١]

لمّا نزل قوله سبحانه: ﴿سَأُصليهِ سَقَرَ*وَما أَدرٰيكَ ما سَقَرُ*لاتُبقي وَلاتَذَرُ*لَوّاحَةٌ لِلبَشَرِ*عَلَيها تِسعَةَ عَشَرَ﴾(المدّثر:٢٦-٣٠)، قال أبوجهل

لقريش: ثكلتكم أُمّهاتكم اتسمعون ابن أبي كبشة يخبركم بأنّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم الشجعان، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنّم، فقال أبوالأسد الجمحي: أنا أكفيكم سبعة عشر، عشرة على ظهري، وسبعة على بطني، فاكفوني أنتم اثنين، فنزل قوله: **﴿وَما جَعَلنا أَصحـٰبَ النّارِ إلاّ مَلـٰئِكَةً وَما جَعَلنا عِدَّتَهُم إلاّ فِتنَةً لِلَّذينَ كَفَرُوا لِيَستَيقِنَ الَّذينَ أُوتُوا الكِتـٰبَ وَيَزدادَ الَّذينَ ءامَنُوا إيمـٰناً﴾**(المدّثر:٣١).[٢٢]

لمّا ذكر اللّه عزّوجلّ شجرة الزقوم ترهيباً بها وقال: **﴿أَذٰلِكَ خَيرٌ نُزُلاً أَم شَجَرَةُ الزَّقّومِ*إنّا جَعَلنـٰها فِتنَةً لِلظّـٰلِمينَ*إنَّها شَجَرَةٌ تَخرُجُ في أَصلِ الجَحيمِ*طَلعُها كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيـٰطِينِ*فَإنَّهُم لآكِلُونَ مِنها فَمالِئُونَ مِنهَا البُطُونَ*ثُمَّ إنَّ لَهُم عَلَيها لَشَوباً مِن حَميمٍ*ثُمَّ إنَّ مَرجِعَهُم لإلَى الجَحيمِ﴾** (الصّافّات:٦٢-٦٨).

قال أبوجهل: يا معشر قريش! هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوّفكم بها محمّد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزبد، واللّه لئن استمكنّا منها لنتزقمنّها تزقّماً. فأنزل اللّه تعالى فيه: **﴿إنَّ شَجَرَتَ الزَّقّومِ*طَعامُ الأَثيمِ*كَالمُهلِ يَغلي فِي البُطُونِ*كَغَليِ الحَميمِ﴾** (الدخان:٤٣-٤٦).

قال ابن هشام: المهل كل شيء اذبته من نحاس أو رصاص أو ما أشبه ذلك، فيما أخبرني أبوعبيدة. قال: كان عبداللّه بن مسعود والياً لعمر بن الخطاب على بيت مال الكوفة وانّه أمر يوماً بفضة فأُذيبت فجعلت تلوّن ألوانا، فقال: هل بالباب من أحد؟ قالوا: نعم. قال: فادخلوهم، فادخلوا، فقال: إنّ أدنى ما أنتم راؤون شبهاً بالمهل كهذا.[٢٣]

٤- ان أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط كانا متصافّيين حسناً ما بينهما، فكان عقبة قد جلس إلى رسول اللّه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وسمع منه، فبلغ ذلك أُبيّاً، فأتى عقبة فقال (له): ألم يبلغني أنّك جالست محمداً وسمعت منه. وجهي من وجهك حرام أن أكلّمك -واستغلظ من اليمين- ان أنت جلست إليه أو سمعت منه، فلتتفل في وجهه. ففعل ذلك عدوّاللّه عقبة بن أبي معيط لعنه اللّه. فأنزل اللّه تعالى فيهما: **﴿وَيَومَ يَعَضُّ الظّـٰلِمُ عَلىٰ**

يَدَيهِ يَقولُ يـٰلَيتَنِي اتَّخَذتُ مَعَ الرَّسولِ سَبيلاً...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِلإنسـٰنِ خَذولاً﴾(الفرقان:٢٧-٢٩).

٥- ابن أخنس بن شريق الذهبي حليف بني زهرة، كان من أشراف القوم وممّن يستمع منه، وكان يصيب من رسول اللّه ويرد عليه، فأنزل اللّه تعالى فيه: **﴿وَلاتُطِعْ كُلَّ حَلاّفٍ مَهينٍ*هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَميمٍ*مَنّاعٍ لِلخَيرِ مُعتَدٍ أَثيمٍ*عُتُلٍّ بَعدَ ذٰلِكَ زَنيمٍ﴾** (القلم:١٠-١٣).

قال ابن هشام: ولم يقل «زنيم» لعيب في نسبه، وإنّ اللّه لا يعيب أحداً بنسب، ولكنّه حقّق بذلك نعته ليعرف، والزنيم العديد «الدعي» للقوم.(٢٤)

٦- إنّ العاص بن وائل كان من أعداء النبي وكان خباب بن الارتّ، صاحب رسول اللّه(صلّى الله عليه وآله وسلّم) قينا بمكّة يعمل السيوف، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفاً عملها له حتى كان عليه مال، فجاءه يتقاضى، فقال له يا خبّاب أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أنّ فى الجنّة ما ابتغى أهلها من ذهب، أو فضّة، أو ثياب، أو خدم؟ قال خبّاب: بلى. قال: فانظرني إلى يوم القيمة يا خبّاب حتى أرجع إلى تلك الدار فاقضيك هنا لك حقّك، فواللّه لا تكون أنت وصاحبك يا خبّاب آثر عند اللّه منّي، ولا أعظم حظّاً في ذلك. فأنزل اللّه تعالى فيه: **﴿أَفَرَأَيتَ الَّذي كَفَرَ بِآيـٰتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً*أَطَّلَعَ الغَيبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمٰنِ عَهداً*كَلاّ سَنَكتُبُ ما يَقولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذابِ مَدّاً*وَنَرِثُهُ ما يَقولُ وَيَأتينا فَرداً﴾** (مريم:٧٧-٨٠).

٧- وقف الوليد بن المغيرة مع رسول اللّه، ورسول اللّه يكلّمه وقد طمع في إسلامه فبينما هو في ذلك إذ مرّ به ابن أُم مكتوم الأعمى، فكلّم الأعمى رسول اللّه وجعل يستقرئه القرآن، فشقّ ذلك منه على رسول اللّه حتى اضجره وذلك انه شغله عمّا كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه، فلمّا أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه، فأنزل اللّه تعالى فيه: **﴿عَبَسَ وَتَوَلّىٰ*أَن جاءَهُ الأَعمىٰ*وَما يُدريكَ لَعَلَّهُ يَزَّكّىٰ*أَويَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكرىٰ*أَمّا مَنِ استَغنىٰ*فَأَنتَ لَهُ تَصَدّىٰ*وَما عَلَيكَ أَلاّ يَزَّكّىٰ*وَأَمّا مَن جاءَكَ يَسعىٰ*وَهُوَ يَخشىٰ*فَأَنتَ عَنهُ تَلَهّىٰ*كَلاّ إِنَّها**

تَذكِرَةٌ*فَمَن شاءَ ذَكَرَهُ﴾(عبس:١-١٢).(٢٥)

وما ذكره ابن هشام وغيره وإن كان ينطبق على ظاهر الآيات ولكنّه لا يتفق مع خلق النبي الذي وصفه -سبحانه- بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظيمٍ﴾.

وفي بعض الروايات ان العباس المتولي، رجل من بني اميّه، كان عند النبي فدخل على النبي ابن ام مكتوم فعبس الرجل وقبض وجهه فنزلت الآيات.

قال العلاّمة الطباطبائي: وليست الآيات ظاهرة الدلالة على أنّ المراد بها هو النبي(صلّى الله عليه وآله وسلّم)، بل خبر محض لم يصرح بالمخبر عنه، بل فيها ما يدل على أنّ المعني بها غيره، لأنّ العبوس ليس من صفات النبي(صلّى الله عليه وآله وسلّم) مع الأعداء فضلاً عن المؤمنين به والموالين له، وعلى كلّ تقدير، فإنّ وصفه بأنّه يميل للأغنياء ويعرض عن الفقراء لايتناسب مع أخلاقه الكريمة كما عن المرتضى (رحمة الله).

وقد أوضحنا الحال في الجزء الخامس من هذه الموسوعة.(٢٦)

٨- كان العاص بن وائل السهمي إذا ذكر رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) قال: دعوه! فإنّما هو رجل أبتر لا عقب له، لو مات لانقطع ذكره واسترحتم منه، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّا أَعطَينـٰكَ الكَوثَرَ﴾ ما هو خير لك من الدنيا وما فيها، والكوثر: العظيم.

إنّ هذه الآية تتضمن خبراً غيبيّاً وهو انّه سيكثر نسل رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وانّ تعيير العدو يرتد إليه، فعلى الرغم من أنّ أهل بيته لاقُوا من الأمة ما لاقُوا من القتل والتشريد والتنكيل، فاننا نجد نسل الرسول قد بلغ من التصوّر ما بلغ. قال الرازي:

«فانظر كَم قتل من أهل البيت، ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بني اميّة في الدنيا أحد يعبأ به، ثم انظر كَم فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا(عليهم السلام) والنفس الزكيه وأمثالهم».(٢٧)

هذا ما يقوله الرازي في القرن السابع أو أواخر القرن السادس، ونحن في أوائل القرن الخامس عشر وقد ملأ العالم نسل البتول، وهذه بلاد المغرب وتونس والجزائر ومصر والشام وتركيا وإيران والعراق زاخرة بالشرفاء من أبناء

الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلّم) فصدق قول اللّـه العلـي العظيـم: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ﴾.

إنّ منصب نقابة الطالبيين في عصر الرضا(عليه السّلام) وبعده إلى عصر الشريف الرضي الذي تصدّر هذا المنصب عام ٣٨٠هـ، لأوضح دليل على كثرة الطالبيين من نسل البتول إلى حد عين لهم نقيب كالإمام الرضا والشريف الرضي. والمسؤولية الملقاة على عاتقه، ضبط مواليدهم ووفياتهم وأنسابهم والقيام بمهام أمورهم وهدايتهم وارشادهم إلى ما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم على حد ما ذكره الماوردي في كتاب الأحكام السلطانية.(٢٨)

الهوامش

(١) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٤٥.

(٢) تفسير المراغي١٥:٩٧.

(٣) مناقب ابن شهر آشوب١:٤٩، بحار الأنوار١٨:١١٥، ولاحظ تاريخ الطبري٢:٦٦.

(٤) مجمع البيان٨:٤٦٥.

(٥) الميزان١٦:٢٥٢.

(٦) قد جمعنا مجموع شبهاتهم الواهية في امكان المعاد وتحقّقه في الجزء المختص بالمعاد، وقد اكتفينا بهذا المقدار هنا طلباً للاختصار.

(٧) مجمع البيان٢:٣٦٢ (ط/صيدا).

(٨) لاحظ التفاسير.

(٩) الضمير راجع إلى التوراة والقرآن.

(١٠) الكافي١:٢٠ «كتاب العقل والجهل».

(١١) مجمع البيان٢:٧٦-٧٧.

(١٢) الميزان٧:١٦.

(١٣) دلائل النبوة٢:٣٣٢ «للبيهقى».

(١٤) مجمع البيان٤:٢٩٥.

(١٥) دلائل النبوة٢:٣٢٦ «للبيهقى».

(١٦) الدرّ المنثور٦:٢٨.

(١٧) السيرة النبويّة -لإبن هشام-١:٣٦١-٣٦٢. وسيوافيك جميع حججهم الواهية حول المعاد فى الجزء المختص به بإذن اللّه ولذلك آثرنا في المقام الاختصار.

(١٨) دلائل النبوة٢:٣٣٥ «للبيهقى».

(١٩) السيرة النبوية -لإبن هشام-١:٣٥٥.

(٢٠) السيرة النبوية -لإبن هشام-١:٣٥٦.

(٢١) السيرة النبوية -لإبن هشام-١:٣٥٧.

(٢٢) لاحظ: مجمع البيان٥:٣٨٨، والميزان٢٠:١٧٠، والمقصود ما أخبرنا عن عدتهم انّها تسعة عشر إلاّ ليكون فتنة

للذين كفروا، وفى الوقت نفسه يكون سبباً لاستيقان أهل الكتاب، لأنّهم يجدونه موافقاً لما جاء في كتابهم كما يكون سبباً لزيادة إيمان المؤمنين بسبب ما يجدون من تصديق أهل الكتاب ذلك.

(٢٣) السيرة النبوية -لإبن هشام-١ :٣٦٢-٣٦٣.

(٢٤) السيرة النبوية -لإبن هشام-١:٣٦٠.

(٢٥) السيرة النبوية -لإبن هشام-١:٣٦٣، واكثرالتفاسيرنقلت هذا المضمون.

(٢٦) مفاهيم القرآن٥:١٣٠، عند البحث عن عصمة النبي.

(٢٧) مفاتيح الغيب٨:٤٩٨، طبع مصر،١٣٠٨.

(٢٨) الأحكام السلطانية:٨٢-٨٦.

العُجب: رؤية قرآنية
القسم الأوّل

الشيخ محمّد مهدي الآصفي

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَزْناً﴾(الكهف:١٠٣-١٠٥).

المدخل الى البحث

من أخطر ما يصنعه الشيطان بالانسان من مكر، هو «العُجب»، وذلك أن الشيطان قد يحرف الانسان من العبادة الى الشرك، وهذا نوع من المكر ظاهر يتمكن الانسان من مكافحته، وقد يحول الشيطان العبادة نفسها الى الشرك، وهذا هو أخطر مكر الشيطان. وقد يقطع الشيطان السبيل على الانسان فيحوله من الاقبال على اللّه الى الاعراض عن اللّه وقد يحول الشيطان الاقبال على اللّه -نفسه- الى الاعراض عن اللّه وهذا أخطر من الأول.

كيف يمكر الشيطان هذا المكر، وما هي الأداة التي يستخدمها فيحول العبادة والاقبال على اللّه الى الشرك والاعراض عن اللّه؟

الجواب على ذلك ينطوي في كلمتي «العُجب» و «الرياء».

فى العجب يحجب الشيطان الانسان عن اللّه بـ«الأنا»، ويجعل الأنا حجاباً بين الانسان وبين اللّه فتتحول العبادة الى ضدها: إعراض وشرك، وفى الرياء يحجب الشيطان الانسان عن اللّه

بالغير، وليس بـــ«الأنا» فيجعل وجهة عمله والغاية من عملـه هو «الغير» وليس اللّه ويستدرج الانسان من الاخلاص لله تعالى وابتغاء مرضاته الى ابتغاء مرضاة الآخـريـن وإعجـابهـم، فيتحـول عمـل الانسان من الطاعة والاقبال على اللّه الى الشرك والاعراض عن اللّه.

إذن مــن أخطر مكـر الشيطان فــي حيـاة الانســان «العُجـب» و «الـريـاء»، ونحن فـي هذه المقالة نحـاول أن نبحث عن «العُجـب» إن شاء اللّه ونتعـرف على أسبابـه وأعراضه وأنـواعه وعلاجـه من خلال القرآن الكريم.

علاقة الإنسان بنفسه

من طرائق الفكر الاســلامي تحديد نوع عــلاقة الانســان بنفسه، وهــو أفق واســع في نفس الانســان، وقد تتعقـد شبكة العلاقة التي تربط الانسان بنفسه أكثـر مـــن تعقيـد شبكـــة العــلاقــات الاجتماعية التي تربط الانسان بالآخرين مــن أفراد أسـرته وزمــلائه وأصدقــائه ومنــافسيه وأعـدائه. ولكـل مـن هاتيـن الشبكتيـن «فـــي النفــس والمجتمـــع» أصولهـا وأحكامها ومنهـاجها التـربوي الــذي يخصهـــا، ولعل اهتمـــام الاســـلام بالشبكة الاولى في علاقة الانسان بنفسه لا تقل عن اهتمــامه بالشبكة الثـانية في علاقة الانسان بالآخرين.

وللناس فى العلاقة بأنفسهم أطوار مختلفة، فقد تكون علاقة الانسان بنفسه قائمة على «السلام مع النفس»-كما قال المسيح بن مريم (عليهما السّلام): ﴿وَالسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(مريم:٣٣)، فهذا طور مــن العلاقة بالنفس قائمة على السلام مع النفس.

وقد تكــون علاقة الانســـان بنفسه قائمة على أســـاس من «الظلم والاعتداء». يقــول تعالــى: ﴿وَمَـا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَٰكِـنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَـهُمْ﴾ (هود:١٠١).

وقد تكــون علاقة الانســـان بنفسه قــائمــة علــى أساس «التفكيـر الــذاتــي بالنفس». يقــول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ...﴾(الروم:٨).

وقد تكون العــلاقة بالنفس قــائمة على أساس «مراقبــة النفس وإخضاعها للمــراقبـة والحســاب». يقــول تعــالــى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا

﴿اهْتَدَيْتُمْ﴾(المائدة:١٠٥).

وقد تكون هذه العلاقة بالعكس قائمة على أساس «نسيان النفس وإهمال مراقبتها». يقول تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة:٤٤).

وقد تكون علاقة الانسان بنفسه قائمة على أساس «الصراع الداخلي بين الخير والشر»: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ..﴾(يوسف:٥٣).

وقد تكون هذه العلاقة قائمة على أساس «إستقرار النفس على الهدى والاستقامة على خط الفطرة». يقول تعالى:﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾(الفجر:٢٧)، ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾(الرعد:٢٨).

وهناك نماذج أخرى كثيرة لعلاقة الانسان بنفسه، قد أولاها القرآن الكريم إهتماماً كبيراً. والذي يقرأ القرآن بإمعان يجد أن علاقة الانسان بنفسه وتنظيم هذه العلاقة وتصحيحها يأخذ من كتاب الله إهتماماً كبيراً ومساحة واسعة.

ولا نريد نحن أن ندخل هذا الافق من البحث في هذا المقال، وإنما نريد فقط أن نشير الى أن من النماذج الخطرة لعلاقة الانسان بنفسه هو «العجب» وهو حالة انشداد الانسان بنفسه وإعجابه الشديد بها وبأعمالها، بحيث يستأثر «الأنا» بكل اهتمامه وإعجابه ويستأثر بكل رؤيته، فلا يرى غير نفسه وغير أعماله.

وعندما يبلغ الانسان هذه الدرجة من الانشداد بالأنا يحجبه «الأنا» عن اللّه تعالى، فيملأ الضئيل الذي يقدمه لله تعالى من عمل وجهد وطاعة كل قلبه وإحساسه، دون أن يرى عظيم رحمة اللّه تعالى وفضله وجميله به.

ولو كان الإنسان ينظر الى الاشياء نظرة سوية ويراها بحجمها الحقيقي لاستهان بجهده وعمله وطاعته لله تعالى، وأكبر فضل اللّه تعالى ورحمته في حقه، واستحى من اللّه تعالى أن يقابل عظيم رحمته وفضله بمثل هذا الجهد الضئيل. ولكن عندما يستأثر الأنا بكل رؤيته واهتمامه وإعجابه لا يرى إلا جهده وفعله، دون أن يرى رحمة اللّه تعالى

وفضله، فيتحول إقباله على اللّه وطاعته لله بهذه الطريقة النفسية الملتوية الى إعراض عن اللّه وشرك أو كفر به تعالى، فإن الكافر هو الذي يحجبه حاجب عن اللّه تعالى حجباً كاملاً. والعجب اذا دخل النفس وتمكن منها يحجب الانسان عن اللّه حجباً كاملاً، وفي ذلك هلاك الانسان وسقوطه التام.

عن الامام الصادق (عليه السّلام): «من دخله العجب هلك».

وأما في الحالات السوية، عندما يقترن عمل الانسان وجهده في طاعة اللّه تعالى بإحساس حقيقي وواضح بعجزه عن شكر اللّه تعالى ومقابلة إحسانه وفضله، فإن عمله عند ذلك على ضآلة حجمه يكون جسراً يوصله الى اللّه تعالى. وقد روي عن أبي الحسن موسى بن جعفر (عليهما السّلام) أنه قال لبعض ولده: «يا بنيّ! عليك بالجد ولا تخرجن نفسك عن حد التقصير في عبادة اللّه عزوجل وطاعته، فإن اللّه لا يعبد حق عبادته».

وعن جابر قال: قال لي أبو جعفر (عليه السّلام): «يا جابر! لا أخرجك اللّه من النقص ولا التقصير».

فالعمل الواحد إذن قد يؤدي بالانسان الى طريق اللّه تعالى ويقرّبه من اللّه، وقد يحجبه ويقطعه عن اللّه تعالى والفارق الرؤية، وهو أمر عظيم يستحق من الانسان كل اهتمام.

فقد لا يختلف عمل عن عمل من حيث الحجم والوزن، ولكن أحدهما يقرب العبد الى اللّه تعالى والآخر يبعده عنه تعالى.

«العجب والإعتداد بالنفس والأنانية»

«العجب» حالة واحدة من ثلاث حالات ناتجة عن انشداد الانسان بمحور الأنا. وهذه الحالات الثلاثة هي «العجب» و «الاعتداد بالنفس» و «الأنانية».

و«العجب» هو أن يستأثر الأنا بإعجاب الانسان ويحجبه عن رؤية فضله تعالى ورحمته به، وفي مقابل «العجب» الشعور بالتقصير والعجز عن أداء شكره ومقابلة فضله ورحمته بالطاعة والعبادة.

والاعتداد بالنفس هـي حالة أخرى من حالات الانشداد للنفس تتلخص في اعتماد النفس وطرح الثقة بها في مقابل التوكل على اللّه ووضع الثقة المطلقة فى اللّه تعالى، وهما حالتان من الاعتماد والثقة في مقام العمل. وفى الحالة الاولى يضع الانسان ثقته في نفسه، ويعتمدها وهي الحالة الانحرافية فى التعامل مع النفس، وفى الحالة الثانية يضع الانسان ثقته فى اللّه تعالى ويعتمده في شؤونه وحياته وأعماله كلها وهي الحالة السوية فى التعامل.

والحالة الثالثة من حالات الانحراف النفسي فى انشداد الانسان بنفسه هي حالة الأنانية، وهي حالة يكون فيها «الأنا» هو المحور الذي يدور حوله كل حركة الانسان ونشاطه، ويستأثر بكل فعالية الانسان وتحركه. وفي مقابل هذه الحالة «الاخلاص لله» الذي يجعل من مرضاة اللّه تعالى محوراً لكل سعي الانسان وحركته ونشاطه.

إذن هناك ثلاث حالات من الانشداد بالذات هي «العجب، الاعتداد بالنفس، الأنانية». وهي حالات إنحرافية في نفس الانسان نابعة من إنشداد الانسان لنفسه وحبه لها وفي مقابلها حالات ثلاثة سوية من الانشداد باللّه تعالى والتعلق به وإيثار مرضاته على كل شيء وهي «الاحساس بالتقصير والعجز من أداء شكر اللّه تعالى والتوكل على اللّه، والاخلاص لله».

أقسام العُجب

قد يعجب الانسان بنفسه وملكاته وخصاله وقد يعجب الانسان بأعماله وقد تكون خصاله وملكاته التي تعجبه خصالاً وملكات صالحة، وقد تكون خصالاً وملكات سيئة. فقد يعجب الانسان بما في نفسه من رأفة ورحمة، وقد يعجب الانسان بما في نفسه من قسوة وغلظة. وقد تكون أعماله التي تعجبه أعمالاً صالحة وحسنات، وقد تكون أعمالاً فاسدة وسيئات، فقد يعجب الظالم بظلمه وإجحافه وتعسفه بالناس، ويحسب أن ذلك من متطلبات الحزم والقوة. وهو أقبح أنواع العجب، ويصف اللّه تعالى في كتابه أصحاب هذه الحالة بالاخسرين أعمالاً.

يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾(الكهف:١٠٤).

مراحل العُجب

للعجب مراحل في نفس الانسان. فقد يعجب الانسان بنفسه وخصاله وأعماله وتمتلئ نفسه زهواً بما عنده من خصال وأعمال فيحجبه هذا الشعور عن رؤية فضل اللّه تعالى عليه ورحمته به. وإنما تحجبه خصاله ومواهبه عن اللّه اذا فصلها عن اللّه تعالى وربطها بنفسه، كأنها أشياء تخصه وهو صاحبها وليس لله تعالى فيها عليه فضل. فيحجبه هذا الشعور عن اللّه تعالى، ويكون الأنا حجاباً للانسان.

أما اذا كان إحساسه بنفسه وخصاله وأعماله في امتداد إحساسه بفضل اللّه تعالى ورحمته، فهذا الاحساس لا يحجبه عن اللّه تعالى، بل يعمق ارتباطه باللّه، ويكرس ذكر اللّه تعالى في نفسه.

والمرحلة الاخرى من العجب أن يتجاوز الانسان مرحلة العجب بالنفس وخصالها وأعمالها الى مرحلة الادلال على اللّه سبحانه، فيتصور الانسان أن له بأعماله دالة على اللّه تعالى وهذه مرحلة «الادلال».

ويأتي بعد هذه المرحلة مرحلة «التوقع» من اللّه، فيتوقع الانسان من اللّه ألا يرد له دعاء مثلاً أو أن لا يصيبه بسوء ومكروه، ولا يقوم هذا التوقع على أساس من حسن الظن باللّه تعالى ورحمته ومنّه على عباده، وإنما يقوم على أساس الاحساس باستحقاق من اللّه تعالى بإزاء عمله وجهده. وهذه المرحلة من العجب أقبح من سابقتها.

ويأتي بعد هذه المرحلة مرحلة «العتاب» و «الاعتراض» المكتوم على اللّه اذا لم تتحقق توقعات الانسان كما يريد، وكما يرى أنه يستحقها من اللّه تعالى، عندئذ يضمر العتاب والاعتراض في نفسه على اللّه تعالى، وهو على حد الكفر باللّه تعالى وهو أقبح من سابقه.

ويأتـي بعد هـذه المرحلـة مرحلـة «المن» على اللّه. فـإن الانسان اذا تمادى في شعوره هذا يستـدرجه الشيطان الى الاحساس بـالمن على اللّه، فيتصـور أنه قد أفاد دين اللّه، ونفـع رسالة اللّه، وأدى خدمة الى اللّه تعالى. وهو من أقبح أنواع العجب، وهو علـى حد الكفر باللّـه تعالى كما ذكرنـا، أو من الكفر باللّه أعـاذنا اللّه تعالى منه.

أسباب العجب

العجـب يتكـون مــن عنصـريـن: الانبهار بـ«الأنا» والغفلة عـن اللّه تعالى وهما مرتبطان ومتـداخلان. فإن الانبهار بـ«الأنا»، اذا فصلـه الانسان عـن اللّـه تعالـى يحجب الانسان ويغفله عـن اللّه، والعكس كذلك صحيـح. فإن الانصراف والغفلة عن ذكر اللّه يعطـى الفرصة للانا ليستأثر بمشاعر صاحبه، ويبهره.

إلا أن جذور حالة العجب تكمن فى «الغفلة» عـن ذكر اللّـه، فإن الانسـان اذا كان ذاكراً لله تعـالى، مستحضراً لعظمته وجلاله ورحمته ونعمائه لا يمكن أن يكبر عنده «الأنـا»، ولا يمكن أن يستأثـر الأنا بإهتمـامه وإعجابـه وذكره، وإنمـا يبرز «الأنا» فـي حياة الانسان بقدر مـا يغيب ذكر اللّه عن قلب الانسان. وعلى ذلك فإن علاج «العجب» أيضاً هـو من نفس سنخ السبب، وهو استعادة ذكـر اللّه وتمكينه من العقل والقلب، وتكريـس «الذكر» من النفس.

وليس الذكر من مقولة القول واللفظ فـي شيء، وإنمـا القـول واللفظ تعبيـر وإبـراز للـذكـر، وحقيقــة الـذكـر هـو استحضار صفات اللّه وأسمائه الحسنى ونعمائه فى النفس.

أعراض العجب

مـن أخطر الامـراض التي تصيـب الانسان «العجب» وخطـورة هذا المرض تنشـأ مـن خطورة الاعـراض والنتـائج المترتبة عليه ونحن نشيـر فيما يلي الى بعض أعراض حالة العجب.

الاستكبار

إن حالـة العجب تكرس «الأنـا» في نفـس الانسـان وتـدفـع الانسـان الـى تضخيم حجـم «الأنا» فـي نفسه، وفـي

نفس الوقت تؤدي الى ضمور ذكر اللّه في قلب الانسان.

وهذا التورم في «الأنا» عندما يقترن بضمور ذكر اللّه في النفس يصبح أساساً لحالة إنحرافية مرضية خطيرة في النفس يبتغي فيها الانسان التمييز والكبر على الآخرين ويتصنع فيها الكبر والتمييز، وهي الحالة التي يسميها القرآن بالاستكبار والتكبر. وقد يكون التكبر على الحق وحتى على آيات اللّه وأحكامه، فيرفض المتكبر أن يخضع للحق، ويرفض أن يقبل بآيات اللّه وأن يخضع لأحكامه وأمره ونهيه. وهذا الرفض واللجاج من أبرز خصائص التكبر.

وحالة التكبر والعناد هي الاساس لأعظم مصائب الانسان وبؤسه وشقائه وهي التي حجبت أعداء اللّه تعالى من أمثال فرعون ونمرود وهامان وأبي سفيان وأبي جهل وعتاة قريش عن رؤية آيات اللّه وعن الخضوع لأحكامه تعالى. ومن قبل منعت إبليس عن السجود لآدم:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّـٰجِدِينَ*قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ*قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّـٰغِرِينَ﴾(الاعراف:١٠-١٣).

وما أضر بالانسان شيء أعظم من «التكبر» وما يهلك الناس ويدفعهم الى جهنم شيء أعظم من «التكبر».

والذي يمعن النظر في كتاب اللّه يرى أن التكبر هو أساس «الاعراض عن الايمان باللّه تعالى» والاعراض عن «لا إله إلا اللّه»:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَـٰهَ إِلاّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾(الصافات:٣٥).

وأساس الاعراض عن دعوة الانبياء:

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ (البقرة:٨٧).

وأساس الكفر باللّه ورسوله:

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَـٰفِرُونَ﴾(الاعراف:٧٦).

وأساس العناد واللجاج والصدّ عن سبيل اللّه:

﴿... لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾(المنافقون:٥).

﴿...وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾(نوح:٧).

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ﴾(الأعراف:٨٨).

والاستكبار يؤدي الى الاستنكاف عن عبادة اللّه تعالى:

﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادِتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾(النساء:١٧٢).

وهؤلاء المتكبرون اذا تمادوا فى الكبر يطبع اللّه على قلوبهم وأبصارهم:

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾(غافر:٣٥).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا﴾(لقمان:٧).

وهؤلاء تغلق عليهم أبواب السماء «أبواب الرحمة»:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَـٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ السَّمَاءِ...﴾(الاعراف:٤٠)، وتتفتح عليهم أبواب جهنم:

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾(الزمر:٧٢).

﴿... أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾(الزمر:٦٠).

الانحراف المركب

والانحراف على شكلين: بسيط ومركب. أما البسيط فهو أن ينحرف الانسان عن صراط اللّه تعالى عالماً بانحرافه، وأمر هذا الانحراف أهون من غيره، فإن فرص الاستقامة تبقى قائمة للانسان عندما يكون انحرافه بسيطاً. أما اذا كان صاحب الانحراف يؤمن بأنه يحسن صنعاً ويسير على الصراط المستقيم فذلك من الانحراف المركب (تركيب من الانحراف والجهل)، وهذا أخطر من الانحراف الاول. فإن الانسان المنحرف يعتقد في هذه الحالة أنه ليس بمنحرف، وهذا التصور يفوت عليه فرص العودة والاستقامة.

و«العجب» من أهمّ مصادر هذه الحالة من الانحراف المركب، فإن الانسان عندما يأخذه العجب بنفسه يرى القبيح الذي يصدر منه حسناً والسيئة التي يرتكبها حسنة، ولا يسمح لأحد أن يراجعه في شيء من ذلك، ولا يسمح لنفسه الشك والتردد في سلامة شيء من مواقفه وأعماله، ويرى لنفسه ما يشبه العصمة، وهذه الحالة كما ذكرنا أخطر حالات الانحراف والى هذه الحالة من الانحراف المركب تشير الآية الكريمة:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً*الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً*أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَزْناً﴾ (الكهف:١٠٣-١٠٥).

عندما يبلغ الانسان هذه الدرجة من الانحراف تحترق عنده الرؤية بشكل كامل، فيتصور قبائح أعماله وسيئاته حسنات، «وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً».

وهذه حالة من حالات عمى العقل والقلب والبصيرة، يفقد فيها الانسان القدرة على التمييز بين الحق والباطل، كما يفقد المصابون بعمى الالوان القدرة على تمييز بعض الالوان، بل «العمى» في حالة العجب أخطر، حيث لا يفقد فيها الانسان الرؤية فقط، وإنما تنعكس فيها الرؤية فيرى القبيح منه حسناً، ويرى الحسن من غيره قبيحاً. وتسبب هذه الحالة من العمى وفقدان القدرة على التمييز إنقلاب المقاييس عند الانسان في حالة «العجب».

فإن الانسان في حالة الرشد والاستواء يجعل من الحق مقياساً لنفسه وأعماله ومواقفه ويطبق نفسه وأخلاقه وسلوكه ومواقفه دائماً على هذا المقياس، فيستقيم ويصحح أعماله ومواقفه كلما تعرض لخطأ أو انحراف.

وكلما يتقدم الانسان في «العجب» أكثر تتعمق في نفسه هذه الحالة من انقلاب المقاييس أكثر من ذي قبل، حتى ينقلب الانسان فيكون هو مقياساً كاملاً للحق، فما يعمله هو الحق وما يتركه هو الباطل وما يريده هو الحق، وما يعارضه

ويرفضه هوالباطل ويكون «الأنا» هو المقياس للحق، وليس «الحق» هو المقياس للانا.

والقرآن يصف هؤلاء بأوصاف عجيبة، تستوقف الانسان، وتدعو الى كثير من التأمل والتفكير.

فهو يقول لهم أولاً: «الذين ضلّ سعيهم فى الحيوٰة الدنيا»، وهذه حالة تخص الحياة الدنيا، فيضيع سعيهم، وضياع السعي بانتفاء الاثر والفائدة المترتبة على السعي، فإن السعي كالحرث يؤتي ثماره طيبة شهية، اذا أراد اللّه تعالى لها الخير وبارك فيه، ويكون مبتوراً عقيماً اذا سلب اللّه تعالى منه الخير والبركة، كذلك «السعي» و«الحركة» اذا سلب اللّه تعالى منه الخير والبركة كان جهداً ضائعاً وسعياً ضالاً.

ويعبر القرآن عنهم ثانياً بـ «الأخسرين أعمالاً»، وهذه أيضاً حالة تخص الدنيا، والخسارة هي أن يفقد الانسان جهده وحياته وحركته دون أن يأتي له ذلك بنتيجة أو ثمرة، وجهد الانسان وحركته وعمره هو «رأس ماله» الذي يتاجر به ويحوله الى «مرضاة اللّه» و «قرب اللّه» و «ثواب الآخرة». وكل جهد وحركة وساعة من عمر الانسان لا يتحول الى هذه النتائج فهو خسارة العمر والجهد، وكان مثل هذا الانسان مثل التاجر الذي ينفق رأس ماله دون أن يعود عليه بأي شيء، وهذه هي الخسارة الكبيرة التي تشير اليها سورة العصر:

﴿وَالْعَصْرِ*إِنَّ الإِنْسَـٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

ولكن القرآن الكريم لا يقتصر هنا في تصوير مأساة الانسان على هذا الحد، وإنما يتجاوز ذلك ويصف مأساة الانسان في هذه الحالة بـ:«الأخسرين أعمالاً» بصيغة أفعل التفضيل. وسبب تكريس حالة الخسارة هذه أن جهد الانسان وسعيه وحركته ليس فقط يضيع، وإنما يتحول الى ضده، فيتحول جهد الانسان الى عذاب اللّه وعقابه وغضبه عوض أن يتحول الى رحمة اللّه وقربه ورضوانه وجنّته. كمن ينفق ماله فى ارتكاب جريمة فيعاقب ويغرم، فإن هذا الانسان ليس فقط يخسر رأس ماله، وإنما ينقلب رأس ماله الى وبال عليه.

ثم يقول القرآن الكريم عنهم ثالثاً:
«فحبطت أعمٰلُهم فلا نُقيم لهم يوم القيٰمة وزناً»، وهذه الحالة تخص يوم القيامة وهي حالة «الحبط» الكامل في الآخرة وحالة «انعدام الوزن»، «فلا نقيم لهم يوم القيٰمة وزناً».

وحالة «الحبط» في مقابل أصل لله«البقاء» و «الثبات» للاعمال في يوم القيامة، والّذي يشير اليه القرآن في كثير من آياته:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ*وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾(الزّلزلة:٧-٨).

﴿وَوُضِعَ الْكِتَٰبُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَٰبِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاّ أَحْصَيٰهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾(الكهف:٤٨).

وبموجب هذه الحالة لا ينعدم شيء من العمل من خير أو شر يصدر عن الانسان يوم القيامة. وهذا أصل كوني من الاصول الكونية التي يشرحها القرآن في تبيان سنن اللّه تعالى.

إلا أن «الكفر»و«الانحراف المركب» النابع من العجب يؤدي الى حبط الاعمال يوم القيامة: «فحبطت أعمٰلُهم»، وأصل «الحبط» في مقابل أصل الثبات.

كما يؤدى الكفر والانحراف المركب الى حالة «إنعدام الوزن» يوم القيامة: «فلا نقيم لهم يوم القيٰمة وزناً». وبالوزن يوم القيامة يستقر الانسان في رحمة اللّه ورضوانه، واذا فقد الانسان الوزن يوم القيامة فلا يستطيع أن يستقر في رحمة اللّه.

أرأيت لو أن الانسان فقدَ «الوزن الفيزياوي» في الدنيا على وجه الارض هل يستطيع أن يستقر فيها أو يبني لنفسه حياة فيها؟ كذلك انعدام الوزن يوم القيامة.

علاج العجب

في حياة الانسان مصدران للابتلاء: «الهوىٰ» و «الأنا»، وكل منهما سبب لسقوط الانسان وهلاكه.

فقد يسقط الانسان على مزلق الاستجابة للهوى فيملك الهوىٰ أمره، ويحكمه في حياته فيجره الى الهلاك

والسقوط. وهو باب واسع من أبواب الفساد والهلاك والسقوط في حياة الانسان، وقد حذر الاسلام منه كثيراً واعتبره من أخطر المزالق التي تواجه الانسان.

وهذه الآية الكريمة تجمع طائفة من أمهات الاهواء في حياة الانسان:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوٰتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَٰطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَٰمِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران:١٤).

والمصدر الآخر للسقوط والهلاك والفساد في حياة الانسان هو «الأنا»، وكما كانت الاستجابة غير المحدودة للهوى سبباً في السقوط والهلاك في حياة الانسان كذلك الاستجابة غير المحدودة للانا يعتبر المصدر الثاني للسقوط في حياة الانسان. فإن الأنا عندما يستعلي ويستكبر ويتحول الى محور يستقطب كل اهتمامات ومشاعر وجهد الانسان يتحول الى صنم يتخذه الانسان إلهاً في حياته من دون اللّه. وهذا باب واسع آخر للسقوط والفساد والهلاك في حياة الانسان.

وقد أعطى الاسلام في منهاجه التربوي اهتماماً لهذا وذاك معاً.

والطريقة الصحيحة في معالجة كل من «الهوى» و «الأنا» ليس في استئصاله أو كبته ومحاربته، وإنما في تعديله وتلطيفه والتحكم فيه.

ومن الوسائل التربوية الصحيحة في تعديل كل من «الهوىٰ» و «الأنا» وضبطهما والتحكم فيهما هي العبادات.

ففي العبادات ما يتخذه الاسلام وسيلة لتعديل الهوى وكفه وضبطه وتحديده كالصوم.

ومن العبادات ما يتخذه الاسلام أداة لتعديل الأنا وتحجيمها كالصلاة فإن الصلاة وسيلة فعالة وقوية لإذلال الأنا وتركيعها بين يدي اللّه تعالى في الاذكار والافعال معاً. فالتكبير والتهليل، والحمد، والتعبيد، والاستعانة باللّه والتوحيد والدعاء في الأذكار يذلل الأنا ويخضعها للّه، ويشعرها بهذا الذل والخضوع بإيحاءات متعدده.

والحج عبادة فريدة في الاسلام يجمع بين هذا وذاك، ففي الحج منهاج تربوي واسع لتدريب الانسان على ضبط

الهوى وتحديده، ويمكن الانسان من أهوائه وشهواته.

ففي محرمات الاحرام منهج عملي لضبط مجموعة من الاهواء القوية والمؤثرة في النفس، كالغريزة الجنسية والنزوع الى جملة من الطيبات والنزوع الى الرفاه والراحة.

وفي محرمات الاحرام ما يضبط الأنا ويحدده ويتحكم فيه، كتحريم لبس المخيط على الحجاج الرجال، واللباس من أبرز سمات شخصية الانسان في انتمائه الطبقي والقومي. وفي الميقات يتجرد الحجاج من كل ملابسهم وأزيائهم الشخصية والقومية ويظهرون بمظهر واحد، دون امتيازات شخصية أو طبقية أو قومية أو فئوية.

ومن محرمات الاحرام «الجدال» وهو من الميول الأنانية العميقة في نفس الانسان بالظهور والاستعلاء على خصمه. والطواف يرمز الى تكريس التوحيد ومحورية «اللّه» تعالى في حياة الانسان في مقابل تكريس محورية الذات. ولوقوف المسلمين جميعاً في عرفات في وقت واحد في واد غير ذي زرع من دون امتيازات وفوارق للبعض على بعض، للتذلل والتضرع بين يدي اللّه تعالى دور كبير في اذلال الأنا وتعبيدها لله تعالى وتحويلها من طور الالوهية والأنانية الى طور العبودية لله تعالى.

والذي يمعن النظر في فريضة الحج يجد أن هذه الفريضة العبادية تتضمن منهاجاً تربوياً دقيقاً وعملياً في ضبط «الهوى» و «الأنا» وتعديلهما وتعبيدهما لله تعالى.

ونحن في هذا الحديث لا نريد أن نبحث عن الهوى وأخطاره وأعراضه وعلاجه في حياة الانسان. فليس في هذا المقال موضع للدخول في هذا البحث، وإنما أشرنا اليه إشارة لنعرف موضع «الأنا» من الاخطار التي تهدد حياة الانسان، وليكتمل عندنا منهج البحث وإطاره.

فإن «الأنا» هو مصدر «العجب» في حياة الانسان. ولا محالة بكون علاج العجب بعلاج الأنا. و«الأنا» كما ذكرنا أحد مصدري الخطر والسقوط والفساد في حياة الانسان.

فلنتأمل إذن في «الأنا» ونترك البحث عن الهوى الى الموضع المناسب إن شاء اللّه.

* * *

دور القرآن فى الأمن الإجتماعي

الشيخ علي كرمي

تعريف الحق



الحق فى اللغة بمعنى الصواب، الصحيح، اللائق، الجميل، الملائم، الثابت، المحكم، والنصيب المعيّن لأي انسان، واستعمال هذا المصطلح القيّم فى المراجع الاسلاميه واسع جداً، بحيث ورد استعماله في مجال القرآن، الاسلام، الدين، الواقعيات والمخلوقات، والخالق ايضاً.

وفى اصطلاح الحقوقيين، يُطلق الحقّ على الشيء الذي يوجد تسلطاً واختياراً للفرد والمجتمع يمكنهم أن يفيدوا منه لمنفعتهم الخاصة، او ان يغضّوا النظر عنه.(١)

الحقوق

الحقوق هي جمع حقّ، وتفسّر فى اصطلاح الحقوقيين بـ:

«مجموعة القوانين والمقررات التي توضع لحفظ نظام المجتمع، وتنظيم روابط الافراد والأمم، وتحسين وضع الناس في ابعاد الحياة المختلفة».

الأصول الأساسية لحقوق الإنسان

لقد شخّص المفكرون والحقوقيون منذ القدم وحتى وقتنا المعاصر، ضوابط وقواعد معينه على أنها مبادئ الحقوق الطبيعية والاجتماعية الانسانية، وأشاروا الى انه -في ايّ نظام حقوقي او ديني- اذا ما رُوعيت هذه الاصول بالشكل

اللائق، فان ذلك النظام او الدين، في مجال حقوق الإنسان، يُعتبر أغنى وأعدل من سواه. وان نظاماً أومدرسة كهذه ستضمن حصة أعلى من العدالة والحرية وحقوق الفرد والمجتمع، وكذلك سيكون لها تماسك وشمول أكثر.

وهذه المبادئ والمرتكزات الاساسية التي عُرفت بأنها أساس وقاعدة لحقوق الفرد والمجتمع يمكن ذكرها بهذه الصورة:

أ- حق الحياة.

ب- حق المساواة.

ج- حق الحرية.

د- حق الأمن.

هـ- حق الدفاع.

حيث نلقي نظرة قصيرة على هذه الاصول، في ضوء تعاليم القرآن المبدعة للانسان، ثم على دورها في ضمان حقوق الانسان.

أ- حق الحياة

من أهم الحقوق الطبيعية والاساسية للانسان، حق الحياة والعيش، وهذا الحق هو منشأ ومنبع الحقوق البشرية الاخرى، لأنه ان لم يتمتع الانسان بحق الحياة ولم تؤمن له حياته، فلن يكون له القدرة على الحركة والتكامل، ولا الشرائط والامكانات للتمتع بسائر حقوقه.

وقد اولى الاسلام أهمية فائقة، ووظّف الانسان صاحب الحق، والمجتمع، والحكومة، لحماية وصيانة هذا الحق الانساني الكبير.

يقول القرآن: **﴿وَلاتَقتُلُوا النَّفسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بِالحَقِّ﴾**(الاسراء:٣٣).

ويقرر حق القصاص لأولياء المقتول، من القاتل: **﴿وَمَن قُتِلَ مَظلُوماً فَقَد جَعَلنا لِوَلِيِّهِ سُلطـٰناً...﴾(الإسراء:٣٣).**

ويعتبر الاعتداء على حياة انسان واحد بمثابة الاعتداء على حياة جميع الناس، كما انه يعتبر احياء نفس وحفظ حياة انسان واحد معادلاً لحفظ حياة الجميع:

﴿مَن قَتَلَ نَفساً بِغَيرِ نَفسٍ أو فَسادٍ فِى الأرضِ فَكَأنَّما قَتَلَ النّاسَ جَميعاً...﴾(المائدة:٣٢).

ويقرر ايضاً الجزاءَ الاخرويَّ الشديد للمعتدين، وهو عقاب أليم، مثل: «دخول جهنم، الخلود فى النار، التعرض

للغضب والنقمة واللعنة الالهية، والعذاب العظيم الإلهي الآخر:

﴿وَمَن يَقتُلْ مُؤمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خـٰلِداً فيها...﴾ (النساء:٩٣).

والقرآن الكريم في اطار ضمان حق الحياة لا ينهى الآخرين عن الاعتداء على حياة الناس فقط، بل لا يجيز للانسان نفسه أيضاً الاعتداء على حياته أو الانتحار. ويُنذر القرآن الناس في هذا المجال، أن: ﴿لاتُلقُوا بِـأيديكُم إلَى التَّهلُكَةِ...﴾ ويقول بصراحة: ﴿لاتَقتُلُوا أَنفُسَكُم إنَّ اللهَ كانَ بِكُم رَحيماً﴾.

المساواة بين الناس

ب - حق المساواة

الانسان، بمقتضى فطرته الانسانية، يعتبر حق المساواة من الحقوق البشرية وينظر الى التمييز والتفرقة على انه ظلم وإجحاف.

ومع هذا، فان التجربة المؤلمة والمرّة للتاريخ البشري مسرح لهذه الحقيقة المحزنة وهي أن دعاة التمييز على امتداد القرون والاعصار، لغرض تفوقهم الكاذب على الأغلبية، قد توسلوا بأدوات ذات ظاهر خادع ومضلّل، ليبرّروا النظرية المنحطة لتقسيم الانسان الى متفوّق ومتخلّف، وفى النتيجة، التفرقة العنصرية والفواصل الطبقية الهائلة، وقد تمثّل ذلك في أرض الهند الخيالية، بالتقسيم المتخلّف للانسان الى طاهرين ونجسين، وفي نظام ملوك ايران الكسروية الى طبقات متعددة: الملوك، علماء الدين، المحاربين، الاغلبية المقيدة، وفى الروم الى مجموعات: الاشراف، الطبقة المتوسطة والعبيد. وفي بلاد الحجاز في صورة النظام القبلي مشفوعاً بتفاخر الانساب والامتيازات الظالمة.

اما فى الغرب فكانت متمثلة بظهور الفاشية، والنازية، والصهيونية، ونتيجة لافتراض الفكرة الاستعمارية القائلة : ان عقل الغربي عقل العلم والفكر والتقنية، وأن باقي العالم متخلف ومحكوم بالتبعية، وكذلك الجماعات الاجرامية التي تؤمن بالتفرقة العنصرية، والتي تتصيّد وتغتال باقي العناصر وخاصة العنصر الأسود والملوّن [٢] كما حصل ذلك فى المعسكر الشرقي حيث رفعت طبقة البرولتياريا التي كانت اداة تسلط وحصر لامكانيات ملايين البشر بيد اقلية

نزّاعة للتحكّم والتفرقة، وفي العالم الثالث ايضـاً، فقد تستّـر فـي كـلّ مكان عـدم المسـاواة والفواصـل الطبقية المخيفـة تحت عناوين وشعـارات واشكال اخرى مختلفة.

تساوي البشر

الاسلام هـو دين الفطـرة، والمنهج المثالـي للحياة، ومفتاح سمـو الانسان، وعقيدة الامّة النموذجية، وضامن حقوقها الفردية والاجتماعية.

من الخصائص المميزة لهـذا الدين الحنيف وكتابه السمـاوي، هي التعاطف ووحـدة الاتجـاه والممـاشـاة للفطـرة الانسانية السليمة وغيرالممسوخة، ولهذا السبب، ومسـارقةً مع متطلّبـات الفطرة واحتياجات الخلقة، فقـد استنكر اشكال الظلـم، وادعـاءات التفوّق، وطـرح مبـدأ تسـاوي البشـر وعـدّه مـن حقـوقهـم الطبيعيـة حيـث سنشيـر الـى اقسـام ومظاهر منه.

١- المساواة في الانسانية

دعاة التفرقة في المجموع يعتبرون عـوامـل مثـل: اللـون، العنصـر، اللغـة واللسـان، الاصـل والطـائفـة، العـامـل الجغرافـي، التشكيلات الحزبية، الـرفاه المادي، المواقع السيـاسية والاجتماعية والمـذهبيـة وغيـرهـا، مـلاكـاً للتفـوّق والتفـرقـه، ويبنـون نظـريـة التفـرقـة المفضوحـة والفواصـل الطبقية المقيتـة على هـذا الأساس المتـآكل فـي حين ان هذه الفـروقات الظـاهريـه لا تصح أبـداً دليلاً على التفاوت في الناس والانسانية، كـي نعتبـرهـا ملاكـاً لعـدم المسـاواة، وتبريراً لظلـم التفرقة العنصريـة الفادح وتقسيـم المجتمع الـى قطبين: مستغِـلّ ومستغَلّ.

ويعتبـر القــرآن هـذا الاختــلاف الظاهري في اللون والعنصر، دليلاً على ارادة خالـق الوجـود وقدرتـه، حيث ان جميع هذه الاشكال والصور المتنوعة من الخلق من مظـاهر قدرته مـن جهة، ومن جهة اخرى فهي وسيلة لتميز الناس عن بعضهم، وليسـت ملاكاً لتبـرير نظـرية التفرقـة العنصريـة ونتائجهـا الدمـوية والظالمة:

﴿وَمِـنْ ءَايـٰتِهِ خَلْـقُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرضِ وَاختِلـٰفُ أَلسِنَتِكُـم وَأَلوٰنِكُم﴾(الروم:٢٢).

ويقول كذلك: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾(الحجرات:١٣).

وقد أعلن الرسول الاكرم مراراً هذه الحقيقة في خطبة حجة الوداع الخالدة قائلاً: «ايّها الناس! ان ربّكم واحد، وان اباكم واحد، وكلّكم لآدم وآدم من تراب، ان اكرمكم عندالله أتقيٰكم؛ وليس لعربي على عجمي فضل الاّ بالتقوى».

نماذج عملية

لقد ضمن القرآن في ضوء هذه التعليمات حق المساواة باعتباره واحداً من مرتكزات الحقوق الاجتماعية، وأثبت أنه يمكن بحقّ، اجتثاث البلاء الكبير للتفرقة العنصرية بصورة مدهشة، وابدالها بالاخوة والمساواة، ومثال ذلك:

١- لم يكتف الاسلام في هذا المضمار بالخطاب والطرح النظري المقبول، بل كان عمله حكيماً ومحسوباً حيث أوجد للمساواة بين البشر في مجتمعه النموذجي واقعاً ملموساً.

ولم يك عبثاً أن المرسل بالقرآن قد شكّل في المراحل الاولى لدعوته مجتمعاً جديداً اعضاؤه وافراده من العناصر والالوان والمواقع الاجتماعية والمناطق الجغرافية المختلفة ومن جنسيات متباينه.

بلال من القارة السوداء، سلمان من بلاد الاكاسرة (ايران)، خبّاب من مصر الفراعنه، صهيب من دولة القياصرة، عمار وياسر والمقداد وزيد من المسحوقين، علي(عليه السّلام) وحمزة من عالم العرب، وفاطمة وخديجة و... بالنيابة عن النساء... هؤلاء كانوا الاعضاء والافراد المميزين البارزين لهذا المجتمع العالمي الجديد، والذين شقّوا طريقاً جديداً في مجتمعهم الجديد، بتبني المساواة الانسانية وبالزهد في اي امتياز وسلطة وبالاخوّة والمحبة.

٢- هذا القرآن والمرسل به هما اللذان نجحا في ميدان العمل في جمع الاسود والابيض، العرب والعجم، العبد والحرّ، الشرقي والغربي، القرشي والحبشي، صاحب العشيرة والحسب والامكانات وفاقدها، تحت سقف واحد، جَنباً الى جَنب، واوجد من هذه العناصر والقبائل والامم المتباعدة والنزّاعة للتفرقة، أمةً ذات اتجاه واحد وشعار

واحد تتمثل فيها مظاهر المساواة والاخوّة:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(الحجرات: ١٠).

٣- لقد وضع القرآن مجتمعه النموذجي المثالي في معرض انظار الجميع منزّهاً من التفرقات العنصرية والفواصل الطبقية وذلك بابتكاره اصل التآخي في الله وبالاقامة المخلصة للعبادات الجماعية والفردية وبتأسيس المؤتمر العظيم للحج حيث يشارك الملايين من عناصر وجنسيات واماكن مختلفة بلباس وهدف وحقوق متساوية وقول وشعار واحد:

﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾(الحجّ:٢٥).

٤- وفي ضوء تعاليم القرآن النيّرة أمكن للنبي(صلّى الله عليه واله وسلّم) ان يزوّج الابنة البيضاء الحسناء لا شرف رجال قبيلة (بني بياضه) وأكثرهم وجاهة من شاب أسود معدم لا أصل له ولا عشيرة كـ «جويبر» الذي ازدان وجوده بالقيم المعنوية [٣]، وأن يدعوا ابنة عمته زينب التي كانت من أشرف العرب أصلاً الى الزواج من عبد محرر كان له حظٌ من المعرفة والتقوى.

٥- كانت تعاليم القرآن هي التي اختارت في ميدان العمل العبد الافريقي الاسود (بلال) في ضوء التحلّي بالقيم الانسانية والتغاضي عن لونه وفقره، اختارته لاعلان أسمىٰ شعار ديني في اوقات الصلواة وهي التي زيّنت زيداً، الغلام المعتق بالكفاية والامانة، وانتخبته لقيادة جيش عظيم في حرب (مؤته) مع حضور وجوه المهاجرين والانصار الأكبر عمراً والأرفع أصلاً.

ونصبت اسامة بن زيد، ابن العبد المعتق الذي كان يطوي ببركة القرآن مراحل الايمان والعمل لقيادة جيش التوحيد، واستدلّت بتقواه ولياقته للرد على اعتراضات بعضهم، واختارت بعد فتح مكة شاباً ذا كفاية وأمانة لحكم المدينة، ودافعت عنه امام الكلمات اللائمة للبعض، وضمن انكارها القيم الجاهلية الخاوية فقد اشارت الى لياقته وايمانه، وهي التي منحت العظمة عمّاراً الذي كان من المحرومين وجعلته مسؤولاً عن ادارة الكوفة، وعدّت سلمان الذي كان من اصل غير عربي، من اهل

بيت النبي(صلّى اللّه عليه واله وسلّم) وأرسلته لحكم منطقة المدائن[4]، وبهذه الطريقة طوت أغلال الأسر والتفرقة والظلم.

٢-المساواة في الحقوق

المساواة في الحقوق تنبع من التساوي في الانسانية.

والاسلام كما ينظر الى الناس على انهم متساوون في الانسانية، فهو يرفض في مجال الحقوق الاساسية اي نظرية او ادّعاء للتفوق والاستعلاء على الآخرين، ويحرص على ضمان المساواة في الحقوق.

وكأمثلة على مظاهر المساواة في الحقوق:

١- من وجهة نظر تعاليم الوحي فان جميع الناس متساوون ومتماثلون في الحقوق الطبيعية والاجتماعية كحق الحياة، حق ابداء الرأي، حق الحرية، حق الأمن، والدفاع، وهذه الحقوق غير مختصه بطبقة او مجموعة:

«الناس يولدون ويظلّون احراراً متساوين في الحقوق».[5]

٢- ومظهر آخر لمسألة تساوى الحقوق هي ان الحقوق دوماً وفي كل مكان متبادله ومتقابله وليست ظالمة ومن طرف واحد:

«يا ايها الناس! إن لي عليكم حقاً ولكم عليّ حقاً».[6]

٣- ومظهر آخر للتساوي في الحقوق هو تساوي الأجر على العمل والوظيفة الواحدة.

في المجتمعات المستبدة يُنظر فقط الى موقعية وامكانات العامل، بدلاً من النظر الى العمل، ويعيّن الأجر والعقاب على اساس شخصية العامل الظاهرية وليس على اساس العمل، والأكثر ظلماً من ذلك أن جميع أعمال الآخرين الجيدة ونقاطهم المضيئة تضاف بحذاقه الى حساب أصحاب القدرة، وفي المقابل فالنقاط السلبية والسوداء لأعمال الظالمين تسجل في حساب المظلومين!!

لكن تعاليم القرآن تعطي الاجر المساوي للعمل الواحد المتساوي، وهذا مظهر آخر لتساوي الحقوق:

﴿إِنَّا لانُضيعُ أَجرَ مَن أَحسَنَ عَمَلاً﴾(الكهف: ٣٠).

يقول اميرالمؤمنين(عليه السّلام) في ضمان هذا الحق:

«ثم اعرف لكلّ امرئٍ منهم ما أبلى

ولا تضمّن بلاء امرءٍ الى غيره، ولا تقصرن به دون غاية بلائه، ولا يدعونك شرف امرءٍ الى ان تعظم من بلائه ما كان صغيراً، ولا ضعة امرءٍ الى ان تستصغر من بلائه ما كان عظيماً».(٧)

٤- المظهر الآخر للتساوي في الحقوق هو تساوي الناس في الاستفادة من الاموال والامكانات العامة.

ويعتبر الاسلام ان ناتج عمل اي شخص هو حقّ له، ولا يعطي الإذن لأن يتسرب الى جيوب الآخرين بأي عذر، لأنه: ﴿لَيسَ لِلإنسـٰنِ إلاّ ما سَعىٰ﴾، ولضمان عدم انقسام المجتمع الى قطبين: غني وفقير، وظهور الفواصل الطبقية المخيفة وآثارها المدمّرة، فانه يعتبر الجميع متساوين في امكان الافادة من الامكانات العامّة.

يقول اميرالمؤمنين(عليه السّلام): «ألا وان حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذاالفيء سواء».(٨)

ويقول: «فان للاقصى مثل الذي للأدنى».(٩)

ويقول: «لوكان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وانما المال مال اللّه».(١٠)

نماذج عملية

١- جاء شخصان، احدهما عربي والآخر اعجمي الى أميرالمؤمنين (عليه السّلام) وطلبا حقهما من الاموال العامة، فأمر علي(عليه السّلام) باعطائهما حقهما بشكل متساو، مما أثار اعتراض العربي؛ فقال الامام(عليه السّلام): «اني لا ارى في هذا الفيء فضيلة لبني اسماعيل على غيرهم».

٢- في حرب بدر كان من جملة الاسرى «ابوالعاص» صهر النبي(صلّى الله عليه واله وسلّم)، وحين قرر مفاداة الأسرى واطلاق سراحهم ارسلت زوجته عقدها الذي كان تذكاراً من خديجة كفدية، وقد تأثّر النبي(صلّى الله عليه واله وسلّم) عند رؤيته العقد، فقال بعض الصحابة: يا رسول اللّه! آمر فليطلق سراحه بدون فدية، فردّ(صلّى الله عليه واله وسلّم): «ان هذه الفدية هي حقّكم واختيار التصرف فيها بايديكم جميعاً».(١١)

٣- المساواة في الواجبات

المساواة في الواجبات تنشأ أيضاً من المساواة في الانسانية، فكما يتساوى الناس في انسانيتهم، يتساوون

ايضاً فى الجانب التكليفي وفى العناوين المتعـددة: المبـاحـات، الـواجبـات، المكروهـات، المستحبات، والمحـرمات، واتّبـاع القيم والمثـل الحسنـة من شـأن الجميع، كما ان محـاربة ما ينافـي القيم من شـأن الجميع أيضـاً، والكلُّ فـي اداء الواجبات، سواسية فى الشرائط.

وعلى سبيـل المثال، فـالقرآن حيـن يـدعو الانسـان الى التـوحيـد والحركـة التوحيـدية والعبادة والـدعاء الخـالص، والى الصـدق فى القول والاستقامـة فى العمل، وعزّة النفس والسخاء، لعلوّ الهمة والاستقامة، للعدالـة والقسط والانصاف وغير ذلك، فهو فى الحقيقة يرسم تكاليف الجميـع، كمـا يفعـل عندمـا ينهـى عـن المنافيـات واضداد القيـم حين يخـاطب جميع خلق اللّه، وهذا تبيان للمساواة فى الواجبات.

٣- المساواة فى التقاضي واجراء القوانين

تعتبر تعاليم القرآن جميعَ البشر من زاويـة التقـاضـي واجـراء القـوانيـن متساوين وعلى حدٍ سواء. وشخّصت هذا الحق كـواحد من المسلّمات للجميـع فى اعتبارهـم متساوين أمام جهـاز القضـاء والحكم وفى الافادة منه لحماية حقوقهم وحريّاتهم.

يقول القـرآن الكريـم في بيـان هذه الحقيقة: **﴿وَأَنَّ النَّفسَ بِـالنَّفسِ وَالعَيـنَ بِالعَينِ وَالَانفَ بِـالَانفِ وَالُاذُنَ بِالُاذُنِ وَالسِّنَّ بِـالسِّنِّ وَالجُـروحَ قِصاصٌ... وَمَن لَم يَحكُمْ بِما أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلـٰئِكَ هُمُ الظّـٰلِمونَ﴾**(المائدة:٤٥).

ويقول نبي الاسلام(صلّى اللّه عليه واله وسلّم): «النـاس كلّهـم سـواء كـأسنـان المشط».[١٢]

في مجال العمل

النماذج العمليـة لتأميـن هذا الحـق الانساني كثيرة جداً:

١- حضـر اسـامة بـن زيـد، احـد اصحاب النبي(صلّى اللّه عليه واله وسلّم) على اثر ضغـط واصرار رؤسـاء قبيلة «بنـي مخزوم» ليشفع عند النبي(صلّى اللّه عليه واله وسلّم) في امرأة من اشرافهم سرقت، وبرر شفاعته بحبّـه الخير، ولتخوّفه مـن قطع حماية رؤساء القبيلة للاسلام ودعمهم له اذا مـا نفّـذ الحـدّ فـى المـرأة، فغضـب النبي(صلّى اللّه عليه واله وسلّم) وقال: لا تشفع

في حدّ يا اسامة ابدا، واوضح ان الفرد العادي او صاحب النفوذ، كلاهما متساويان امام القانون. ثم قال بأن الامم السابقة قد هلكت لأنهم كانوا اذا ما سرق الغنّي تركوه واذا ما سرق الضعيف عزّروه واقاموا عليه الحدّ. ثم اقسم بأنه: لو سرقت فاطمة(عليها السلام) قطعت يدها.(١٣)

٢- قضى أميرالمؤمنين(عليه السّلام) بين رجلين احدهما عربي والآخر اعجمي، وحكم بينهما بالعدل مما أثار حفيظة العربي واحتج على الحكم مذكّراً بامتيازات العرب على العجم في عصر الخلفاء، فقبض علي(عليه السّلام) قبضتين من تراب ونظر فيهما مليّاً ثم قال: مهما نظرت في هاتين القبضتين فإني لا ارى اي تفاوت بينهما. كلّكم أمام الحق سواء ويجب ضمان الحق للجميع.

٣- كان احد اصحابه رئيساً لاحدى القبائل، وأثر وسوسة الشيطان فقد تعاطى الشراب وبان عليه السكر فأمر(عليه السّلام) باقامة الحدّ عليه، وحينذاك قال له البعض: لماذا تحوّل اصحابك الى صفّ اعدائك بعملك هذا؟ اجاب(عليه السّلام): «هل هذا الاّ رجل من المسلمين انتهك حرمة ما حرم اللّه فاقمنا عليه حدّاً كان كفاّرته».(١٤)

المساواة في الحقوق أمام القضاء

المظهر الآخر للمساواة في الاسلام هو في التقاضي وقانون المحاكمات ومعاملة الجميع بالمثل من قِبَل جهاز القضاء وذلك قبل ثبوت الجرم.

ويمضي القرآن قدماً حيث يقول ﴿وَلا يَجرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَومٍ عَلىٰ أَلّا تَعدِلُوا اعدِلُوا هُوَ أَقرَبُ لِلتَّقوىٰ﴾(المائدة:٨).

وفي ضوء هذه الآيات، يقول اميرالمؤمنين(عليه السّلام):

«وآس بين المسلمين بوجهك ومنطقك ومجلسك حتى لا يطمع قريبك في حيفك ولاييأس عدوّك من عدلك».(١٥)

ونبّه(عليه السّلام) في رسالة له الى ان الإمّة التي لا يُنتزع فيها حقّ الضعيف من القوي بلا خوف وخشية، ليست امّة مقدسة ولن تصل الى السعادة.

في مجال العمل

١- نُقل عن اميرالمؤمنين(عليه السّلام) انه وجد درعه عند نصراني من عامة

الناس. فأقبل به الى احد القضاة واسمه شريح ليخاصمه ويقاضيه. ولمّا كان الرجلان امام القاضي قال عليّ: انها درعي ولم أبع ولم أهَب. فسأل القاضي الرجل النصراني: ما تقول فيما يقول أميرالمؤمنين؟ فقال النصراني: ما الدرع الّا درعي، وما اميرالمؤمنين عندي بكاذب!

وهنا التفت القاضي شريح الى عليّ يسأله: هل من بيّنة تشهد أنّ هذه الدرع لك؟ فضحك عليّ وقال: أصاب شريح، ما لي بيّنة! فقضى شريح بالدرع للرجل النصراني، فاخذها ومشى وأميرالمؤمنين(عليه السّلام) ينظر اليه! الّا انّ الرجل لم يخط خطوات قلائل حتى عاد يقول:

أمّا أنا فأشهد ان هذه أحكام الأنبياء! أميرالمؤمنين يدينني الى قاضٍ يقضي عليه! ثم قال: الدرع واللّه درعك يا أميرالمؤمنين وقد كنت كاذباً فيما ادّعيت! وبعد زمن شهد الناس هذا الرجل وهو من اصدق الجنود واشد الابطال بأساً وبلاءً في قتال الخوارج يوم النهروان، الى جانب الامام علي.(١٦)

ج – حق الحريّة

الفوز بالحرية من اكثر رغبات الانسان اصالةً، لأن الانسان قد خُلق حراً. وعلى هذا الاعتقاد فلا الآخرون لهم الحق بسلب هذه النعمة الالهية منه، ولا اللائق به (كصاحب حق) الّا أن يعظّم نعمة الحرية ويصونها ويفيد منها بالشكل الأنسب، للعلو والتقدم.

وجهة نظر القرآن

لقد كرّس الاسلام حمايته لحق حرية الفرد ضمن مسيرة ضمان حقوق الفرد والمجتمع، حيث يمكن للانسان حينئذ ان يعيش حرّاً من أسر الطواغيت وصنم النفس والهوى، والخرافات والشيطان.

والقرآن الكريم يشير الى الدور التحريريّ للنبي الاكرم(صلّى اللّه عليه واله وسلّم) الذي كان يأمر الناس بالأمور اللائقة وينهيٰهم عن كلّ ما ينافي القيم، ويحلّل عليهم الطيّبات ويحرم عليهم الخبائث:

﴿وَيَضَعُ عَنهُم إِصرَهُم وَالأَغلٰلَ الَّتي كانَت عَلَيهِم﴾(الأعراف:١٥٧).

ويقول أميرالمـؤمنين(عليه السّلام):
«لا تكنعبد غيرك وقد جعلك اللّه حراً».(١٧)

حرية الفكر

الانســان مــوجـود مفكــر، ومــن الطبيعي ان يفكـر بشأن العالم، وخـالق الكون، والانسان...

وان اي فرد او نظام وقـانون يضـع الموانع في طريق فكر الانسان فهو ظالم ومنحطّ وهادم لحقوقه.

الاسلام وحرية الفكر

يعتبـر الاسلام حـريـة الفكر حقـاً طبيعيـاً للفرد والمجتمـع، ويسعى بكـل وجوده الـى ايجاد جوّ منـاسب لتـأمين حرية الفكر للجميـع، ولخلق هذه الاجواء والشـرائط فقد فكـر في تـدابير دقيقـة وشيّقة، وسنقتصــر خشية الاطـالة فــي البحث علــى الاشارة الى عناوينهـا فقط وهذه التدابير كثيرة وجمّة، وأهمّها:

١- ثورة القيم.

٢- الـدعوة الــى معـرفــة الوجـود والموجد، ومعرفة النفس.

٣- التصديـق او الانكار، بـالدليـل والبرهان فقط.

٤- إنتخاب الافضل والأحسن.

٥- الانصــاف وسعة الصــدر فــي مواجهة الافكار والعقائد.

٦- الدعوقي ضوء الاطلاع والمعرفة.

٧- تحريم كتمان الحقائق.

٨- تحريم خلط الحق بالباطل.

٩- فضح الابطال المزيّفين.

١٠- الكفاح من أجل الاكثرية.

حرية التعبير والقلم

كما ان التنفـس شرط لادامـة حياة الانسان، فان حريــة التعبير والقلم ايضاً ليست حقّاً طبيعياً لــلانسان فحسب، بل هو شرط لحياته الدينية والثقافية وحياته الملكوتية والسامية.

واذا ما استحال ان نمنع تنفس فرد ثم ننتظـر منه ان يعيـش ويترقــى، فكذا لايمكن ان نسلب حرية التعبير والقلم من فرد اومجتمع، ومــن ثم ان نتوقع تـرقّيه وتقدمه.

الخطوط الكلية لحرية التعبير والقلم

١- أجلى صورة لهذه الحـرية تبرز في اصــل الامر بـالمعروف والنهــي عن المنكر. وأشعــة الحريــة تمتد الــى الحدّ

الذي لا يكون للانسان الحق فقط في دعوة الآخرين في جميع المجالات الى اتباع الحق ونهيهم عن الظلم، بل يعتبر ذلك واجبه الإسلامي والإنساني:

﴿وَالمُؤمِنونَ وَالمُؤمِنـٰتُ بَعضُهُم أَولِياءُ بَعضٍ يَأمُرونَ بِالمَعروفِ...﴾(التوبة:٧١).

٢- الموعظة والنصيحة

اصل الموعظة وحب الخير هو مظهر آخر من حرية القلم والتعبير... ومن وجهة النظر الاسلامية فليس الانسان حراً فقط لينصح الآخرين ويحبّ الخير لهم، بل ان هذا هو واجبه الانساني والديني، حيث يعتبر التقصيرفي ذلك خيانة.

يقول النبي الاكرم(صلّى اللّه عليه واله وسلّم): «ثلاث لا يغل قلب امرء مسلم، اخلاص العمل لله، والنصيحة لائمة المسلمين، و...».(١٨)

٣- حق النقد

اصل حرية النقد وتمييز الصواب عن الخطأ لغرض سلامة البيئة الاجتماعية، ومنع انتشار جرثومة الاختناق من الحقوق الاساسية للانسان، وهو مظهر آخر لحرية التعبير والقلم.

ومن وجهة نظر القرآن والاسلام، فان للانسان دور المرآة بالنسبة للآخرين، وهذا الدور معترف به للآخرين أيضاً.

يقول الامام الصادق(عليه السّلام): «من رأى اخاه على أمر يكرهه فلم يردّه عنه وهو يقدر فقد خانه».(١٨)

٤- الشورى

فى النظرة الاسلامية يتمتع الجميع بهذا الحق، وهو ان يتبادل المسؤولون النظر مع الآخرين ويشاوروهم، ومن جهة اخرى فانهم أنفسهم موكّلفون بأبداء نظراتهم وآرائهم بالامور الجارية بدون خوف فىضوء حرية التعبير والقلم.

ويضعُ القرآن في رسمه لخصوصيات وملامح مجتمعه النموذجي، اصل الشورى في صف الايمان بالله واقامة الصلاة:

﴿وَأَمرُهُم شورىٰ بَينَهُم﴾

(شورى:٣٨).

ويأمُر النبي(صلّى اللّه عليه واله وسّم) ضمن غضّه النظر عن اخطاء الناس وطلبه المغفرة لهم، أن يشاورهم في

الأمر[١٩]، وقد فعل ذلك(صلى الله عليه واله وسّم) دوماً، ومن جملة ذلك استشارته اصحابه في واقعة الخندق وفي مناسبات اخرى كثيرة.

حرية العقيدة

ان جمال بستان وروعته ورونقه، لا يكمن في سعة البستان أوتوحّد أزهاره، بل في تنوع هذه الازهار وتناسبها وتناسق ألوانها.

وفي البستان البشري ايضاً هناك تنوّع لعظمة الحياة ورموز الحرارة والحركة، وإثارة للانسان للتعمق و التفكر والسمو، والقرآن الكريم في اشارته لهذه الحقيقة، يقول: ﴿**ما لَكُم لاتَرجونَ لِلّهِ وَقاراً*وَقَد خَلَقَكُم أَطواراً**﴾(نوح:١٣-١٤).

يقول الامام الصادق(عليه السّلام): «لو علم الناس كيف خلق الله هذا الخلق لم يلُم أحد احداً».

الاسلام وحرية العقيدة

من وجهة نظر الاسلام فالناس أحرار في انتخاب عقائدهم ومذاهبهم، وليس لأحد الحق في إجبار آخر لتقبّل او نبذ عقيدة معيّنة.

والحقيقة ان العقائد القلبية والدينية هي ثمرة لسلسلة بواعث باطنيه وعوامل خارجية، وهي لهذا السبب قابلة للتغيير فقط في ضوء المنطق المحكم والموعظة الحسنة، وليس الاجبار والقوّة والمحاربة النفسية.

يقول القرآن الكريم في بيان هذا الحق: ﴿**لا إِكراهَ فِى الدّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَيِّ**﴾(البقرة:٢٥٦).

الاسلام والمعاملة الحسنة مع المذاهب الاخرىٰ

ليس الاسلام لايكره أو لايجبر اتباع المذاهب الاخرى على اتباع طريقه وخطّه فقط، بل علاوة على ذلك يأمر بضمان حرية العقيدة واجراء المراسم الدينية والمعاملة الحسنةمع اتباع العقائد الاخرى:

﴿**لايَنهىٰكُمُ اللهُ عَنِ الَّذينَ لَم يُقٰتِلوكُم فِى الدّينِ وَلَم يُخرِجوكُم مِن دِيٰرِكُم أَن تَبَرّوهُم وَتُقسِطوا إِلَيهِم...**﴾(الممتحنة:٨).

كتب اميرالمؤمنين(عليه السّلام) ضمن وصيته لمالك الاشتر عامله على مصر، بشأن غير المسلمين الذين كانوا في

حدود خمسة عشر مليوناً:

«واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فانهم صنفان: امّا أخ لك في الدين، او نظير لك في الخلق...».[٢٠]

في مجال العمل

١- كان اتباع المذاهب الاخرى دوماً مورد احترام المسلمين وائمة الاسلام الذين دعوا الجميع الى العيش في سلام.

وكان النبي(صلّى الله عليه واله وسلّم) يحترم حيَّهم وميّتهم، ويساعد فقراءهم، ويحلّ مشاكلهم.

وفي احد الايام كان النبي(صلّى الله عليه واله وسلّم) جالساً مع جمع من اصحابه فمرت بهم جنازة محمولة ليهودي، فقام النبي(صلّى الله عليه واله وسلّم) احتراماً، وعندما سأل بعضهم عن ذلك، قال(صلّى الله عليه واله وسلّم) انه مشترك معنا في الانسانية، وعليكم ايضاً احترامه.

٢- عندما ذبحوا شاة وارسلوا الى كلّ واحد من الجيران نصيباً، أُرسل نصيب الى جار يهودي، وعندما سأل البعض: هل نعطي اليهودي نصيباً كالمسلمين؟ قال ابن عباس: ان هذه كانت سنة النبي(صلّى الله عليه واله وسلّم).

٣- شاهد اميرالمؤمنين(عليه السّلام) في خلافته نصرانياً مسنّاً يسأل الناس، فسأل عنه فقيل: انه ليس مسلماً، فقال(عليه السّلام) إن لم يك مسلماً أفليس بإنسان؟ أو يليق أن يفتقر أحد مواطنيكم حتى يسأل الناس؟... ثم أمر بعد ذلك ان تُجرى عليه حقوق التقاعد: «انفقوا عليه من بيت المال».[٢١]

٤- واكثر ما يلفت النظر هو ان تعاليم الاسلام في عملها لتأمين حقوق اهل المذاهب الاخرى قد شكّلت أرضية جعلت بعضاً من هؤلاء يشغل مناصب هامة في المجتمع الاسلامي، ويصل في حكومات الخلفاء الى الوزارات والمناصب المهمة ، حيث يذكر لنا التاريخ نماذج كثيرة من ذلك.[٢٢]

د- حق الأمن

من الحقوق الاساسية للفرد والمجتمع هو حق الأمن، حق أمن الجسم والحياة، وأمن العرض والكرامة الانسانية، والأمن الفكري والعقائدي، والقضائي، والسياسي، والاقتصادي،

وأمن السكن والمنزل ومحل المعيشة، وفى الخاتمة، الأمن فى الابعاد والمظاهر الاخرى الحياتية ضمن حدود الحق والصواب.

دور الأمن في تكامل الانسان

الأمن من الشرائط الاساسية للتكامل والرقي الفردي والاجتماعي فى المجالات المادية والمعنوية. وفي ظل الأمن يحسّ الانسان بالهدوء والطمأنينة ويعرف طعم الاستقلال ونكهة الحرية، ويكون مهيّأً للتفكّر والتأمل في رحاب هذا الوجود ونظم الخلقة الجميلة، ويكتشف قوانين ارتقاء وسمو الافراد والمجتمعات وعوامل سقوطهما.

في ظلّ الأمن تتحرك العجلات الضخمة للمعامل والمزارع والمصانع، وتنشغل الجامعات والمختبرات بالسعي والحركة، وتنمو وتتكامل الحركات البناءة والخلاّقة، ويتشخص الحق من الباطل والصواب من الخطأ.

الأمن في ضوء القرآن

يرسم القرآن في مجال الآمن وجهة نظر ابراهيم(عليه السّلام) ابى الموحدين حين بنى الكعبة، فكان اول أهدافه وأمانيه من ربّ الكعبة هو نعمة الأمن الغالية: ﴿رَبِّ اجعَل هـٰذَا البَلَدَ ءَامِناً﴾(إبراهيم:٣٥).

ومطمح انظار يوسف(عليه السّلام) بطل أحسن القصص، يعلّمنا انه من بين كل النعم والمواهب الالهية عليه وعلى الموحّدين هي نعمة الأمن، حيث:

﴿اُدخُلُوا مِصرَ إن شاءَ اللهُ ءَامِنينَ﴾(يوسف: ٩٩).

والقرآن يشير الى الأمن كموهبة لازمة للحياة الانسانية، ويدعو الناس الى شكر هذه النعمة:

﴿فَليَعبُدُوا رَبَّ هـٰذَا البَيتِ*الَّذي أَطعَمَهُم مِن جوعٍ وَءَامَنَهُم مِن خَوفٍ﴾(قريش:٣-٤).

يقول النبي الاكرم(صلّى اللّه عليه واله وسلّم): «نعمتان مجهولتان: الصّحة والامان».[٢٣]

دائرة الأمن

للأمن فى المنظار التوحيدي بعدان: مادي ومعنوي، كما هو الحال بالنسبة للانسان، ولكلّ من هذين البعدين أبعاد وفروع اخرى نستعرضها باختصار.

١- الأمن البدني

يعتبر القرآن الأمن البدني حقاً طبيعياً للإنسان، ويضع لتأمينه ضوابط دقيقة ومحددة بحيث انه يمنع اولاً اعداءه من تهديد أمنه وسلامته، ويحمي ويضمن أمن خلايا البدن واحدة فواحدة، حتى الشعر النامي على البدن. ويقول: ﴿وَالجُروحَ قِصاصٌ﴾(المائدة:٤٥).

٢- الأمن الحياتي والنفسي

تعتبر حياة الانسان وروحه في نظر الاسلام من المحترمات والمقدّسات، وطبيعي ان من حقوق الانسان تأمين الأمن لحياته.

أ- حرّم أولاً بشدة وبشكل قاطع الاعتداء على حياة الانسان: ﴿وَلاتَقتُلُوا النَّفسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بالحَقِّ﴾(الإسراء:٣٣).

ب- وبعد التحذير والتحريم يقرر القرآن العقاب الدنيوي العادل: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظلوماً فَقَد جَعَلنا لِوَلِيِّهِ سُلطٰناً﴾(الإسراء:٣٣).

ج- وحينئذ يقرر العقاب الاخروي الاليم للذين يعتدون على أمن الآخرين وحياتهم: ﴿وَمَن يَقتُلْ مُؤمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خٰلِداً فيها﴾(النساء:٩٣).

ولا يضمن الاسلام أمن حياة الانسان من اعتداء الآخرين فقط، بل هو يمنع الانسان من الحاق الاذى بنفسه كذلك، بانتحار او اعتداء وخدش لحقّ حياته وسلامته ويقول القرآن في ذلك: ﴿وَلاتَقتُلُوا أَنفُسَكُم...﴾(النساء:٢٩).

٣- أمن السكنى

يعدّ القرآن المسكن ومحل معيشة الانسان من الامور المحترمة، ويولي عنايته لضمان أمنها، ويمنع من دخولها لأحد بلا إذن: ﴿يٰأَيُّهَا الَّذينَ ءَامَنُوا لاتَدخُلُوا بُيوتاً غَيرَ بُيوتِكُم حَتّىٰ تَستَأنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلىٰ أَهلِها﴾(النور:٢٧).

٤- أمن الوطن

الوطن والدولة لشعب معين بمثابة البيت الأكبر له، ويتمتع بحق الأمن ايضاً ويجب صونه وحفظه من تعرّض واعتداء القوى الغاشمة والنزّاعة للتسلط على الشعوب. ويشير القرآن الى هذه الحقيقة: ﴿وَإذ أَخَذنا ميثٰقَكُم لاتَسفِكُونَ دِماءَكُم وَلاتُخرِجُونَ أَنفُسَكُم مِن دِيٰرِكُم﴾(البقرة:٨٤).

٥- أمن الكرامة والعرض

العرض والكرامة لافراد المجتمع من الامور التي كانت مورد تأكيد جدّي لتعاليم القرآن الكريم، حيث قرر العقاب الأليم للذين يحاولون خدشها بأقوالهم وأفعالهم الظالمة المتمردة.

وقد حرّم القرآن الغيبة لضمان كرامة الانسان وسلامة عرضه، وأدان التهمة والافتراء ونهى عن الاستهزاء والسخرية بالآخرين، وحذّر من النبز بالألقاب وإلصاق التهم والتكفير للآخرين.(٢٤)

يقول الرسول الاكرم(صلّى الله عليه واله وسلّم): «ان اللّه حرّم على المسلم دمه وماله وعرضه...»

٦- الأمن المالي والاقتصادي

يحمي القرآن الأمن الاقتصادي والمالي للانسان، حيث ان المكتسبات المادية والاقتصادية لاي فرد في حال اكتسابها من الطرق المشروعة والعادلة، هي ثمرة سعيه واتعابه وجزءً من وجوده، حيث انه نالها بصرف طاقته وعمره ورأسماله البدني والروحي والفكري، وفي الواقع فان الاعتداء على اموال الفرد او المجتمع هو اعتداء على ذلك كله.

وقد خطى القرآن خطوات واسعة في مجال حفظ الأمن الأقتصادي:

أ- حذّر اولاً من أكل اموال الناس بالطرق غير المشروعة: **﴿يـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَـأكُلُوا أَمـٰوٰلَكُم بَيْنَكُم بِالبـٰطِلِ﴾**(النساء:٢٩).

ب - وبعد هذا التحذير يأمر الجميع بالعدل الاقتصادي والقسط في الكيل والوزن في روابطهم الاقتصادية والتجارية والصناعية وفي انجاز العقود وأمور العمل: **﴿وَيـٰقَوم أَوفُوا المِكيالَ وَالميزانَ بِالقِسطِ وَلاتَبخَسُوا النّاسَ أَشياءَهُم...﴾**(النور: ٨٥).

ح - ويذكّر القرآن أيضاً بالعقاب الاخروي: **﴿وَيلٌ لِلمُطَفِّفِينَ﴾**.

د - وفي المرحلة الاخيرة يضع القوانين الجزائية العادلة لضمان الأمن الاقتصادي، ويُنذر الذين يهددون بسرقاتهم وغاراتهم الأمن الاقتصادي للفرد او المجتمع: **﴿وَالسّارِقُ وَالسّارِقَةُ فَاقطَعُوا أَيدِيَهُما...﴾**.

ص - حق الدفاع

حق الدفاع واحد من الحقوق العامة في نواحي الخلقة.

تحافظ جميع الموجودات الحيّة من نبات او حيوان او انسان، في ضوء قواها الدفاعية على حياتها ووجودها من الاخطار عن جهة، وتحاول من جهة اخرى دفع العقبات التي تعترض تقدّمها، وتحلّ المشاكل التي تواجه حياتها.

وتشترك الموجودات الحية جميعاً في اصل حق الدفاع وضرورته وفي طرق الدفاع التكتيكية المختلفة، بعض بالاسلحة الطبيعية التي جُهّز بها بدنه، وبعض بالهرب والاختفاء، وبعض بالكرّ والفرّ ومخادعة العدو، وبعض بوسيلة البيان والقلم والسلاح البسيط وصولاً الى اعقد الاسلحة واشدها تخريباً.

القرآن وحق الدفاع

يعتبر حق الدفاع من وجهة نظر القرآن حقاً طبيعياً للفرد والمجتمع، يقول القرآن الكريم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا...﴾(الحج: ٤٠).

ويقول: ﴿وَقَـٰتِلُوا في سَبيلِ اللهِ الَّذينَ يُقَـٰتِلونَكُم...﴾(البقرة: ١٩٠).

وكذلك الحال في جمع من الآيات الاخرى والروايات المختلفة حيث جرى ضمان هذا الحق الاساسي للانسان.(٢٥)

وختاماً: إن ما لاحظناه هو الخطوط الكلية والاساسية لتعاليم القرآن الكريم في طريق تأمين الحقوق الفردية والاجتماعية للانسان، والتي جرى تنظيمها في فرصة قصيرة، وواضح ان عشرات الحقوق الفردية والاجتماعية تتفرع من كل واحد من هذه الاصول وتنبع منها، حيث يضيق مجال البحث عن التعرض لها.

ونصلُ في هذه المقالة الى النكات التالية:

١- في العصور التي ساد فيها الاستبداد والاختناق والتفرقة العنصرية والفوارق الطبقية وحاكمية العلاقات وحكمت فيها القوة والخداع والجهل والخرافات، فان تعاليم القرآن قد رسمت حقوق وحرية الانسان وازاحت الموانع المعترضه بقلب القيم وايجاد التغيير الجذري.

٢- لم تكتف بالتوصيات والتوجيهات المقبولة، بل فكرت بالتدابير الاساسية، وطبقتها في ميدان عملها ومجتمعها النموذجي.

٣- اعتبرت الكلّ مسؤولاً عن صيانة حقوق الانسان وحفظها :

«كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته».

٤- وختاماً، ففي الازمنة التي كانت الحقوق الاسلامية هي الحاكمة في كلِّ زاوية من حياة الانسان، فقد واجهنا نماذج عملية شيقة ومضيئة ليس لها نظير، وصالحة للاقتداء بها.

نسأله تعالى ان يقرّب ذلك اليوم الذي تصبح فيه تعاليم القرآن المنجية مورد التطبيق في ارجاء العالم وتُضمن حقوق الانسان على ضوئها بالشكل الذي يرتضيه الخالق.

الهوامش

(١) اعلاميه هاى حقوق بشر:٦.

(٢) سرنوشت دردآلود سياهان:٤٨، از بردگى تا آزادى:٢٣٠.

(٣) الوسائل ٧: ٤٤.

(٤) العدالة الاجتماعية:١٦٢.

(٥) جوان از نظر عقل واحساسات:٢٠.

(٦) الوسائل ٣:٢٤٣.

(٧) نهج البلاغة، خطبة:٥٣.

(٨) نهج البلاغة، عبده ٣:٧٥.

(٩) نهج البلاغةفارسي، نامه:٥٣.

(١٠) نهج البلاغة، خطبة:١٢٦.

(١١) تنبيه الأمة:٣٠.

(١٢) من لايحضره الفقيه:٥٧٩.

(١٣) روح الدين الاسلامي١:٣٦٠.

(١٤) شرح ابن ابي الحديد١:٤٧٨.

(١٥) من لايحضره الفقيه:٣٢٠.

(١٦) الامام علي(عليه السّلام) صوت العدالة الانسانية١:٩٢.

(١٧) نهج البلاغةفارسي، نامه:٥١.

(١٨) الكافي١:٤٠٢.

(١٩) سفينة البحار٢:٥٩٠.

(٢٠) نهج البلاغة، خطبة:٥٣.

(٢١) الوسائل٢:٤٢٥.

(٢٢) اسلام وحقوق بشر:٤٠٦.

(٢٣) نهج الفصاحة:٢١٤.

(٢٤) تراجع سورة الحجرات.

(٢٥) يراجع ميزان الحكمة٥:١٩٧.

الرسول ﷺ فى القرآن الكريم

السيّد عبد الأمير علي خان



الحمد لله وصلى الله على عباده الذين اصطفى محمد وآله وسلم.

القرآن الكريم يحمل شهادته معه بإعجازه. فهو حجة على جميع الناس في كل العصور.

وهو دليل ملزم على كل ما يبينه للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) من المنزلة والخصائص والامتيازات والحقوق وأنواع الولاية الواسعة...

ومن يقرأ القرآن بتدبر يرى كيف يجعل رسل الله (عليهم السلام) محوراً لدين الله وقطباً لمدار الحركة والمسيرة الربانية فى الارض.

وقد أشرنا[١] الى دلالة هذا السياق القرآني الحكيم على وجود ملاك قوي لولاية واسعة قد جعلها الله للرسل (عليهم السلام).

وبيّنا أن ما جعله الله تعالى لرسوله الاكرم من ولاية لابد وأن يكون على القاعدة والسنة العامة التي جعلها عزوجل لهذا المجال.

فالوجدان يؤكد بأن ولاية الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) لكونه خاتم الرسل والانبياء وكون رسالته هي الخاتمة وأنها هي الرسالة الفعلية الى يوم القيامة لابد أن تكون أوسع وأعلى ولاية جعلها الله للرسول.

ولابد أن يكون موقعه من الدين أهم وأخطر من موقع الرسل فهو الغاية للمسيرة الربانية-البشرية.

ورسالته لا تحتاج الى تبديل وتنقيح مهما تطاول الزمن الى يوم القيامة.

ودوره الذي أنجزه وفعله وتأثيره في حياة البشرية وفي تكوين القوة

المحركـة الهائلـة في الحيـاة على مـدى التاريخ وما تركه مـن حركة ومن خلافة فـاعلـة، كـل ذلك ليغنـي عـن الحـاجـة لإستئناف رسالة جديدة.

وأن نبونـه الخاتمـة الوحيـدة التي لا تشاركها نبـوة تغني عن كل نبـوة الى يوم القيامة.

بل إنه المثل الاعلـى الذي يغني عن الحاجة لمثل أعلى حتـى في يوم القيامة وفي الحياة الاخرى.

وهذه ميزة خص بهـا خاتم الانبياء وسيد الرسل لم يشـاركه فيها أحد منهم، فقد كانـت تجتمع عدة نبوات فـي منطقة واحدة بل فـي بيت واحد في زمـن واحد وكان يشترك عدة رسل برسالة واحدة...

ومع ذلك لم يقف القرآن الكريم عند هذا الحـد ويمضي الـى أبعد منـه بكثير فيتعمـد الصراحـة وتكثيـف التأكيـدات الشديدة القوية على هذه الحقيقة...

إن القرآن الكـريم مصمـم تصميماً خاصاً يظهر بوضوح إمتياز منزلة النبي محمد (صلّى الله عليه وآلـه وسلم) عند الله علـى كـل الرسـل وأنه بـالنسبة لهـم بمنزلـة الرسول، وأن نسبتهم اليه بمنزلة الاتباع، بل هـم ملزمون بـاتباعه والتسليـم اليه ونصرته لو أدركوا زمانه ومبعثه.

﴿وإذ أَخَذَ اللّهُ مِيثَٰقَ النَّبيّينَ لَمَا ءَاتَيتُكم مِـن كِتَـٰبٍ وَحِكمَةٍ ثمَّ جـاءَكُم رَسولٌ مُصَـدِّقٌ لِمَا مَعَكُـم لَتُؤمِنُـنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قالَ ءَأقرَرتُـم وَأَخَذتُم عَلَىٰ ذَٰلِكُم إِصرِي قالُوا أَقرَرنَا قالَ فَاشهَدُوا وَأَنَا مَعَكُـم مِنَ الشَّـٰهِدينَ﴾ الى قـوله تعالى: **﴿وَمَن يَبتَغِ غَيـرَ الإِسلَـٰمِ دِيناً فَلَـن يُقبَلَ مِنـهُ وَهُـوَ فِـي الآخِرَةِ مِـنَ الخَـٰسِرينَ﴾**(آل عمران: ٨١-٨٥).

وكان رسـول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) هو المُنتَظَر المـوعود عند الرسـل والامم كما ننتظر المهدي (عليه وعلىٰ آبائه السلام).

وكانوا يدعـون الله سبحانه لتعجيل ظهوره ومبعثـه وكانـت معالـم رسالتـه معروفـة عندهم وبـأنها رحمة للعـالمين وأنها السهلة السمحاء التي يمن الله فيها بالتخفيف على البشرية وإلغاء الكثير من القيود والاحكام الاستثنـائية والاجراءات الـردعيـة والعقـوبتيـة والشـدة فـي الاحتياطات وبابتعادها عن معنى الحظر والحرمان...

﴿وَإِذ قالَ عِيسَى ابنُ مَريَمَ يَـٰبَنِي إِسرَاءِيلَ إِنّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيكُم مُصَدِّقاً لِمَـا بَينَ يَـدَيَّ مِـنَ التَّـوريٰةِ وَمُبَشِّـراً

بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالبَيِّنَٰتِ قَالُوا هَٰذَا سِحرٌ مُبِينٌ﴾(الصف:٦).

﴿وَإِذْ يَرفَعُ إِبرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ*رَبَّنَا وَٱجْعَلنَا مُسلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَينَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ*رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِم رَسُولاً مِنهُم يَتلُوا عَلَيهِم ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَٰبَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِم إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ*وَمَن يَرغَبُ عَن مِلَّةِ إِبرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَينَٰهُ فِي الدُّنيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ﴾(البقرة:١٢٧-١٣٠).

﴿وَاختَارَ مُوسَىٰ قَومَهُ سَبعِينَ رَجُلاً لِمِيقَٰتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئتَ أَهلَكتَهُم مِن قَبلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهدِي مَنْ تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الغَٰفِرِينَ*وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ*الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكتُوباً عِندَهُم فِي التَّورَيٰةِ وَالإِنْجِيلِ يَأمُرُهُم بِالْمَعرُوفِ وَيَنهَيٰهُم عَنِ المُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيهِمُ الخَبَٰئِثَ وَيَضَعُ عَنهُمْ إِصْرَهُم وَالأَغْلَٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُوْلَٰئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ﴾ (الاعراف:١٥٥-١٥٧).

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم تَرَيٰهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضوَاناً سِيمَاهُم فِي وُجُوهِهِم مِن أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُم فِي التَّورَيٰةِ وَمَثَلُهُم فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ مِنهُم مَغفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾(الفتح:٢٩).

﴿مِلَّةَ أَبِيكُم إِبرَاهِيمَ هُوَ سَمَّيٰكُمُ المُسلِمِينَ مِن قَبلُ وَفِي هَٰذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيكُم وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ

عَلَى النَّاسِ فَاقِيمُوا الصَّلوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكوٰةَ وَاعتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوليٰكُم فَنِعْمَ المَوْلىٰ وَنِعمَ النَّصيرُ﴾(الحج:٧٨).

فلو اقتصر القرآن الكريم علىٰ بيان ملاكات ومناطات ولاية الرسل (عليهم السلام) لكان ذلك كافياً للدلالة على ثبوت ولاية واسعة وعالية للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم).

ووجود مثل الآيات المتقدمة التي تبين امتياز الرسول على كافة الأنبياء تثبت أن ولايته تمتاز بالشمول والسعة وعلو الدرجة عن ولايتهم...

ولكن القرآن الكريم لم يكتف بهذا كله وتقصد لأن يجعل شخص الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلم) محوراً رئيسياً لسوره وآياته بعد الايمان بالله سبحانه...

وجعل الحديث عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) أوسع وأشمل من الحديث عن كل الرسل مجتمعين... والحديث عن الرسل صيغ صياغة خاصة ليكون تمهيداً وتهيئة للحديث عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم).

والآيات التي تذكر الرسل كمجموع تتضمن ذكر الرسول(صلّى الله عليه وآله وسلم) معهم...

والآيات التي تذكر المؤمنين والاولياء تشمل الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم)..

والآيات التي تخاطب الامة غالباً ما تشمل الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) أيضاً إلا اذا كانت قرينة على عدم شمولها له.

والسور التي تجعل رسول الله محوراً لها أكثر بكثير من السور التي تجعل الرسول محورها الرئيسي، والسور التي تجعل ذكر الرسل محوراً رئيسياً لها يكون ذكر الرسول شريكاً فى المحورية...

والآيات التي تذكر رسول اللّه أو تشير اليه بشكل ما أكثر بكثير من الآيات التي تذكر الرسل أو تشير اليهم...

ويبدو لي –وللتجربة الخاصة[٢]– إن خير منهجة وطريقة لالتماس هذه الحقيقة وهذه الظاهرة القرآنية الحكيمة هي أن تعيش مع القرآن كله، تعيش معه من أوله الى آخره نتدبر آياته كلها ونلاحظ دلالات السياق والنظم والقرائن ومناسبات النزول وأقوال العلماء مع الاستشهاد بأحاديث أهل البيت (عليهم

السلام).

وقد فعلت ذلك في كتاب «الولاية والسياسة فى الاسلام» حيث تناولت السور بالترتيب وحسب ما مدون فى المصحف الشريف.

أذكر اسم السورة وعدد آياتها لتتضح نسبة الآيات التي تذكر أو تشير الى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم).

وأختار بعض الآيات وأسجلها للتلاوة وللتدبر فيها كأمثلة ونماذج أو لوجود نكات وأبعاد جديرة بالاهتمام أو للتأكيد وزيادة الملاحظة.

وأعلق على بعض الآيات أو بعض المقاطع أو على الايات المختارة من السورة بجملة تعليقات أرىٰ أهميتها لأمر له علاقة بالموضوع نفسه وتوضيحه أو للاشارة الى شبهة عند البعض.

وقد تتكرر بعض الملاحظات إما لفظاً أو ضمناً لمناسبة ما أو لزيادة توضيح أو لاضافة أو لاتمام فكرة...

وقد رأيت أن معظم السور فيها نسبة عالية من الآيات التي تذكر أو تشير للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ما عدا القليل من السور القصار...

وفي كل ذلك لا ينبغي الغفلة عن المقصود وهو بيان ما يوليه القرآن الحكيم من اهتمام بشخص الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وما يثبته له من مكانة ومنزلة عند الله ويبينه من خصائص ومقومات لشخصيته العظيمة وما يكشف عنه من دور رباني جعله الله للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) في حركة الدين في هذه الحياة وما جعله الله له من موقع من الدين ويوم القيامة وفى الآخرة.

وإني أشعر أن دراسة القرآن الكريم حسب تاريخ النزول أفضل من هذه الطريقة، لأنها تجعل الباحث يعيش مع القرآن الكريم وهو يربى الامة على ولاية الرسول وعظيم منزلته ولكن هذه الطريقة أيسر إن لم تكن هي المتيسرة فعلاً لصعوبة معرفة ترتيب بعض الآيات حسب تاريخ النزول لأهل هذا الزمان... ولو أمكن الجمع بين الطريقتين لكان أفضل وأتم...

مع أنه من الافضل عدم الاقتصار على طريقة واحدة في كل السور، فمن الأحسن أن تتبع عدة طرق من العرض فمثلاً تذكر أرقام الآيات المعينة فى السورة ثم تسجل منها آيات مختارة مع التعليق علىٰ كل آية بإزائها.

أو تـذكر بعـض الآيات أولاً ويعلـق عليها واحـدة واحدة أو جملـة، ثـم تـذكـر أرقـام الآيات المعينـة فـي تلـك السورة.

أو تكون فى السورة الواحدة طريقة عرض مركبـة، ذكر أرقام آيات ثـم تدون بعض الآيات ويعلق عليها ثم تذكر أرقام آيـات أخرىٰ وتـدون منهـا آيات ويعلـق عليها... وهكذا...

والسـور التي تكـون افتتـاحياتهـا خطابـاً للنبي (صلّـى الله عليه وآلـه وسلـم) من المفيد أن تسجل افتتاحيـاتها أولاً ويعلق عليهـا ثـم تعتمـد طـريقـة فـي بـاقـي السورة...

وفي هذا الموضوع نقدم مثالاً عملياً من سورة البقرة.

لنقرأها جميعاً ولنـلاحظ الآيات: ٤، ٦، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٣٠، ٧٦، ٨٠، ٨٩-٩٢، ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٩٩، ١٠١، ١٠٧، ١٠٨، ١١١، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٩، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٨٦، ١٨٩، ٢٠٤، ٢١١، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٥٢، ٢٥٨، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٥.

لاحـظ مـوقع الآيـات مـن السيـاق ولاحظ نسبتهـا الى السورة حيـث تقرب مـن نسبة الخمـس «عـدد آيات السـورة ٢٨٥ آية».

وقبل مـراجعة السـورة فى القـرآن لنقرأ من هذه الآيات هذه الامثلة:

﴿...وَالَّـذينَ يُـؤمِنـونَ بِما أُنـزِلَ إلَيكَ وَما أُنـزِلَ مِن قَبلِكَ وَبِالآخِـرَةِ هُم يوقِنونَ﴾(البقرة:٤).

مـن مـلاحظة هـذه الآيـة ووجـود ضمير المخـاطب فيهـا «بما أنـزل اليك» و«مـا أنـزل مـن قبلـك» ووحـدة النظـم والسياق بينها وبين الآيـات المتصلة بها يتضح أن الخطاب من البداية كان موجهاً للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وأن خطاب النـاس والامة إنمـا يكونـان مـن خلالـه وبالمرحلة الثانية...

وهذا السياق فى الخطاب يتكرر فى القرآن الكـريم وبكثافـة عالية جـداً لحد يجعل القرآن الكـريم كله خطابـاً لرسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أولاً ثم ثانياً ومن خلاله يكون خطاباً للناس وللمسلمين.

ويكون هذا السياق ظاهرة غالبة في بعض السـور فمثلاً فـي سورة الانعـام تتكرر مخاطبـة الرسول (صلّى الله عليـه وآله وسلم) أكثر مـن خمسين مرة مـع أن عدد

آيـاتهـا كلها لا يتجـاوز المـائة وخمـس وستين آية.

وفي بعـض الآيات يفرد ذكـر النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) ويردف اليه ذكر الأمة أو ذكر النـاس، أو ذكر المؤمنيـن مع أن ذكر المؤمنين يتضمن ذكر النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم).

ويتفنن القرآن الكريم في طرق ذكر النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) ومخاطبته: قل، أرأيت، إنك، لعلك، أنظر، لك، اليك... الخ.

وبعـض الآيـات تـرجـع الخطـاب للرسـول أكثر مـن مرة ممـا يجعل ذكـر الرسول (صلّى الله عليـه وآله وسلـم) فى القرآن أكثر مـن عدد الآيات التـي ذكرنـاها إزاء السور.

إن مخـاطبـة الرسـول فـى القـرآن الكريم تتكرر أكثر من ثلاثمائة مرة.

﴿وَإِن كُنتُـم فِي رَيـبٍ مِمَّـا نَزَّلنَـا عَلَـىٰ عَبدِنَـا فَأتُـوا بِسُـورَةٍ مِن مِثلِـهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُـم مِن دُونِ اللهِ إِن كُنتُم صٰـدِقينَ﴾(البقرة:٢٣).

هذه الآية تتمم وتؤكـد ما أشرنا اليه فى التعليق على الآية السابقة.

فالآية مع أنها تخاطب الناس وتحتج عليهم باعجاز القـرآن الحكيم وتتحداهم تنسب الـرسالة الى الـرسول وكأنـه هو المرسل اليـه، وتصف التنزيل بـأنه على رسول الله بلهجـة تنم عن قصد إضـافي علـى ما هـو معهود فـى الاذهان مـن أن نزول القرآن يكون أولاً علـى الرسول ثم على الناس أو الى الناس.

بل إن لهجـة الآية وسيـاقها يشعـر بأن إرسال الرسول (صلّى الله عليه وآلـه وسلم) هـو الاصـل وأن القرآن حجـة ومعجـزة تشـهد لـه بالصـدق فيما يبلغهـم به مـن منصب له وهو منصب الرسالة.

والآيـات التـي تؤكـد حقيقـة كـون إرسـال الرسـول هو الاصـل في تبليـغ الـرسـالـة كثيرة مبثـوثة فـي عدة سـور وبعدة تعابير وأساليب منها:

﴿إِنَّ الَّـذِيـنَ كَفَرُوا سَـوَاءٌ عَلَيهِـم ءَأَنـذَرتَهُـم أَمْ لَـمْ تُنـذِرْهُـم لا يُؤمِنونَ﴾(البقرة:٦).

فـإن هذه الآيـة وكثيـراً من الآيـات غيرها تبين أن أساس حركة الدين وفعله وتبليغه، وعملية الانـذار، وعملية التبشير هو الرسـول (صلّى الله عليه وآله وسلم).

﴿وَلَمَّا جَـاءَهُم كِتـٰبٌ مِـن عِندِ اللهِ مُصَـدِّقٌ لِمَـا مَعَهُـم وَكَانُـوا مِـن قَبـلُ يَستَفتِحُـونَ عَلَى الَّـذيـنَ كَفَرُوا فَلَمَّـا

﴿جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعنَةُ اللهِ عَلَى الكَـٰفِرِينَ* بِئسَمَا اشتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُم أَن يَكفُرُوا بِما أَنزَلَ اللهُ بَغياً أَن يُنَزِّلَ اللهُ مِن فَضلِهِ عَلَىٰ مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلكـٰفِرِينَ عَذابٌ مُهينٌ﴾(البقرة:٨٩و٩٠)

في مثل هاتين الآيتين دلالات بينات يتضح بعضها من ملاحظة حقيقة ما كان يستفتح به أهل الكتاب على الذين كفروا اذ لم يكن الاستفتاح إلا بشخص رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) حيث كانت البشارة فى الكتب الالهية السابقة وفى المأثور عن الانبياء (عليهم السلام) تدور حول شخص الرسول ومشخصاته العائلية والشخصية وخصائصه وفضائلة وحركته وأمته، ومن خلال شخصه تكون الاشارة الى بعض خصائص رسالته، بل إن الرسالة تنسب اليه وليس العكس وكأنه هو الذي يشرع فهو الذي يحرم الخبائث ويحلل الطيبات، وهو الذي يخفف ويرفع بعض القيود وهو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهو الذي يزكي ويعلم... فدوره أساسي بل هو الاول والرئيسي، ولولاه لا يكتمل اللطف الالهي، فلو كانت الرسالة تبلغ بواسطة أخرىٰ لما كان تبليغها كاملاً.

فلو كان التبليغ مثلاً بواسطة الملائكة أو بواسطة احداث كتاب مفصل يوضع بين يدي الناس ليتدارسوه أو لينبري بعضهم لدراسته والدعوة اليه لما كانت الرسالة كاملة فلابد أن تكون الرسالة من خلال حياة الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم).

وتتضح بعض الدلالات من ملاحظة ما كفر به الذين كانوا يستفتحون برسول الله، وهو نفس الذي كانوا يستفتحون به وهو الذي عرفوه أنه رسول حق.

وبعضها يتضح من ملاحظة تفسير القرآن الكريم لسبب كفرهم وهو الحسد الذي لا يكون إلا لشخص الرسول وأهل بيته فلا يكون للكتاب ولا للرسالة.

ويضيف القرآن الكريم بعداً آخر بتشنيعه الحسد، إذ لا ينبغي حسد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) فهو أهل لهذا المنصب العظيم فيجب الاذعان لحقه ومنزلته، فإن حسدهم هذا أخس وأسوأ من كفرهم وله نتائج نفسية سيئة حيث يجر الى الغضب والحقد، لأنهم

لا يجدون متنفساً لـه ولا يستطيعون أن يبدلوا حقيقـة رسول الله (صلى الله عليـه وآله وسلم)، وعندها يبوء غضبهم عليهم بغضب آخر مضـاعف وبغضب من الله سبحـانه فيستحقـون بـذلك العـذاب الاليـم فـى الآخرة.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْئَلُـوا رَسُولَكُم كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِـن قَبلُ وَمَـن يَتَبَدَّلِ الكُفْـرَ بِالإِيمـَـٰنِ فَقَـدْ ضَـلَّ سَـوَاءَ السَّبِيلِ﴾(البقرة:١٠٨).

وهذه الآية تنضم الـى ما قبلها والىٰ الكثير من آيات القرآن الكريم ذات العلاقة بالدلالة البينة وبالتـأكيد المضاعف علىٰ شخص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

فالذي سأله بنو إسرائيل من موسىٰ (عليه السلام) إنما هو بحد ذاته وبنفسه كفر صريح كقـولهم: ﴿اجْعَلْ لَنَـا ءَالِهَةً﴾، و﴿أَرِنَا اللهَ جَهرَةً﴾.

والآيـة تسلـط الضـوء علـى كـون السؤال موجهاً للرسـول وكونهم يريدون تسريـب هذا الكفر عـن طريق الـرسول، وكأنها تريد القول أن هذا الكفر يتضاعف أكثر مـن هذه الناحية وبهـذا السبب لأن الرسـول طريق الهـداية والتديـن والنور والرحمة. فالضـلال والكفر يتضـاعفان اذا كانـا بهذه الجرأة علـى الله وعلىٰ طـريق هدايته...

﴿فَإِنْ ءَامَنُـوا بِمِثلِ مَا ءَامَنتُـم بِهِ فَقَدِ اهْتَـدَوْا وَإِن تَوَلَّـوْا فَإِنَّمَـا هُم فِـي شِقَـاقٍ فَسَيَكفِيكَهُمُ اللهُ وَهُـوَ السَّمِيـعُ العَلِيمُ﴾(البقرة:١٣٧).

لاحظ وتدبر هذه الآية ضمن الآيات التي تحيط بها، الآيـات قبلها من رقم ١٢٤ والتي بعدها الى ١٥٢.

ولا تنس التـدبر فـي دعاء إبـراهيم (عليه السلام) للرسول (صلى الله عليه وآلـه وسلم) والعلاقة بينه وبين قوله تعالىٰ:

﴿وَمَن يَـرغَبُ عَن مِلَّةِ إِبْـرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِـهَ نَفْسَهُ...﴾ وما لـه من عـلاقة بشخـص الـرسـول وبالـولاء لـه، فملّـة إبراهيم في هذه الآيـة هي الولاء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

ثـم تدبـر جيـداً بمخـاطبة القـرآن الحكيم للمسلمين: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا...﴾.

ولا تغفل عن الفارق بيـن إيمان أهل الكتـاب وبيـن إيمـان المسلميـن وهـو الايمان بالـرسول (صلى الله عليه وآلـه وسلـم) بـالدرجـة الاولـى، لاحظ قـولـه تعالـى: ﴿لا نُفَرِّقُ بَيـنَ أَحَدٍ مِنهُـم﴾ ولم يقـل: لا نفرق بين كتبه أو أوامره. أو آياته...

ثم تدبر في تحول الخطاب -فجأة- من المسلمين الىٰ الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) خاصة «فسيكفيكهم الله...».

إن الخطاب الاول الموجه للمسلمين له دلالة إضافية لا تتحقق فيما لو كان من البداية موجهاً للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) لأن الآية تريد أن تتعبد المسلمين بالولاء له، والتحول فى الخطاب بعد ذلك لشخص الرسول له دلالته إذ جعلته الآية هو المعني بالموقف والمسلمون يأتون بالدرجة الثانية وبالتبع له.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة:١٨٦).

وهذه من الآيات الكثيرة التي تبالغ فى الحرص -إن صح التعبير- علىٰ التأكيد علىٰ شخصية الرسول. بحرصها على أن يكون تبليغ الحقائق الالهية وحتىٰ الاجوبة على أسئلة واستفسارات وخواطر المؤمنين والعباد بصورة عامة من خلال الرسول كثيرة.

وأسلوب هذه الآية ملفت للنظر فهي لم تكتف بكون الجواب فعلاً يمر عبر الرسول لأن الوحي لا يتجلىٰ إلاّ له، وإنما تؤكد ذلك صراحة ولفظاً وأسلوباً، «واذا سألك...»، «فليستجيبوا لي...»، فالرسول هو المسؤول وهو الذي يجيب وهو الذي يبلغ عن الله ويأمر الناس بالدعاء والاستجابة والايمان.

ثم إن موضوع الآية كذلك ملفت للنظر وهو الدعاء والاستجابة لدعاء فكأن الآية تريد أن تؤكد بأن الارتباط بالله سبحانه حتىٰ على مستوىٰ الدعاء لابد أن يمر عبر ولاية الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم).

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ وَلَيسَ البِرُّ بِأَن تَأتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلٰكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفلِحُونَ﴾(البقرة:١٨٩).

أضف هذه الآية الى الآية السابقة والىٰ آيات أخر تحرص علىٰ أن يكون بيان العقيدة والمفاهيم والاحكام والمواقف من خلال مخاطبة الرسول.

«واذا سألك، ويسألونك، يستفتونك، يا أيها النبي، قل... الخ».

﴿يـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبوٰاْ إِن كُنتُم مُؤمِنِينَ*فَإِن لَم تَفعَلُوا فَاْذَنُوا بِحَرْبٍ

مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾(البقرة:٢٧٨-٢٧٩).

لاحظ جيداً نسبة الحرب لله ولرسوله معاً، ولاحظ ما تتضمن الآية من تشريع وجوب منع الربا قانوناً إضافة الى ما جعل الله سبحانه من عقوبة في الآخرة ومن نتائج سيئة في الدنيا تصيب المرابي سواءً شعر بها أم لم يشعر، ثم لاحظ الفارق بين فلسفة وأبعاد المعنىٰ الذي يوحيه هذا التعبير «فأذنوا بحرب من الله ورسوله...» عن أي معنى يعطيه أي تعبير آخر يفيد التحريم والعواقب السيئة والمنع القانوني.

إن هذا التعبير الموجز البليغ إضافة الىٰ إعجازه فإنه يدل على أن أمراً آخر تريد أن تؤكده الآية وتركزه في الاذهان وهو التلازم الأكيد بين إرادة الله وإرادة الرسول وبين إرادة الله وموقف الرسول وبين حرب الله وحرب الرسول، بل هي حرب واحدة فحرب الله حرب رسوله وحرب رسوله حربه.

وأحكام الربا لا تختص بزمن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم)، فهي تنفذ الى يوم القيامة باسم الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم)، وهكذا تكون الاحكام الاسلامية التي تنفذ بواسطة السلطة التنفيذية، فإنها تنفذ باسم الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم)، وفي القرآن شواهد أُخرىٰ على هذا المبدأ مثل آيات عقوبة المحارب.

والاحكام السياسية تنسب للرسول سواءً كانت بين المسلمين أو بينهم وبين غيرهم، فالسلم والامان والعهد والذمة تنسب للرسول بعد الله والولاية إنما تكون من خلال ولاية الرسول بعد ولاية الله سبحانه...

هذه قراءة في سورة البقرة وحدها، وهي تبين جانباً مما بينه القرآن الكريم من موقع ومنزلة ودور للرسول الاعظم (صلّى الله عليه وآله وسلم) ويضمها الى ما يتضح من قراءة السور الاخرىٰ والجمع بين بعض الآيات وضم الجوانب الى بعضها تتكون عند المسلم صورة متكاملة لمنزلة الرسول ودوره في المسيرة الربانية وحركة رسالة الدين في هذه الحياة وموقعه من الدين المطلوب من البشرية، كمجموع ومن الانسان كفرد.

إن ما بيّنه القرآن الكريم من موقع ومن مكانة للرسول يجب أن ينعكس على الامة وعلى المسلم في عقيدته ونظرته للرسول وفي تعامله مع الرسول ومع

سنته وعترته وآثاره وكل ما ينسب اليه ويجب أن يكون ذلك مقياساً ومرجعاً يرجع اليه في مقام الولاية وأحكامها وفي تقييم الاشخاص والمواقف سواءً كانت في حياة الرسول أو بعد وفاته.

فعلىٰ هذه الصورة تقيّم مثلاً المواقف التشكيكية أو الضعيفة والاعتراضات التي صدرت من قبل بعض الصحابة... وعلى هذه الصورة تقيم المذاهب فى النظرة لسنة الرسول والمواقف من رغباته وترشيحاته وإشاراته وتلميحاته فى الامامة والولاية وغيرها...

الهوامش

(١) في كتابنا «الولاية والسياسة فى الاسلام» المخطوط وهذا المبحث مستل من الجزء الاول منه من فصل «ولاية الرسول» (صلّى الله عليه وآله وسلم).

(٢) هذه التجربة الخاصة عشتها في بحوث «الولاية والسياسة فى الاسلام».

* * *

تأملات في تجربة نوح (عليه السّلام)
القسم الأوّل

السيّدعلي حسن مطر



مقدّمة:

نوح (عليه السّلام)، الأب الثاني للبشرية بعد آدم[1]، وأوّل الرّسل من أولي العزم، وصاحب أطول تجربة في تاريخ الرسالات السماويّة.

لبث في قومه ألف سنة الاّ خمسين عاماً، يدعوهم الى الهدى ودين الحق، رغم اعراضهم عنه وسخريتهم به. وانها لتجربة -على مرارتها- تحفل بالدروس والعِبَر. الدروس للنخبة المؤمنة المجاهدة، تستلهم منها الثبات على المبدأ، والصبر على الأذى عبر كفاحها لأعلاء كلمة الله في الأرض وتمكينها فى نفوس العباد. والعبر لأولئك الضالين المعاندين، يرون فيها المصير الرهيب والنهاية المفجعة التي آل اليها من كانوا على شاكلتهم فى الضلال.

ورد ذكر نوح (عليه السّلام) في ثلاثة واربعين موضعاً من القرآن الكريم[2]، منها السورة التي تحمل اسم نوح (عليه السّلام) والتي نحن بصدد الكلام عليها.

نزلت هذه السورة في مكة المكرمة قبل الهجرة، وسنجد ان توقيت نزولها يسهم في تحقيق غرض مهم له ارتباط بالتشابه الكبير بين التجربة التي عاشها نوح (عليه السّلام) والتجربة التي كان يخوضها نبيّنا الأكرم محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، ومعه القلة المؤمنة في مكة، حتى لكأنّ التجربتين تجربة واحدة، ولكأنّ الخطاب الموجّه الى نوح وقومه موجّه الى نبيّنا (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والمشركين من العرب.

في كلتا التجربتين نجد مجتمعاً

وثنياً معانداً مصراً على الضلال، عاكفاً على عبادة الأوثان، وقلة مؤمنة تدعو الناس الى الهدى، فتتعرض للأضطهاد، وتجابه بالأعراض والسخرية، فلايثنيها شيء من ذلك عن مواصلة الطريق بأرادة لاتلين.

وفي كلتا التجربتين نجد الأصنام هي الأصنام، ونجد الطبقة المترفة تتزعم جبهة الأنحراف وتنشط بلا هوادة لأضلال الناس من أجل الحفاظ على مصالحها ومواقعها.

والأساليب هي الأساليب أيضاً؛ فبدلاً من الأصغاء الى الفكرة التي يطرحها النبي، ومحاسبتها في ضوء العقل والمنطق، نجد الاصرار المقيت على عدم الأصغاء للطرف المقابل، والتهرب من الدخول معه في نقاش موضوعي بهدف تمييز الحق من الباطل.

وقد كان لنزول هذه السورة المباركة على النخبة المسلمة المضطهدة في مكة أثر بالغ في رفدها بشحنة معنوية ونفسيّة عالية، تعينها على الثبات بوجه الصعاب، وتفتح أمامها أبواب الأمل في الانتصار على قوى الضلال مهما بدا من تجبّرها وطغيانها.

ومن ناحية أخر تمثل السورة هجوماً نفسيّاً على مشركي مكة، يساهم في اضعاف معنويّاتهم، ويشعرهم بأنهم يخوضون معركة خاسرة، وأن عليهم أن ينصاعوا لنداء الحق قبل فوات الآوان.

ونحن في تأملاتنا لهذه السورة المباركة سنتحدث عنها في فقرتين، نتعرض في أولاهما لتفسير آياتها الكريمة، ونخصص الفقرة الثانية لبيان المعطيات الفكرية التي يمكن اكتشافها في السورة.

الفقرة الأولى: تفسير السورة

تتألف سورة نوح (عليه السّلام) من ثمان وعشرين آية، يمكن تقسيمها على ثلاثة مقاطع أساسيّة:

المقطع الأول: يتألف من الآيات الأربع الأولى، وفيه اشارة الى الأهداف العامة من بعثة الأنبياء، وبيان للخطوط الأساسية للدين كما عرضهانوح على قومه.

المقطع الثاني: يبدأ بالآية الخامسة وينتهي بالآية العشرين، وتستوقفنا فيه النقاط التالية:

الأولى- الجهد الموصول الذي بذله نوح (عليه السّلام) لأجل هداية قومه.

الثانية– بعض أساليب العمل وأدله الاقناع التي مارسها نوح (عليه السّلام) عبر أداء رسالته.

الثالثة– تصوير لموقف التعنت والأصرار على رفض الهداية من قبل قوم نوح (عليه السّلام).

المقطع الثالث: وهو يتألف من الآيات الثمان الأخيرة، ويتضمن بياناً للنتيجة النهائية لجهود نوح (عليه السّلام)، وعرضاً لجهود الفئة المستكبرة في مجال تضليل الناس والحيلولة بينهم وبين اتباع الهدى. وتنتهي بتصوير النهاية المرعبة للكافرين، وابادتهم الجماعية باغراقهم.

وسوف نتناول كلاً من هذه المقاطع بالحديث تباعاً.

المقطع الأول

﴿إِنَّا أَرسَلنا نوحاً إِلَىٰ قَومِهِ أَن أَنذِر قَومَكَ مِن قَبلِ أَن يَأتِيَهُم عَذابٌ أَلِيمٌ﴾(الآية:١). والإنذار هو التحذير والتخويف.(٣)

نبدأ الآية الكريمة بالاشارة الى مصدر الرسالة وأنه الله سبحانه وتعالى، الذي صدر عنه الوجود كلّه. ثم تبيّن الغرض من بعثة نوح (عليه السّلام) وهو تحذير قومه من عذاب أليم يوشك أن يحلّ بساحتهم. ونفهم من السياق اللاحق أن منشأ الخطر الذي كان يتهدد مجتمع نوح (عليه السّلام) مردّه الى الفهم الماديّ للكون والحياة، والى انقطاع الصلة بين الإنسان وربّه.

إنها العناية الإلهيّة تشمل هذه البشرية بالعطف والرحمة، وتحاول أن تردّها الى ربّها كلّما عصفت بها عواصف الانحراف الفكري، وماتستتبعه من انحرافات في سلوك الفرد وعلاقات المجتمع. وهذا هو الهدف الأساسي من بعثة الأنبياء جميعاً.

ويلاحظ أن العذاب المتوقع ورد في الآية مطلقاً، فالمراد شموله لما سوف يحلّ بالقوم في الدنيا والآخرة معاً، وهذا ما سيتأكد في نفس السورة بقوله تعالى: **﴿مِمّا خَطيئـٰتِهِم أُغرِقُوا فَأُدخِلُوا ناراً﴾**. وعليه فلا وجه لتردد بعض المفسرين في أن المقصود به عذاب الآخرة أو الطوفان(٤)، كما لاوجه لما ذهب اليه بعضهم من اختيار هذا دون ذاك.(٥)

﴿قالَ يـٰقَومِ إِنّي لَكُم نَذيرٌ مُبينٌ﴾(الآية:٢).

التعبير هنا يرسم صورة لسرعة استجابة النبي، وينقلنا فوراً الى عملية

الإنذار وهي في طور التنفيذ. وهذه النقلة السريعة مقصودة للإيحاء بضخامة الخطر المحدق بقوم نوح (عليه السّلام)، وانّ التدخل الربّاني لإنقاذ هذا المجتمع ضرورة ملحّة لاتحتمل التريث والتأجيل. وهذا من خواصّ الأسلوب القرآني؛ فأنه لايقتصر على التعبير اللفظي في مجال تقديم الأفكار، بل قد يعمد لطرحها عن طريق التصميم الخاص لتتابع الآيات في السيّاق.

ولعملية الأنذار والتحذير جانبان:

أوّلهما: بيان خطأ التصورات الضالة التي يحملونها عن الكون والانسان، وما يتفرع عليها من نظم تحطم سعادة الفرد، وتهدد كيان المجتمع بالأنهيار.

وثانيهما: اعطاء البديل الصحيح المستمد من السماء، والتحذير من مخالفته بتضييع المكاسب التي يحققها في دنيا الإنسان، وبالتعرض لسخط اللّه وعذابه في الآخرة.

والآية الكريمة تصف النبيّ النذير بأنّه «مبين»، والبيان لغةً ما يتبيّن به الشيء ويتضح[6]، ويمكن أن نفهمه في موردنا في مجالين:

الأول: مجال التصور، حيث يكون لوضوح العبارة وسهولة الأسلوب أثر كبير في اعطاء صورة واضحة عن الفكرة التي نريد نقلها الى أذهان الآخرين.

الثاني: مجال التصديق والاقناع، وهنا يكون لقوّة الدليل ووضوحه أثر بارز في اقناع الآخرين بصحة الفكرة المطروحة وبطلان ما يقابلها.

واننا لنجد ملامح البيان -في ما يلي من السورة- واضحة كلّ الوضوح في مواجهة نوح (عليه السّلام) **لقومه**، سواء في اسلوب طرح الفكرة أم في صياغة الدليل عليها.

كانت بعثة نوح (عليه السّلام) تستهدف إنقاذ قومه بأعادة بناء المجتمع على قاعدة من التصور الصحيح والعقيدة الحقّة. وكانت خلاصة دعوته تتمثل في قوله تعالى: **﴿أنِ اعبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطيعونِ﴾**(الآية:٣).

وهذه الآية تتضمن الأصول الثلاثة للعقيدة: التوحيد والنبوّة والمعاد.[7] وهي الأصول التي قامت عليها كل الأديان وبعث بها جميع الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم).

عبادة اللّه: طاعته الناشئة عن الإيمان به وتوحيده.

وتقوى اللّه: اتقاء غضبه وعذابه بالاستقامة على منهجه، وهذا متوقف على الاعتقاد بالمعاد وبالجزاء يوم القيامة.

واطاعة النبيّ: إقرار بنبوّته وأنه يمثّل الاتصال المباشر بين السماء والأرض، والمصدر الموثوق الذي تتلقى البشرية عن طريقه منهج اللّه سبحانه.

ولابد من الأشارة هنا الى خاصّة اخرى من خواص التعبير القرآني، وهي أنه قد يلجأ لإيضاح موضوع معيّن عن طريق الحديث عن موضوع آخر مقابل له. فبعد قوله: ﴿يٰقَوْمِ إِنِّي لَكُم نَذيرٌ مُبينٌ﴾، نتوقع أن يتوقف السياق برهة للحديث عن طبيعة الخطر وبيان أسبابه، لكننا نفاجأ بالسياق ينتقل الى بيان الخطوط العريضة لرسالة نوح (عليه السّلام)، «أن اعبدوا الله واتّقوهُ وأطيعونِ»، فنلتفت الى أنه قد أوضح ضمناً منشأ الخطر الذي يتهدد قوم نوح، وأنه راجع الى فساد التصورات التي يحملونها عن الكون وغاية الوجود الأنساني، وما ينشأ عن ذلك من عبادة الأوثان، ومن انظمة وأعراف جائرة لايجني منها الإنسان سوى التعاسة والشقاء.

إن من نتائج التغيير الروحي والسلوكي وعودة الانسان الى ربّه مغفرة الذنوب وإطالة الأجل.

﴿يَغفِرْ لَكُم مِن ذُنوبِكُم وَيُؤَخِّرْكُم إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذا جاءَ لايُؤَخَّرُ لَوكُنتُم تَعلَمونَ﴾(الآية:٤).

في قوله تعالى: «يغفر لكم من ذنوبكم» تأتي «من» بدلالتها على التبعيض في موضعها الضروري، لتشير الى أن المغفور هو بعض الذنوب، لا جميعها. والمتيقن من ذلك هو الذنوب المتقدمة على الايمان لقوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «الإسلام يجبُ ما قبله»[٨].

وأما الذنوب اللاحقة فقد ذهب بعض المفسرين الى أن شمول المغفرة لها اغراء بالقبيح[٩]، من مقارفة المعاصي أو «إلغاء للتكاليف الدينية بالغاء المجازاة على مخالفتها»[١٠]. ولست أرى ترتب هذين المحذورين بالضرورة على افتراض شمول المغفرة للذنوب اللاحقة؛ لان الغفران متفرع في الآية على العبادة والتقوى والطاعة، وقد يرتكب من توفرت

فيه هذه الصفات بعض الذنوب أحياناً بسبب الغفلة أو الضعف النفساني، لكنه يبادر الى النّدم والتوبة الصادقة، فتشمله رحمة اللّه ورأفته. قال تعالى: ﴿وَمَن يَعمَلْ سوءاً أَوْ يَظلِمْ نَفسَهُ ثُمَّ يَستَغفِراللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحيماً﴾(النساء: ١١٠).

نعم، لايمكن شمول المغفرة للذنوب اللاحقة، اذا اقترفت بسبب تجدد الانحراف أو الاستهانة وعدم المبالاة بأحكام اللّه عزّوجل.

وعليه فلابد من القول بدلالة «من» على التبعيض. وبهذا يتضح الموقف ممّا ذهب اليه بعض المفسرين من القول بزيادة «من»[١١] أو القول بكونها لبيان الجنس[١٢] وأنها على حدّ قوله تعالى: ﴿فَاجتَنِبُوا الرِّجسَ مِنَ الأَوثانِ﴾(الحجّ: ٣٠)، أي: اجتنبوا الأوثان. على أن أولهما مردود من قبل علماء اللغة بامتناع زيادة «من» فى الكلام الموجب[١٣]، والثاني مردود بأنه لم يتقدم قبلها جنس لتكون بياناً له.[١٤]

وتجدد الاشارة الى أنّ قسماً من المفسرين الذاهبين الى دلالة «من» على التبعيض فى الآية، فسّر البعض المغفور بتفسيرات لاتخلو من المناقشة، ومن نماذج ذلك اختصاص المغفرة بما لايتعلق بحقوق المخلوقين[١٥]، ممّا يعني انّ التفريط بحقوق اللّه تعالى مؤمّن عنه بالمغفرة الموعودة، وهذا واضح البطلان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكم إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذا جاءَ لايُؤَخَّرُ﴾ إشارة واضحة الى أنّ الموعد المحدد من قبل اللّه تعالى لانتهاء حياة الانسان بوصفه فرداً، أو الوجود الاجتماعي للأفراد بوصفهم مجتمعاً إن هذا الأجل لابد أن يقع في وقته المعيّن كما حدده اللّه تعالى بعلمه وارادته.

وثمة تساؤل سجله بعض المفسرين[١٦] وهو: كيف قال تعالى: «ويؤخّركم» مع إخباره بامتناع تأخير الأجل فى الآية؟

واجاب بعضهم: إن هناك أجلين: أقصى وأدنى، والأول متوقف على ايمانهم وعبادتهم، والثاني مرتبط ببقائهم على الكفر، وان الذي لايؤخر هو الأجل الأقصى خاصة[١٧]، واما الأدنى فأنه قابل للتأخير على تقدير الايمان.

ولكن ليس فى الآية ما يدل على هذا

الاختصاص، فالصحيح ما ذهب اليه صاحب الميزان[١٨] من أن عدم التأخير شامل لكلا الأجلين، فأيهما سبق في علم اللّهِ وقضائه وقع في وقته المحدد حتماً.

المقطع الثاني

﴿قالَ رَبِّ إِنّي دَعَوتُ قَومي لَيلاً وَنَهاراً﴾(الآية:٥).

تصوّر الآية الكريمة النشاط الدائب الذي كان يزاوله نوح (عليه السّلام) في أوساط مجتمعه، يدعوهم الى اللّه بهمّة عالية ونفس صبورة ثابتة، لاتعرف اليأس، ولاتنسحب من الميدان، رغم الأعراض المتزايد الذي كان يواجهه به قومه.

﴿فَلَم يَزِدهُم دُعاءِي إِلاّ فِراراً﴾(الآية:٦).

إنّ دعوة نوح الكريمة وعروضه السخيّة لم تؤثر في تلك النفوس القاحلة سوى زيادة نفورها عن الحق وإدبارها عنه، ولو أنها وجدت نفوساً فيها بقية من صلاح لأورقت فيها وأثمرت.

قال تعالى في وصف تأثير آيات كتابه: ﴿فَأَمَّا الَّذينَ ءامَنوا فَزادَتهُم إيمـٰناً وَهُم يَستَبشِرونَ*وَأَمَّا الَّذينَ كَفَروا فَزادَتهُم رِجساً إِلىٰ رِجسِهِم وَماتوا وَهُم كـٰفِرونَ﴾(التوبة:١٢٤-١٢٥)

إنّ مثل آيات اللّه تنزل على الناس كمثل الغيث، إذا نزل على الأرض الطيبة ﴿اهتَزَّت وَرَبَت وَأَنبَتَت مِن كُلِّ زَوجٍ بَهيجٍ﴾(الحجّ:٥)، ولكنه قد يسقط على الأرض السبخة فلاتفيد منه شيئاً، أو على كومة من السماد فتفوح منها رائحة نتنة.

﴿وَإِنّي كُلَّما دَعَوتُهُم لِتَغفِرَ لَهُم جَعَلوا أَصـٰبِعَهُم في ءاذانِهِم وَاستَغشَوا ثِيابَهُم وَأَصَرّوا وَاستَكبَروا استِكباراً﴾(الآية:٧).

تؤكد الآية الكريمة حقيقتين:

الأولى: إن الهدف الأساسي من بعثة الأنبياء (عليهم السّلام) وما يتحملونه من مشقة وعناء في سبيل الدعوة الإلهية، هو المغفرة للأمة، هو مصلحة الأمة ومحاولة انقاذها من الهاوية التي توشك أن تتردى فيها، وهي تغرق في الذنوب نتيجة ابتعادها عن اللّه سبحانه.

الثانية: الحالة التي يمكن للمجتمع الانساني أن يصل اليها وهو يعيش اجواء الانحراف زمنا طويلاً. انّه يألفه ويعتقد انّه هو القاعدة والصواب، لادليل سوى انّه هو الواقع المعاش. وإذن، فهو ليس

على استعداد لمهادنة ايّة محاولة تستهدف اكتساح هذا الواقع، أو مناقشة أية فكرة تبرهن على أنه باطل يجب أن يزول. ولأجل ذلك نجد انسان مجتمع نوح (عليه السّلام) يرفض حتى الاستماع لصوت النبي (عليه السّلام) ويرفض رؤيته ومواجهته فضلاً عن الدخول معه في حوار. «جعلوا أصابعهم في ءاذانهم واستغشَوا ثيابهم». إنها نفس الحالة التي واجه بها كفّار قريش نبيّنا محمداً (صلّى الله عليه وآله وسلّم): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاتَسمَعُوا لِهٰذَا القُرءَانِ وَالْغَوْا فيهِ لَعَلَّكُم تَغلِبونَ﴾(فصلت:٢٦).

واذن، فليس الموقف السلبي ناشئاً من قناعة تقوم على اساس الدليل، بل هو التعنت والتعصب لما يألفه الانسان في بيئته ومجتمعه، وهو الاستكبار عن قول الهدى والخروج الى دائرة النور.

﴿ثُمَّ إِنّي دَعَوتُهُم جِهاراً * ثُمَّ إِنّي أَعلَنتُ لَهُم وَأَسرَرتُ لَهُم إسراراً﴾(الآية:٨-٩).

هنا ينتقل السياق لبيان الطريقة التي اتبعها نوح عليه السّلام في مخاطبة قومه وتبليغ رسالته. ومنه تعلم أنه بدأ بطرح دعوته على الناس سرّاً قبل ان ينتقل الى المجاهرة والأعلان؛ لدلالة «ثم» في الآية الاولى على الترتيب وأنّ ما بعدها مسبوق بشيء قبله، ثم انه عمد بَعدَئذٍ الى المزاوجة بين الاسلوبين السّري والعلني في عرض واحد.

﴿فَقُلتُ استَغفِرُوا رَبَّكُم إِنَّهُ كانَ غَفّاراً﴾(الآية:١٠).

انّ توجّه الانسان الى ربّه بطلب المغفرة والصفح عن ذنبه، انما يعني تبدل نظرته الى واقعه، واقراره بأنه باطل يجب الرجوع عنه والتوبة الى اللّه منه. ويعني أيضاً فتح صفحة جديدة في حياة الانسان يعاهد اللّه فيها على اخلاص عبادته والاستقامة على دينه؛ إذ لا معنى لأن يطلب الانسان العفو عن ذنوبه مع نيّة الاقامة عليها.

وانّ باب التوبة مفتوح أمام الانسان دائماً، وان فرصة العودة متاحة له متى ما اتضحت له الرؤية واعتزم الأنابة الى ربّه. «إنّه كان غفّاراً»، أي: عظيم المغفرة بالغ الرحمة.

وقد ورد عن نبيّنا الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أنه قال: «مَن لزم الاستغفار جعل اللّه له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل همٍ فرجاً،ورَزقه من حيث لايحتسب».(١٩)

ولابد من التعقيب على ما ذكره النيسابوري هنا من أن نوحاً (عليه السّلام) وعد قومه على العبادة والتقوى بدفع مضارالآخرة، وهو غفران الذنوب[٢٠]، ممّا قد يوهم اختصاص الآثار الوضعية لاقتراف الذنوب بعالم الآخرة، مع أنها -واقعاً- شاملة لعالم الحياة الدنيا. وقد بيّن الإمام عليّ(عليه السّلام) جملة من الآثار الضّارة للذنوب تهتك العصم وتنزل النقم وتغيّر النعم، وأنها تحبس الدعاء وتنزل البلاء وتقطع الرجاء.[٢١]

ونعود الى سورة نوح (عليه السّلام) لنجد الآيات تأخذ بعرض المكاسب العظيمة التي يمكن للاستغفار أن يحققها في دنيا الانسان، والتي تتمثل في زياده الثروات والرخاء المادّي.

﴿يُرسِلِ السَّماءَ عَلَيكُم مِدراراً﴾(الآية:١١)، اي: كثيرة الهطول غزيرة الإنسكاب.

﴿وَيُمدِدْكُم بِأَموالٍ وَبَنينَ وَيَجعَلْ لَكُم جَنّـٰتٍ وَيَجعَلْ لَكُم أَنهاراً﴾(الآية:١٢).

هذه المكاسب عامل دفع واغراء بالتوبة الى اللّه تعالى واخلاص عبادته، وانها لصورة يمكن التحقق منها عمليّاً لما ستكون عليها دنيا الناس بتأثير تقوى اللّه وطاعته، لتكون دليلاً ملموساً على صدق ما ينتظرهم لدى اللّه تعالى من نعيم مقيم فى الدار الآخرة.

ان السماء ستفتح أبوابها بأنواع الرزق، وتتدفق الأنهار بالمياه، ويعمّ الخصب وتزدهر الحقول، ويعود ذلك على المجتمع بزيادة الأموال والأنفس، أي بقوة الوضع الاقتصادي، وتكاثر العنصر البشري وهما العاملان الأساسيّان في قوة الأمة وهيبتها.

وهنا نلتقي أيضاً بخاصّة اخرى من خواصّ التعبير القرآني، وهي أنه يختار الكلمة التي تستوعب اكثر من مدلول واحد، فيفهم منها السامع في عصر النبوّة المعنى القريب من ذهنه وبيئته، وتظل بقيّة المعاني والمداليل العميقة للكلمة لتكشف عنها الأجيال اللاحقة، تبعاً لما يتيحه لها تطور العلم واتساع آفاق المعرفة الإنسانية.

فقوله تعالى: **﴿يُرسِلِ السَّماءَ عَلَيكُم مِدراراً﴾** كان يجد مدلوله لدى الأجيال الماضية في صورة السحب الثقال تهطل على الأرض بالمطر الغزير، أما الأجيال المعاصرة فإنها تمكنت من

اكتشاف مداليل أبعد للكلمة حينما اتضح لها أن الحياة على ظهر الأرض لايمكن أن توجد أو تستمر لولا ما تمدّها به السماء من مقوّمات الحياة.

فالشمس تمدّ الأرض بالطاقة الحرارية وبالضوء الضروري لصنع غذاء النبات. والهواء يحمل السحاب واللقاح وتتولد منه مختلف انواع الطاقة، وحركة القمر تؤدي الى حدوث المدّ والجزر، وهكذا.

وهذه الخاصة يفرضها كون القرآن الكريم كتاب اللّه تعالى الى البشرية بامتدادها التاريخي، وعهده لكافة اجيالها الى أن يرث اللّه الارض ومَن عليها. وقد فرضت هذه الحقيقة أن يأتي القرآن مصمماً بطريقة يتمكن معها كل جيل أن يجد فيه دلائل الإعجاز التي تشهد بنسبه الإلهي، وان يستمد منه العلاج لما يستجد من مشاكل فكرية وعملية، كما فرضت هذه الحقيقة أيضاً أن يسمو القرآن على البشرية في كافة عصورها ويسبقها في مجال الاكتشاف وتسجيل الحقائق في مختلف حقول المعرفة الإنسانية.

﴿مَا لَكُم لاتَرجونَ لِلَّهِ وَقاراً﴾(الآية:١٢).

الوقار هو العظمة. فنوح (عليه السّلام) يستنكر على قومه عدم توقيرهم للّه وتعظيمه، وهو أهل الكبرياء والعظمة، مع أن دلائل قدرته وعظمته ماثلة في أنفسهم وفي آفاق الكون من حولهم.

والعظمة من صفات الهيبة والجلال، فهي –كالقهر والقوة والجبروت– من الصفات التي تولّد في نفس الأنسان مشاعر الضعف والضّآلة تجاه الذات الإلهية المقدسة، وتنمّي مشاعر الخوف والخضوع للهِ سبحانه والانقياد له والاستقامة على منهجه.

وقد وجدت بعض المفسرين في موقف الحيرة من أمر التوفيق بين معنى الرجاء في الآية وهو: ظن يقتضي حصول مافيه مسرّة[٢٢]، وبين معنى الوقار وهو العظمة التي تستدعي الخوف من اللّه والتصاغر عنده. فذهب بعضهم الى أن الرجاء هنا بمعنى الخوف، وأن المراد: ما لكم لاتخافون للّه عظمة[٢٣]، واستشهدوا لمجيء الرجاء فى اللغة بهذا المعنى بقول أبي ذؤيب الهذلي:

اذا لسعته النحل لم يرجُ لسعها

وحالفها في بيتٍ نوبٍ عواسلِ

أراد: لم يخف لسعها.

بقول الآخر:

لا ترتجي حين تلاقي الذّائدا

أخمسةً لاقت معاً أم واحدا

أي: لاتخاف.[٢٤]

وقال الأخفش: «والرجاء هنا الخوف؛ لأنّ مع الرجاء طرفاً من الخوف ومن اليأس».[٢٥] وقال غيره: «لأن الراجي ليس بمستيقن فمعه طرف من المخافة».[٢٦]

أقول: ولعلّ من استعمال الرجاء بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُم كانُوا لايَرجونَ حِساباً﴾ (النبأ:٢٧).

ويلاحظ أن الفخر الرازي عقّب على هذا الرأي بقوله: «وهذا القول عندي غير جائز؛ لأن الرجاء ضدّ الخوف فى اللغة المتواترة الظاهرة، فلو قلنا إنّ لفظة «الرجاء» فى اللغة موضوعة بمعنى الخوف، لكان ذلك ترجيحاً للرواية الثابتة بالآحاد على الرواية المنقولة بالتواتر».[٢٧]

وهذا غريب منه؛ إذ ليس المدعى هنا هو وضع كلمة الرجاء للخوف فقط دون المعنى المضاد له، بل المراد أنّ هناك شواهد من اللغة على استعمالها أحياناً بمعنى الخوف، وأنّ السياق فى الآية يعيّن إرادة خصوص هذا المعنى دون المعنى الظاهر.

وهناك قول ثانٍ ذهب اليه الزمخشري وغيره، وهو أن المعنى: «ما لكم لاتأملون للهِ توقيراً، أي: تعظيماً. والمعنى: ما لكم لاتكونون على حال تأملون فيها تعظيم اللّهِ إياكم».[٢٨]

وهذا الرأي يبقى الرجاء على ظاهر معناه، لكنه ينسب العظمة لغير اللّه سبحانه وهو خلاف المتبادر، ولو أنه كان مراداً لكان المناسب التعبير عنه بقوله: ترجون من اللّه.

ويمكن أن يقال: ان القصد من اثبات كلمة الرجاء وربطها بتعظيم اللّه هو الإشارة الى أن تعظيم اللّه وما يستتبعه من الإنقياد له والاستمداد منه يحقق للمجتمع كل ما يرجوه من أسباب السعادة.

وهذا القول يبقي كلمة الرجاء أيضاً على معناها الظاهر، لكنه بحاجة الى تقدير محذوف؛ إذ المعنى: ما لكم لا ترجون منافع تعظيم اللّه.

وفي المسألة آراء أخرى لافائدة من التعرض لها. فلنحاول تعرّف الأدلة التي ساقها نوح (عليه السّلام) لقومه لإثبات عظمة اللّه سبحانه، وهي نوعان:

الأول: من نفس الانسان، ويتمثل في إلفات النظر الى عملية التطور في الخلق والإيجاد التي يجدها الانسان ماثلة في نفسه.

﴿وَقَد خَلَقَكُم أَطواراً﴾(الآية:١٣).

والأطوار هي الأحوال المتعاقبة على الشيء، ويمكن أن يدركها الانسان انذاك متمثلة في مراحل الطفولة والشباب والشيخوخة، وقد تتمثل في مراحل اسبق من ذلك؛ «لأن الأجنة التي تسقط قبل اكتمالها في الأرحام يمكن أن تعطيهم فكرة عن هذه الأطوار»[٢٩]، إلاّ أن القرآن الكريم كشف عن مراحل من التطور في الخلق ما كان يتيسر للانسان الاطلاع عليها انذاك قال تعالى: **﴿وَلَقَدخَلَقنَا الإِنسـٰنَ مِن سُلالَةٍ مِن طينٍ*ثُمَّ جَعَلنـٰهُ نُطفَةً في قَرارٍ مَكينٍ*ثُمَّ خَلَقنَا النُّطفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقنَا العَلَقَةَ مُضغَةً فَخَلَقنَا المُضغَةَ عِظـٰماً فَكَسَونَا العِظـٰمَ لَحماً ثُمَّ أَنشَأنـٰهُ خَلقاً ءَاخَرَ فَتَبارَكَ اللّهُ أَحسَنُ الخـٰلِقينَ﴾**(المؤمنون:١٢-١٤).

وقد كشف علم الأجنة حديثاً «أنّ الجنين في أوّل أمره يشبه حيوان الخلية الواحدة، ثم بعد فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان المتعدد الخلايا، ثم يأخذ شكل حيوان مائي، ثم شكل حيوان ثديي، ثم شكل المخلوق الإنساني».[٣٠]

﴿أَلَم تَرَوا كَيفَ خَلَقَ اللّهُ سَبعَ سَمـٰوٰتٍ طِباقاً*وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نوراً وَجَعَلَ الشَّمسَ سِراجاً﴾(الآية:١٥-١٦).

هذا هو النوع الثاني من الأدلة على عظمة اللّه، وهومستمد من الواقع الكوني، وتوجيه الأنظار الى عجيب خلق السموات ووضع الكواكب فيها، وتسخيرها لاهتداء الإنسان بها في تعيين الجهات والأوقات، وامداده بالنور والضوء، وبما لايعلم من المنافع التي تيسّر له الحياة.

وقد أخبر اللّه تعالى في غير آية عن السموات، وأنها سبع طباق، أي: متطابقة، بعضها فوق بعض. وتحقيق هذه المسألة موكول الى الدراسات الفلكية والفضائية، وهي لم تبلغ حتى الآن مرحلة من التقدم تمكنها من أن تقول كلمتها بهذا الشأن، ولكن «هذا التوجيه يكفي لاثارة التطلع والتدبر في

ما وراء هـذه الخلائق الهـائلة مـن قدرة مبـدعـة، وهـذا هو المقصـود مـن ذلـك التوجيه».[٣١]

وامـا قولـه تعالـى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُـوراً وَجَعَلَ الشَّمـسَ سِراجـاً﴾، فالذي يلفت النظر في آيات القرآن الكريم أنهـا تصف القمـر دائمـاً بـالنور، وامّـا الشمـس فإنهـا تصفهـا بـالضوء تـارة، وبالسراج تارة اخرى.

والملاحظ أن العرب «لم يفرقوا بين الضياء والنـور، فكِلاهما عندهـم بمعنى الضوء المنتشر من الأجسام المنيرة الذي يعين على الأبصار».[٣٢]

وقد حاول المفسرون تحديد الفرق بينهمـا، فـذكروا أن الضيـاء أقـوى مـن النور[٣٣]، الاّ أن الـدراسات المعـاصـرة توصلـت الى أن القرآن الكـريم فـرّق في آيـات الضيـاء والنـور، فسمّـى الضـوء الذاتيّ ضياءً والمكتسـب المعكوس نوراً. وفرّق فـي آيات النجوم والكواكـب، فبيّن أن النيّرات منها ما ضياؤه ذاتي واسماها نجوماً، ومنها ما ضياؤه مكتسب وسمّاها كواكب، فـوضّح بذلك ما كـان مبهماً في عرف اللغـة التي لم يتـوافر لاهلهـا العلم الكـافي الـذي يميّـزون بـه بين نـوعـي الضوء، ويعرفون به نوعي النيّرات.[٣٤]

ولعلّ النيسـابوري (المتـوفى فـي القـرن التـاسـع) أول مـن أشـار مـن المفسرين الى حقيقة كون ضوء الشمس ذاتياً لهـا. قال: «شبّـه الشمس بـالسراج لأن نورها ذاتي».[٣٥]

﴿وَاللهُ أَنبَتَكُم مِنَ الأَرضِ نَباتاً * ثُمَّ يُعيـدُكُـم فيهـا وَيُخـرِجُكُـم إِخراجاً﴾(الآية:١٧-١٨).

فالكـائنات الحيّة جميعـاً -وضمنها الإنسان «الجانب المادي منه»- من نبات الأرض، مهما اختلفت اشكالهـا ودرجاتها في الـوجود؛ لأنهـا ترجـع بالتحليـل الى عناصر أوليّة مستمـدة من تراب الأرض، وهي تعتمد في حياتها علـى ما تمدّها به الأرض من غـذاء ولباس وسكن، ثـم هي تعود بعد ذلك الى أحضان الأرض.

والآيات الكريمة إضـافة الى دلالتها على وجـود اللّه وعظمته، تدل أيضـاً على امكان البعث بعد الموت؛ فإن القدرة التي خلقت الانسان وأنبتته من الأرض ابتداءً، لقـادرة على إعـادة تركيبـه مرة أخـرى، ليقـابـل ربّـه ويلقـى حسـابـه: ﴿مِنها خَلَقنـٰكُم وَفيهـا نُعيـدُكـم وَمِنهـا نُخرِجُكُم تارَةً أُخرىٰ﴾(طه:٥٥).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ بِساطاً*لِتَسلُكُوا مِنها سُبُلاً فِجاجاً﴾(الآية:١٩–٢٠).

السبل الفجاج هي الطرق الواسعة. وتشبيه الأرض بالبساط يشير الى امتدادها وتيسيرها لحياة الانسان واستقراره، وأنها مصممة بشكل يمكّن الإنسان من التنقل في أرجائها الفسيحة طلباً للرزق. وكل ذلك يشير الى عظمة اللّهِ سبحانه وعنايته بالانسان، وأن يده من وراء الغيب تمدّ هذا الانسان بكل مقوّمات الحياة والبقاء.

المقطع الثالث

في مستهلّ هذا المقطع نواجه نوحاً (عليه السّلام) وهو يعرض على ربّه الحصيلة المخيّبة لتجربته الطويلة، بصورة شكوى يبثها قلبه المتحرق حسرة وألماً على قومه الذين أصرّوا على المعصية، وآثروا البقاء في الظلمة على حياة النور:

﴿قالَ نوحٌ رَبِّ إِنَّهُم عَصَوني وَاتَّبَعُوا مَن لَم يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إلاّ خَسارًا﴾(الآية:٢١).

وإذن، فليست قضية الإخفاق راجعة الى مجرد غفلة وجهالة يعيشها الناس، بل هي الزعامات الضالة المضلة تقف وراء ظاهرة العناد والرفض لدعوة النبيّ؛ فهي التي تعمل دائبة على اضلال الناسِ والتغرير بهم، وهي التي تحول بينهم وبين وضوح الرؤية والاستجابة لنداء الحقّ.

وانّ كثرة الأموال والأتباع غالباً ما تنمّي مشاعر الاقتدار والأنفة وترسخ روح الطغيان لدى القيادات، ممّا يؤدي الى تمردها على كلّ محاولة للاصلاح والتغيير، واستكبارها عن الإنقياد لتعاليم السماء، وتكون نتيجة كل ذلك «خساراً» وفقداناً لخير الدنيا والآخرة.

﴿وَمَكَرُوا مَكراً كُبّاراً﴾(الآية:٢٢).

المكر هو: «صرف الغير عمّا يقصده بحيلة»[٣٦]، او: هو الفتل بالحيلة الخفيّة. وكُبّار: صيغة مبالغة من كبير. أي: المكر العظيم المتناهي في الكبر.[٣٧]

هنا يسجل نوح (عليه السّلام) انطباعه عمّا واجهته به القوى الضاغطة من التخطيط الدقيق والمكر الخفيّ يمارسه أولئك المترفون المعاندون، ويتمكنون بواسطته من تسميم الأجواء أمام دعوة نوح (عليه السّلام) واحكام الطوق حولها،

ومنعها من أن تجد طريقها الى قلوب الناس.

﴿وَقالُوا لاتَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُم وَلاتَذَرُنَّ وَدّاً وَلاسُواعاً*وَلايَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسراً﴾(الآية:٢٣).

وهذا نموذج لمكرهم وتغريرهم، انهم يتركون جانباً منطق العقل والفطرة، ويعمدون الى «تزيين الكفر والضلال والجاهلية التي تخبّط فيها القوم... بهذه الإضافة (آلهتكم)؛ لإثارة النخوة الكاذبة والحميّة الآثمة في قلوبهم»[٣٨]، «كأنهم قالوا: هذه الأصنام آلهة لكم، وكانت آلهة لآبائكم، فلو قبلتم قول نوح لاعترفتم على أنفسكم بانكم كنتم ضالّين كافرين، وعلى آبائكم بأنهم كانوا كذلك. ولمّا كان اعتراف الإنسان على نفسه وعلى جميع اسلافه بالقصور والنقص والجهل شاقّاً شديداً، صارت الإشارة الى هذه المعاني بلفظ[آلهتكم] صارفاً لهم عن الدين».[٣٩]

ومما يثير التساؤل في الآية الكريمة هذا التطابق بين أسماء الأصنام المعبودة لدى قوم نوح (عليه السّلام) والأصنام المعبودة لدى المشركين عند البعثة النبويّة. وثمة رأيان للمفسرين بهذا الشأن:

الأول: ان هذه الأصنام قد انتقلت بعد الطوفان من قوم نوح (عليه السّلام) الى العرب.[٤٠]

وقد اعترض عليه بأن «الدنيا قد خربت في زمان الطوفان، فكيف بقيت تلك الأصنام وكيف انتقلت الى العرب»؟[٤١]

الثاني: إنّ الذي انتقل الى العرب هو اسماء هذه الأصنام لا أعيانها.[٤٢]

وعلى أيّة حال لاتخفى البراعة الفنية لهذا السياق الذي يحوّل الأنظار الى عبدة الأوثان من العرب، وكأنّ الكلام مسوق أساساً لعرضِ مواقفهم وتصوير ماسوف يصيبهم من نهاية فاجعة إن هم أقاموا على عبادة الأوثان.

﴿وَقَد أَضَلُّوا كَثيراً وَلاتَزِدِ الظّٰلِمينَ إِلاّ ضَلالاً﴾(الآية:٢٤).

كان لمكر أولئك المعاندين تأثير مدمّر في إضلال الناس وفي الإضرار بالدعوة وشلّها عن الحركة، ولأجل ذلك دعا عليهم نوح (عليه السّلام) بالإضلال، أي: الخسار والعذاب.[٤٣] وكان دعاؤه بعد أن استنفد كلّ الجهود، وتأكد له ان بصيصاً من أملٍ في إصلاحهم لايلوح في الأفق.

﴿مِمَّا خَطِيٓـٰٔتِهِم أُغرِقُوا فَأُدخِلُوا نَاراً فَلَم يَجِدُوا لَهُم مِن دونِ اللهِ أنصارًا﴾(الآية:٢٥).

أي: من أجلِ ما ارتكبوه من الخطايا. و «ما» هنا مزيدة للتوكيد.(٣٣) والتعبير عن المستقبل بالماضي في قوله: «أغرقوا فأدخلوا ناراً» لبيان صدق الوعد به وحتميّة وقوعه.

إنها الذنوب والخطايا تجلب النقم وتغيّر النعم، وهي العلة الكامنة وراء كلّ بلاء ينزل بهذا الانسان في دنياه وآخرته. إنه قانون يبيّنه اللّه تعالى ويؤكده؛ رجاء أن تتناغم معه البشرية وتفيد منه، وان إغراق قوم نوع (عليه السّلام) كان واحداً من التطبيقات التاريخية لهذا القانون، كما أنّ من تطبيقاته اغراق فرعون وملإئه: ﴿إِنَّهُم كانُوا قَومَ سَوْءٍ فَأَغرَقنـٰهُم أَجمَعِينَ﴾(الأنبياء:٧٧)، وإبادة المعاندين بالصيحة أوالخسف: ﴿وَمِنهُم مَن أَخَذَتهُ الصَّيحَةُ وَمِنهُم مَن خَسَفنا بِهِ الأَرضَ﴾(العنكبوت:٤٠).

إن غاية الوجود الإنساني هي طاعة اللّه وعبادته: ﴿وَما خَلَقتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلّا لِيَعبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦)، فمن يتمرد على طاعة اللّه ويستكبر عن عبادته، إنّما يرفض المسوّغ الوحيد لحقّه في الحياة والوجود.

«فلم يجدوا لهم من دون اللّه أنصاراً»: ولم تغنِ عنهم امكاناتهم المادّية والبشرية، ولم تنقذهم أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون اللّه.

هكذا وفي آية واحدة «ينتهي أمر هؤلاء العصاة العتاة، ويطوى ذكرهم من الحياة... ولايفصل هنا قصة غرقهم ولا قصة الطوفان الذي أغرقهم؛ لأنّ الظلّ المراد إبقاؤه في هذا الموقف هو ظلّ الإجهاز السريع حتى ليعبر المسافة بين الأغراق والأحراق بحرف الفاء! على طريقة القرآن في إيقاعاته التعبيرية والتصويرية المبدعة».(٣٥)

واذن، فليتعظ مشركو قريش بمصير أسلافهم وليخففوا من غلوائهم، وليصغوا الى كلمة الحق، ويحسبوا حساب المستقبل، مادام في الوقت متسع.

﴿وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لاتَذَرْ عَلَى الأَرضِ مِنَ الكـٰفِرِينَ دَيّاراً﴾(الآية:٢٦).

الديّار: ساكن الدار. والمعنى: «لاتدع على الأرض من الكافرين أحداً إلّا أهلكته».(٣٦)

إنهـا دعوة نـوح وقد تـاكد لـه «أن الأرض تحتاج الى غسل يطهر وجهها من الشرّ العـارم الخالـص الذي انتهـى اليه القـوم في زمـانه. واحيـاناً لايصلـح أيّ علاج آخـر غير تطهيـر وجه الأرض مـن الظالمين؛ لأنّ وجودهم يجمّـد الدعوة الى اللّه نهائيّاً، ويحول بينهـا وبين الوصول الى قلوب الآخرين.(٤٧)

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾(الآية:٢٧).

ذلـك ما اكـدته لنـوح (عليه السّـلام) تجـربتـه الطـويلة. ان جميـع الطـاقـات الماديّة والبشرية كانـت في خدمة قضية الضلال، وكانت موظفـة للتغرير بالناس، ولفتنـة المـؤمنيـن بمختلـف اسـاليـب الضغـط المـاديّ والنفسـي. وانّ البيئـة الاجتماعيـة التي تتـربى فـي أحضـانهـا الناشئة، والتـي أضحت ملوثة بـأوضار الكفر والإنحـراف، كانـت تطبع الصغـار بطابعهـا، حتى لم تبـق ذرّة من أمـلٍ في إدخال أحدٍ الى حضيرة الإيمان.

وإذن، فلابد من قطع دابر الكافرين، ولابد من انشاء مجتمع جـديد يقوم على دعائم الإيمـان والعبودية الخالصـة للّه: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(محمّد«صلّى اللّه عليـه واله وسلّم»:٣٨).

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾(الآية:٢٨).

إنــه الاستغفـار يصـدر مـن نـوح (عليه السّلام)، ومَن أولى به منـه وقد طالما نصح قومه به وبيّن لهم فوائده وعوائده؟ الاستغفـار لنفسـه ولأبويـه؛ بـرّاً بـهمـا، والاستغفـار لمن دخـل بيته مـن أتباعـه المؤمنين برسالته.

وقوله «مؤمناً» قيد لابد منه لاستثناء زوجتـه وولـده ومـن دخـل بيتـه ممّـن يظهرون الإيمان نفاقاً لا اعتقاداً.

ثـم دعـاؤه العـامّ «للمـؤمنيـن والمؤمنـات»، هو برّ المـؤمن بالمـؤمنين كـافة فـي كـلّ زمـان ومكان، وشعـوره باصرة القربى على مدار الزمن واختلاف السكـن. وهـوالسـرّ العجيـب فـي هـذه العقيدة التي تربط بيـن أصحابها برباط الحبّ الوثيق والشوق العميـق علي تباعد الزمان والمكان».(٤٨)

وأخيراً دعاؤه على الكافرين بالـهلاك والخسران «ولا تزد الظـالمين الاّ تباراً»،

وهي آخر جملة ترد في القرآن الكريم على لسان نوح (عليه السّلام).

اللهم فكما استجبت لنوح فأهلكت بدعائه الظالمين، فاستجب لدعائه في المؤمنين، واحشرهم معه في عليّين ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الصّافات: ٧٩).

الهوامش

(١) وصف نوح (عليه السّلام) بهذا الوصف في غير واحد من التفاسير، ولعلّ ذلك باعتبار أنّ أدم (عليه السّلام) هو أب البشرية من ناحية التناسل، وان البشرية قد فنيت بعد الطوفان ولم يبق على ظهر الأرض الاّ الجماعة التي أنقذت على يد نوح (عليه السّلام)، فكأنه سبب بقاء العنصر البشري على الأرض. وهذا متوقف على الرأي القائل باستيعاب الطوفان لكافة اطراف الأرض وابادة جميع من عليها من البشر، ولكن هناك من يرى انحصار الطوفان في بقعة محدودة من الأرض.

(٢) قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجّار:٣.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، مادة (نذر).

(٤) أ- تفسيرالغرناطي (التسهيل لعلوم التنزيل) ٢٨٠:٤.

ب- تفسير الثعالبي (جواهر الحسان في تفسير القرآن)٣٤٣:٤.

ج- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)٣١١:٤.

(٥) أ- تفسير الأندلسي (البحر المحيط) ٣٨٨:٨.

ب- تفسيرالقرطبي (الجامع لأحكام القرآن)٢٩٨:١٨.

ج- تفسيرالطبري (جامع البيان في تفسير القرآن) ٥٧:٢٩.

د- تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)٣١١:٤.

(٦) لسان العرب، مادة (بين).

(٧) تفسير الطباطبائي (الميزان) ٢٧:٢٠.

(٨) أ- تفسير الغرناطي٢٨٠:٤.

ب- تفسير الثعالبي٣٤٣:٤.

ج- تفسير الأندلسي٣٨٨:٨.

(٩) أ- تفسير الطوسي(التبيان) ١٣٣:١٠.

ب- تفسير الطبرسي(مجمع البيان) ٣٦٠:١٠.

(١٠) تفسير الطباطبائي ٢٧:٢٠.

(١١) أ- تفسير الفخر الرازي(مفاتيح الغيب او التفسير الكبير) ١٣٥:٣٠.

ب- تفسير الطبري٥٧:٢٩.

ج- تفسير القرطبي٢٩٩:١٨.

د- تفسير الطوسي١٢٢:١٠.

(١٢) أ- تفسير القرطبي ١٨: ٢٩٩.
ب- تفسير الأندلسي ٨: ٣٣٨.
ج- تفسير الغرناطي ٤: ٢٨٠.
د- تفسير النسفي ٤: ٣١١.
(١٣) أ- تفسير الثعالبي ٤: ٣٤٣.
ب- تفسير الغرناطي ٤: ٢٨٠.
ج- تفسير القرطبي ١٨: ٢٩٩.
د- تفسير الطباطبائي ٢٠: ٢٨.
(١٤) أ- تفسير الأندلسي ٨: ٣٣٨.
ب- تفسير القرطبي ١٨: ٢٩٩.
(١٥) أ- تفسير النسفي ٤: ٣١١.
ب- تفسير القرطبي ١٨: ٢٩٩.
(١٦) أ- تفسير الزمخشري(الكشّاف)٤: ٦١٥.
ب- تفسير الرازي ٣٠: ١٣٥.
(١٧) أ- تفسير الرازي ٣٠: ١٣٥.
ب- تفسير الطوسي ١٠: ١٣٣.
ج- تفسير الطبرسي ١٠: ٣٦٠.
د- تفسير الزمخشري٤: ٦١٥.
(١٨) تفسير الطباطبائي ٢٠: ٢٨.
(١٩) تفسير الثعالبي٤: ٣٤٣-٣٤٤.
(٢٠) تفسير النيسابوري(غرائب القرآن ورغائب الفرقان) مطبوع على هامش تفسير الطبري٢٩: ٤٩.
(٢١) مفاتيح الجنان، الشيخ عبّاس القمي: ٦٣.
(٢٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الإصفهاني، مادّة (رجا).
(٢٣) أ- معاني القرآن، يحيى بن زياد الفرّاء ٣: ١٨٨.
ب- مجاز القرآن، ابو عبيده معمر بن مثّنى ٢: ٢٧٠.
ج- تفسير الطبري٢٩: ٦٠.
د- تفسير الطبرسي ١٠: ٣٦١.
(٢٤) أ- مجازات القرآن، الشريف الرضي: ٣٤٨.
ب- مفردات ألفاظ القرآن، مادّة (رجا).
ج- تفسير الطبري٢٩: ٦٠.
(٢٥) تفسير النسفي٤: ٢٩٦.
(٢٦) تفسير الرازي ٣٠: ١٣٨.
(٢٧) أ- تفسير الزمخشري٤: ٦١٧.
ب- تفسير الرازي ٣٠: ١٣٩.
ج- تفسير النسفي٤: ٣١٣.
(٢٨) في ظلال القرآن، سيد قطب٦: ٣٧١٤.
(٢٩) في ظلال القرآن ٦: ٣٧١٤.
(٣٠) نفس المصدر والصفحة.
(٣١) التفسير العلمي للآيات الكونية فى القرآن، حنفي أحمد: ١٤٤.
(٣٢) أ- تفسير الغرناطي٤: ٢٨٣.
ب- تفسير النسفي٤: ٢٩٦.
ج- تفسير الأندلسي٨: ٢٨٣.
د- تفسير الزمخشري٤: ٦١٨.
(٣٣) التفسير العلمي للآيات الكونية فى القرآن: ١٥٦-١٥٧.
(٣٤) تفسير النيسابوري٢٩: ٥٢.

(٣٥) مفردات ألفاظ القرآن، مادّة (مكر).

(٣٦) تفسير الطوسي ١٠: ١٤٠.

(٣٧) في ظلال القرآن ٦: ٣٧١٦.

(٣٨) تفسير الرازي ٣٠: ١٤٢.

(٣٩) أ- تفسير الغرناطي ٤: ٢٨٤.

ب- تفسير الأندلسي ٨: ٣٤١.

ج- تفسير الثعالبي ٤: ٣٤٥.

د- تفسير الطبرسي ١٠: ٣٦٤.

(٤٠) تفسير الرازي ٣٠: ١٤٤.

(٤١) أ- تفسير الغرناطي ٤: ٢٨٤.

ب- تفسير الأندلسي ٨: ٣٤١.

(٤٢) أ- تفسير القرطبي ١٨: ٣١٠.

ب- تفسير الطوسي ١٠: ١٤١.

(٤٣) أ- تفسير الزمخشري ٤: ٦٢٠.

ب- تفسير القرطبي ١٨: ٣١٠.

ج- تفسير الاندلسي ٨: ٣٤٣.

د- تفسير الغرناطي ٤: ٢٨٤.

(٤٤) أ- تفسير الطبرسي ١٠: ٣٦٤.

ب- تفسير الغرناطي ٤: ٢٨٤.

(٤٥) في ظلال القرآن ٦: ٣٧١٦.

(٤٦) أ- تفسير الطبرسي ١٠: ٣٦٥.

ب- تفسير القرطبي ١٨: ٣١٢.

(٤٧) في ظلال القرآن ٦: ٣٧١٧.

(٤٨) في ظلال القرآن ٦: ٣٧١٧-٣٧١٨.

مكانة العلم فى الحضارة الإسلامية

الاستاذ علي رضا ميرزامحمّد

للتعليم والتعلم أهميّة خاصة فـي الاسـلام، ولا نبالغ اذا قلنا أنّ المسلمين أسّسوا علوماً كثيرة، في شتى المجالات، وقد عمل الاستعمار الثقافي الغربي على تنويم المسلمين وحرف أفكارهم وعقولهم وقابلياتهم بشكل عجيب، مما جعلهم يظنون أنهم مدينون للغرب، على الرغم من الاعترافات الجمّة التي صرح بها بعض العلماء الغربيين، ممّن اختاروا طريق الانصاف، وبناءً على هذا الظن الكاذب انصرف المسلمون عن التحقيق والتدقيق في هذه المسألة.

ونظراً لكثرة الاعترافات التي لو جُمعت لاستوعبت كتاباً ضخماً نقتطف هنا جملة منها بشكل مختصر:

يقول العالم الفرنسي المعروف «ليبري»:

«لو لم يظهر الاسلام والمسلمون فى التاريخ لتخلّفت الحياة العلمية في أروبا عدة قرون».(١)

أمّا الكاتب الإنجليزي المعروف «برناردشو» فيقول:

«تطور العلم والفلسفة وتقدمهما فى العالم يختص بالاسلام».(٢)

ويقول المؤرّخ الفرنسي الشهير «سديلو»:

«تقدم التمدن المعاصر مدين للعلوم التي نشرها الاسلام فى الشرق والغرب، والحق يجب علينا أن نعترف بأن المسلمين يعتبرون الاساتذة الأوائل للشعوب الاوربيّة».(٣)

ويقول «جوزيف ماك كاب»:

«لا يمكن أن نجد في أيّ تاريخ أمةً تبحث عن العلم بكاملها، وينفذ العلم والفن الى هذا الحد في قلوب جميع شرائحها وطبقاتها وقطاعاتها الا في تاريخ الاسلام».(٤)

وأخيراً، هذا «ربنورت» يعترف:

«لا بدّ من الاعتراف بأن العلوم الطبيعية كالفلك والفلسفة والرياضيات التي أحيت أوروبا في القرن العاشر، كانت مأخوذة من القرآن، بل ان أوروبا مدينة لمنن الاسلام».(٥)

هذه الاعترافات تنبئ عن اهتمام الاسلام الخاص بالثقافة والعلم ونشرها وترويجها وبث روح الحرية والانسانية في الحوزات العلمية.

وكل هذا التقدم الملحوظ الذي اضطر هؤلاء العلماء الى الاعتراف بعظمته يعتمد أساساً على ثلاثة أصول هي: التعقل والتفكر، والاجتهاد والتحقيق، والمشاهدة والتجربة، وهي أصول ناشئة من القرآن وتعاليمه، وتنبثق منها ثقافة المجتمع وحضارته.

التعقل والتفكر

دعا القرآن الكريم الناس، وبشكل مستمر، الى التعقل والتفكر في عالم الطبيعة والكائنات والتأمل في أسرار آيات الله، ولا يفهم آيات الله إلاّ العالمون العاقلون كما تبيّن ذلك الآيات التالية:

١-﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيٰحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيٰتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:١٦٤).

٢-﴿وَمِنْ ءَايٰتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيٰتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(الروم:٢٤).

٣- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرٰتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيٰتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(النحل:١٢).

٤-﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيٰتٍ

لأوْلِي الألْبَـٰبِ*الَّذِينَ يَـذْكُـرُونَ اللهَ قِيَـٰماً وَقُعُـوداً وَعَلَـىٰ جُنُـوبِهِـمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـقِ السَّمٰوٰتِ وَالأرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هـٰذَا بـٰطِلاً سُبْحـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(آل عمران:١٩٠-١٩١).

ولـو أمعنّا النظـر فـي هذه الآيـات لوجدنا تعريف العقل و أوصاف العقلاء، حيث يفسر القرآن «أُولوالألباب» بمعنىٰ: العقلاء الذين يذكرون اللّٰه دائماً وفي كل حال، ويـداومون علـى التفكير فـي خلق السموات والارض.

وبعبارةأخـرىٰ: إنّ الذكـر والتفكير هما العضـدان القويـان للعقل، فـالذكـر يبقى الانســان في طـريق الحـق، والفكر يقـوده نحو اكتشـاف الحقائق، وهـؤلاء الذيـن يذكـرون ويتفكرون ينـادون من أعماق قلـوبهم و أرواحهـم أن «ربّنا مـا خلقتَ هذا باطلاً سبحانك».

٥-﴿هُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ مِنَ السَّمَـاءِ مَاءً لَكُـم مِنْهُ شَـرَابٌ وَمِنْهُ شَجَـرٌ فِيهِ تُسِيمُـونَ*يُنْبِـتُ لَكُـمْ بِـهِ الـزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأعْنَـٰبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَـرٰتِ إنَّ فِـي ذٰلِـكَ لآيَـةً لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل:١٠-١١).

٦-﴿وَسَخَّرَ لَكُـم مَا فِـى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الأرْضِ جَمِيعاً مِنْـهُ إنَّ فِي ذٰلِكَ لآيـٰتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الجاثية:١٣).

٧-﴿وَمِنْ ءَايـٰتِهِ خَلْقُ السَّمٰـوٰتِ وَالأرْضِ وَاخْتِلـٰفُ ألْسِنَتِكُـمْ وَألْوٰنِـكُمْ إنَّ فِي ذٰلِكَ لآيـٰتٍ لِلْعـٰلِمِينَ﴾ (الروم:٢٢).

ومن مطـالعة الآياتِ والامعـان فيها يتّضـح أنّ ثمة ارتباطاً معنـوياً وثيقاً بين العقـل والعلم والتفكـر، ووجه الاشتـراك بينها أنها جميعاً تطلـق على الادراك. وقد استخدم القرآن هذه الالفـاظ للدلالة على الادراك وأنـواعـه كما استخـدم ألفـاظـاً أخـرى بنفس المعنـى، مـن قبيل الظـن، والشعور، والذكر، والعـرفان، والمعرفة، والفهـم، والفقـه، والــدرايـة، واليقيـن، والـرأي، والـزعـم، والحفـظ ، والحكمـة، والخبرة، والشهادة.

وبناءً علـى هذا فالعلم بـدون تعقل وتفكر والتزام يغاير روح التعليم والتربية القرآنية.

وهناك جملـة من الروايـات الواردة فى التعقـل والتفكر ننقلهـا من الأصـول الروائية والأخلاقية المعتمدة.

١- عن الامام علي(عليه السّلام): «اعقلوا الخير اذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية، فانّ رواة العلم كثير ووعاته قليل».(٦)

٢- عن الامام الصادق(عليه السّلام): «وعامة الانسان العقل، ومن العقل الفطنة والفهم والحفظ والعلم، فاذا كان تأييد عقله من النور كان عالماً حافظاً زكياً فطناً فهماً. وبالعقل يكمل وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره».(٧)

وهناك روايات كثيرة رويت عن الامام علي(عليه السّلام) في باب العقل نقتطف منها بعضها:

٣- «إعقل تدرك».(٨)

٤- «مَن عقل فهم».(٩)

٥- «العقل أصل العلم ودعامة الفهم».(١٠)

٦- «العقل مَركب العلم».(١١)

٧- «بالعقل يستخرج غور الحكمة».(١٢)

٨-«بالعقول تنال ذروةالعلوم».(١٣)

٩- عن الامام الكاظم(عليه السّلام): «لكل شيء دليل ودليل العاقل التفكر ودليل التفكر الصمت».(١٤)

١٠- عن الامام علي(عليه السّلام) : «من أكثر الفكر فيما تعلم اتقن علمه وفهم ما لم يكن يفهم».(١٥)

١١- «تفكرك يفيدك الاستبصار ويكسبك الاعتبار».(١٦)

١٢- «لا علم كالتفكر».(١٧)

١٣- «الفكر ينيراللبّ».(١٨)

١٤- «من أسهر عين فكرته بلغ كنه همته».(١٩)

١٥- عن الرسول الاكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «عوّدوا قلوبكم الترقب وأكثروا التفكر والاعتبار».(٢٠)

وقد تحدث الكثير من العلماء والفضلاء في هذا المضمار، على غرار كلمات النبي(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وأهل البيت الاطهار (عليهم السلام) يمكن الرجوع اليها في مظانها(٢١) ومن هنا يعتبر التفكر من خواص العقل البشري و علامته الصمت.

قال الامام علي(عليه السّلام):«العاقل اذا سكت فكّر، و اذا نطق ذكّر، و اذا نظر إعتبر».(٢٢)

وقد عبر ابن أدهم عن هذا الترابط بين العقل و الفكر ببيا ن آخر، حيث قال:

«التفكر مخّ العقل ومن لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو».[٢٣]

الإجتهاد والتحقيق

لم يتوقف الاسلام عند حد التعقل والتفكر، وانما شملت تعاليمه القرآنية وما أثر عن أحاديث الأئمة المعصومين وحكمهم الاجتهاد والتحقيق، لأنها من أهم مراحل استكمال النظريات العلمية.

ولابد من التنويه الى أن المقصود من الاجتهاد مفهومه العام لا معناه المصطلح، والاجتهاد بالمعنى العام يعني بذل الوسع للحصول على نتيجة علمية، وبديهي أن التقليد الأعمى هنا مذموم والاعتماد على الظن مرفوض.

١-﴿وَالَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:٦٩).

٢-﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَـٰلَمِينَ﴾ (العنكبوت:٦).

٣-﴿وَأَن لَيْسَ لِلإِنْسَـٰنِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ*وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ (النجم:٣٩-٤٠).

و ورد في النصوص الروائية الحديث عن السعي والاجتهاد في العقيدة والعمل والبحث حتى الوصول الى درجة اليقين:

عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم):

١- «ان اللّه تعالى كتب عليكم السعي فاسعوا».[٢٤]

٢- «افضل الناس رجل يعطي جهده».[٢٥]

كما ورد عن الامام علي(عليه السّلام) جواهر ثمينة وكلمات قيمة في باب الاجتهاد والتحقيق:

٣- «قد سعد مَن جدّ».[٢٦]

٤- «قرن الاجتهاد بالوجدان».[٢٧]

٥- «من أعمل اجتهاده بلغ مراده».[٢٨]

٦- «من بذل جهد طاقته بلغ كنه ارادته».[٢٩]

٧- «من استدام قرع الباب ولجّ ولج».[٣٠]

٨-«من يُدمن قرع الباب يلج».[٣١]

٩- «ما أدرك المجدَ من فاته الجدُّ».[٣٢]

١٠- «عليكم بالجد والاجتهاد».[٣٣]

١١- «اجتهد فى العلم».[٣٤]

١٢- «العاقل يجتهد في عمله».[٣٥]

١٣- عن الامام الرضا(عليه السّلام): «من سأل الله التوفيق ولم يجتهد فقد استهزأ بنفسه».[٣٦]

١۴- عن الامام علي(عليه السّلام): «لا سنة أفضل من التحقيق».[٣٧]

١۵- «لا ينفع اجتهاد بغير تحقيق».[٣٨]

ويشير هذا الحديث، الى أن الاجتهاد والسعي في كل أمر يؤدي الى اليقين، وكل أمر ليس فيه تحقيق ومطالعة يكون عقيماً، أو يؤدي الى نتائج ظنية، أو يغلب عليه طابع التقليد والاتباع.

١۶- عن الامام الصادق(عليه السّلام): «لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه».[٣٩]

يلاحظ فى الروايات المذكورة وخصوصاً فى الأخيرة أن البحث والتحقيق والتقوى والورع أعمدة قوية لجهد الانسان وجده، توصله الى النتائج المطلوبة في كل الامور، بما فيها المباحث العلمية. وهذا النمط من التعلم والتلقي ممدوح فى الاسلام حين يكون هادفاً أولاً ولا يعتمد التقليد والظن ثانياً.

وبناءً على هذا فان أحد العوامل الاساسية فى ازدهار الحضارة والتمدن الاسلامي هو روح الاجتهاد والتحقيق والبحث عند المسلمين فى القضايا العلمية وأسس المعرفة.

المشاهدة والتجربة

ان روح الابتكار والاختراع والشمول التى امتاز بها المسلمون في المجالات العلمية، فتحت باب التجربة في كثير من العلوم، التي لا تنال نتائجها الا بالتجربة، وهذه الروح السارية في علماء المسلمين هي ثمرة من ثمار التعاليم الاسلامية العميقة والافكار القرآنية.

والقرآن الكريم يدعو الانسان الى التعقل والتدبر والتفكر في مظاهر الوجود والكون، وبذل الجهد والاجتهاد والتمعّن من أجل المعرفة الحقيقية، بالاضافة الى دعوته الناس الى السير فى الارض، والتفكر في خلق السموات والارض لكسب التجارب العملية، وقد

جاءت آيات كثيرة في هذا المضمون، ننقل هنا فيما يلي نماذج منها:

١- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا...﴾(الحج:٤٦).

٢- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ*قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(العنكبوت:١٩-٢٠).

٣- ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنٰهَا وَزَيَّنّٰهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ*وَالْأَرْضَ مَدَدْنٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ*تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾(ق:٦-٨).

٤- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحج:٦٥).

٥- ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ*وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ*وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ*وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾(الغاشية:١٧-٢٠)

٦- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنّٰتٌ مِنْ أَعْنٰبٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشٰبِهٍ انْظُرُوا إِلىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذٰلِكُمْ لَآيٰتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام:٩٩).

٧- ﴿تَبٰرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ*الَّذِي خَلَقَ الْمَوتَ وَالْحَيٰوةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ*الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ طِبَاقاً مَا تَرىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفٰوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾(الملك:١-٣).

نلاحظ في الآيات المذكورة أنّها تربط بين المشاهدة العميقة والملاحظة الدقيقة والتأمّل والتفكر والتعقل والدعوة الى السير في الارض والسياحة الهادفة، وتؤكّد أيضاً أن المعرفة التجريبية توصل العلماء الى اليقين، وتجنّبهم العمل بالظن والاعتماد عليه، كما تدل عليه الألفاظ

الواردة في الآيات، من قبيل «يعقلون»، «يسمعون»، «تبصرة»، «ذكرى»، «يؤمنون».

وثمة نصوص حديثية تعرضت للمشاهدة والتجربة كثيراً، وهي تؤكد على أهميّة التجربة والملاحظة، وتبين العلاقة والارتباط بين التجربة وبين العقل والعلم والجزم والرأي وغيرها من الألفاظ المستعملة في أنواع الادراك، وفيما يلي طائفة من هذه الروايات، وهي تشير أيضاً الى اعتماد بعض العلوم والأفكار على التجربة:

١- عن الامام علي(عليه السّلام): «وفي التجارب علم مستأنف».(٤٠)

٢- وعن الامام علي(عليه السّلام) أيضاً: «التجارب علم مستفاد».(٤١)

٣- وعنه(عليه السّلام): «العقل حفظ التجارب».(٤٢)

٤- وعنه(عليه السّلام): «حفظ التجارب رأس العقل».(٤٣)

٥- وعنه(عليه السّلام): «العقل عقلان: عقل الطبع وعقل التجربة وكلاهما يؤدي الى المنفعة».(٤٤)

٦- وعنه(عليه السّلام): «العقل غريزة تزين بالعلم والتجارب».(٤٥)

٧- وعن الامام الحسين(عليه السّلام): «طول التجارب زيادة في العقل».(٤٦)

٨- وعن الامام علي(عليه السلام): «التجارب لا تنقضي والعاقل منها في زيادة».(٤٧)

٩- وعنه(عليه السلام): «إنّ الشقي من حرم نفع ما أُوتي من العقل والتجربة».(٤٨)

١٠- وعنه(عليه السّلام): «الظفر بالحزم والحزم بالتجارب».(٤٩)

١١- وعنه(عليه السّلام): «الحزم حفظ التجربة».(٥٠)

١٢- وعنه(عليه السّلام): «من الحزم حفظ التجربة».(٥١)

١٣- وعنه(عليه السّلام): «من يجرّب يزدد حزماً».(٥٢)

١٤- وعن النبي الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «لا حكيم الاّ ذوتجربة».(٥٣)

١٥- وعن الامام علي(عليه السّلام): «رأي الرجل على قدر تجربته».(٥٤)

١٦- وعنه(عليه السّلام): «أملك الناس لسداد الرأي كل مجرب».(٥٥)

١٧- وعنه(عليه السّلام): «من حفظ

التجارب أصابت أفعاله».[٥٦]

وهكذا نجد أهمية المشاهدة والتجربة في النتائج القطعية التي يتوصل اليها العلماء، حتى يبتعدوا عن أي تقليد وظن. وهذه التأكيدات التي وردت ضمن تعاليم القرآن وسيرة المعصومين حثّت العلماء المسلمين على التمعّن والتحقيق والتجربة. ولنا في المؤلفات والمصنفات والاكتشافات القيمة في مجال الثقافة والتمدن الاسلامي خير شاهد ودليل، كما شهد بذلك الدكتور «هونكه»[٥٧] والدكتور «سامي النشار المصري»[٥٨] حيث كانت النظريات توزن بميزان التجربة العلمية، فترد أو تقبل على هذا الأساس.

وكمثال على ذلك علم الفلك الذي كان عند المسلمين بطابعه الاستقرائي العلمي، وكانت لهم في هذا المجال تجارب هامّة في حين كان هذا العلم نظرياً صرفاً قبل ذلك.

وكان «إبن الهيثم» العالم الفيزيائي يجسِّد الروح التجريبية، حيث دمج بين النظرية والتجربة. وكذلك «إبن سينا» الذي بنىٰ نظريته في علم النفس (العلاقة بين النفس والبدن) على أُسلوب المشاهدة والتجربة، وكان «الرازي» الطبيب الايراني معروفاً بعلاقته بالمعرفة التجريبية، حيث كان يجرب الأدوية على الحيوانات أولًا، ثم يصفها للناس. وكذلك كان «جابر بن حيّان» العالم الكيميائي المعروف.

والجدير بالذكر أن بعض التجارب لا تتيسر إلاّ من خلال السفر والسير في الارض، وأن التجارب لم تنحصر في العلوم الطبيعية والرياضية، وانّما سرت الى العلوم الانسانية.[٥٩]

النقد والمناقشة

والآن وقد اتضح -الى حدٍّ ما- دور الأصول الثلاثة (التعقل والتفكر، الاجتهاد والتحقيق، التجربة والمشاهدة) في حقل البحوث العلمية الاسلامية، ينبغي أن نقول كلمة عن النقد والمناقشة العلمية، لما لها من أهميّة كبرى في هذا المجال. وخصيصة النقد، شأنها شأن الأصول الثلاثة المذكورة في ابتنائها على أصول القرآن وتعاليمه الحكيمة.

قال الامام الحسين(عليه السّلام): «ومن دلائل العالم انتقاده لحديثه و علمه بحقائق النظر».[٦٠]

وقد عمل العلماء المسلمون على هذا الاساس حيث كانوا يطوون مدارج العلوم، ويبلغون حد التخصص والغوص العميق، ثم يأخذون بالنقد والمناقشة لنظريات الآخرين وافكارهم، كما فعل «الخواجة نصير الدين الطوسي» عندما ناقش في كتابه (التذكر) نظرية «بطلميوس» في الهيئة، وانتقدها انتقاداً شديداً، واقترح نظرية رائعة في مقابلها.

ولم تنحصر هذه الروح الحرة في الحوار والنقد، على مناقشة العلماء غير المسلمين، وإنّما شملت العلماء المسلمين فيما بينهم، وكنموذج على ذلك الانتقاد الشديد الذي وجهه «ابن ادريس الحلي» لشيخ الطائفة «ابي جعفر الطوسي» الذي حكمت فتواه و آراؤه العلميّة فلم يتعرض لها أحد، ردحا طويلاً من الزمن.[٦١]

والنقد –سواء كان من قبل المؤلف نفسه، أو من قبل الآخرين – ظاهرة حضارية تحصن العلم والثقافة من الانحراف، وتحيي القيم الانسانية.

وثمة نكات قيمة في هذا المجال يمكن استخلاصها من «مقدمة ابن خلدون»[٦٢] لا يخلو ذكرها من فائدة:

أ- الحذر من العلائق الشخصية والميول النفسية بشكل مطلق، وبهذا نحافظ على الموضوعية في العلم والمعرفة، ونراعي الانصاف و عدم الانحياز في القضايا العلمية والثقافية.

ب- الأخذ بنظر الاعتبار ملاحظات النقاد المتخصصين و آرائهم، الأمر الذي يؤدي الى مراعاة الموازين العلمية في البحث، ويكون الكاتب هو الناقد الأول لعمله.

ج- اجتناب الباحث قلب الحقائق العلمية عمداً أو سهواً، وهذا يعبر عن التزام المفكر، وشعوره بالمسؤولية.

د - الاهتمام الجدي بالفحص والتتبع والتحقيق الكافي، من أجل الوصول الى التنائج المنطقية المعقولة.

ونلاحظ من خلال ما قدمناه، أن «ابن خلدون» يعد النقد والمناقشة الدقيقة من الضروريات العلمية، وعليه فكل من ينحرف عن الأصول والموازين

العلميه الأخلاقية يعتبر من المستهزئين بآيات اللّه عند «ابن خلدون».

وقد اعترف الغربيون بسبق المسلمين في هذا المضمار، واقتدوا بهم في إنشاء المدارس، والمكتبات، والجامعات، والمراكز العلمية فى الغرب. واستفادوا كثيراً من المسلمين في مناهجهم العلمية، بل اقتبسوا من الكتب المدرسية الاسلامية، وانطلقوا منها في حركتهم العلمية.

الهدفية والإلتزام

لو القينا نظرة شامله عميقة على تاريخ العلم فى الاسلام، لاتضح لنا بأن النجاح والمجد والعظمة التي حققها المسلمون فى المجال الحضاري ناشئة عن ايمانهم بدينهم، واستلهامهم لمبادئه وتعاليمه التي تعتبر الانسان كائناً نموذجياً يمكنه بلوغ ذرى الكمال والمعرفة: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ (الإسراء: ٧٠).

وبناءً على هذا، كان العلماء المسلمون يركزون على الرقي والكمال في سلوكهم العلمي والعملي، ويرتبطون ارتباطاً اساسياً بمصدر المعرفة والعلوم، أي القرآن الكريم.

وقد قسم العلماء المسلمون العلوم دنيوية ودينية الى قسمين:[٦٣] العلوم العقلية والعلوم النقلية.

أمّا العلوم النقلية فتشتمل على علوم الشريعة والأدب، وهي تنبع مباشرة من كتاب اللّه، والعلوم العقلية تعرضت الى نقلة نوعية أساسية في ظل التعاليم القرآنية، بالرغم من وجودها قبل الاسلام.[٦٤]

فالتعليم والتعلم يفتح طريق التقدّم والرّقي فى المجتمع الاسلامي، وينهي احلام المستعمرين، ما دام موافقاً للاهداف القرآنية والقيم الاسلامية، وقد جاءت النصوص الصريحة فى القرآن تؤكد على اشتراط الدعوة الى الدين عن علم و وعي، ولا يتأتى ذلك إلاّ من خلال طلب العلم. والايمان واجب وطلب العلم مقدمته، فتكون واجبة وفرضاً، ومن هناك قال الرسول الأكرم(صلّى الله عليه وآله وسلّم): «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».[٦٥]

وهناك عاملان مهمان في مجال التعليم والتعلم، وهما: التقوىٰ والالتزام، والنظرة الاسلامية السليمة، والعالم الجامع لشرائط العلم يعد عالماً ربّانياً، ووارثاً للانبياء، وأمين اللّه في خلقه، ويرجح مداده دماء الشهداء، ويخلد ذكره في العالمين.

وما لم يقترن العلم بالهداية والتقوى سوف يؤول بصاحبه الى الابتعاد عن اللّه عزوجل، فَيَفسُد ويُفسِد معه المجتمع، ويبقى علمه عقيماً لا نفع فيه. «نعوذ باللّه من علم لا ينفع».(٦٦)

وقد مثّل اللّه سبحانه هؤلاء العلماء بالحمار يحمل اسفاراً، فقال: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرٰيةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً..**﴾(الجمعة:٥).

بينما نجد الانسان الذي تبلور فيه العلم والعمل لا يفكر بنفسه تفكيراً انانياً، ولا يغرق في الدعة والاسترخاء والاستعلاء على الآخرين، ولا يمرّ مرور الكرام على ما يراه من معاناة المجتمع وابتلاءاته، وبعبارة واحدة لا يغرق في وحل الشهوات، ومستنقع الافكار الشيطانية، وإنّما نجده عاملاً دؤوباً، يحيي القيم، ويبث الوعي، ويحل العقد، ويسد الثغرات، ويؤدى الوظائف فرديةً واجتماعيةً، ويسعى جاهداً فى اللّه لنيل رضوانه، ولهذا كان العلماء المسلمون على امتداد التاريخ يوظفون العلم في خدمة الانسان، انطلاقاً من الهدفية والالتزام اللذَين تعلموهما من هذا الدين المقدس.

هذان العاملان (الهدفية والالتزام) مؤثران في حد ذاتها في تكريس حالة الجد والدقة العلمية، ورعاية الموازين والمعايير كاملة غير منقوصة.

موازين قيمة العلم فى الاسلام

بيّن الاسلام بياناً وافياً أهمية العلم وفضيلة التعلم والتعليم، وآداب المعلم والمتعلم، ومسؤولية العلماء ومقامهم، وقد حرّر العلماء كتباً قيمة في هذا المضمار.

وبالرغم من أهمية الموضوع وضرورة التأمل في نصوص القرآن والسنة الخاصة بهذا الحقل، إلاّ أنّ هذا المقال لا يتسع لتناولها جميعاً، ولكن «مالا يدرك كله لا يترك جلّه»، لذا

سنستعرض فيما يلي بعض تلك النصوص الشريفة، مبوبة تحت عناوين خاصة.

أ- منزلة العلماء الأبرار

القرآن الكريم:

١-﴿. . .يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ. . .﴾(المجادلة:١١).

٢-﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لايَعْلَمُونَ﴾(الزمر:٩).

الرسول الأكرم(صلّى الله عليه وآله وسلّم):

٣- «... أكثر الناس قيمةً أكثرهم علماً، وأقل الناس قيمةً أقلّهم علماً».[٦٧]

٤- «العلماء ورثة الأنبياء».[٦٨]

٥- «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».[٦٩]

٦- «اذا كان يوم القيٰمة يوزن مداد العلماء مع دماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء».[٧٠]

٧- «نوم العالم أفضل من عبادة العابد الجاهل».[٧١]

٨- «العلماء أُمناء اللّه على خلقه».[٧٢]

الامام علي(عليه السّلام):

٩- «العلماء حُكّام على الناس».[٧٣]

١٠-«العالم حيّ وإنّ كان ميتاً».[٧٤]

١١- «قيمة كل امرئٍ ما يعلمه».[٧٥]

ومن نافلة القول أن نذكر بأن هذا التكريم والتعظيم إنّما هو للعلماء الواعين المتقين، وليس لأدعياء العلم الذين مايزالون فى المراحل الأولى من التعلم، ولا للعلماء الذين يفتقرون الى الصلاح والتدين، ويعجزون عن إرشاد الامة وتوجيهها.

ب- العلم والعمل

القرآن الكريم:

١-﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ. . .﴾(البقرة:٤٤).

٢-﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾(الصّف:٢).

٣-﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰؤُا﴾(القاطر:٢٨).

الرسول الأكرم(صلّى الله عليه وآله وسلّم):

٤- «مَثَل العالم الذي يُعلّم الناس الخير وينسىٰ نفسه كمَثَلِ السِراج يُضيءُ للناس ويحرق نفسه».[٧٦]

٥- «إنّي لا أخاف عليكم فيما لا تعلمون، ولكن انظروا كيف تعملون فيما تعلمون».[٧٧]

٦- «من ابتغىٰ العلم ليخدع به الناس لم يجد ريح الجنة».[٧٨]

٧- «لا يكون المرء عالماً حتى يكون لعلمه عاملاً».[٧٩]

٨- «من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من اللّه الاّ بُعداً».[٨٠]

٩- «نعوذ باللّه من علم لا ينفع».[٨١]

الامام علي(عليه السّلام):

١٠- «علم بلا عمل كشجر بلا ثمر».[٨٢]

١١- «آفة العامة، العالم الفاجر».[٨٣]

١٢- «رُبّ مُدّعٍ للعلم ليس بعالم».[٨٤]

١٣- «رُب عالم غيرمنتفع».[٨٥]

١٤- «علم لا ينفع كدواء لا ينجع».[٨٦]

والعلم النافع إنّما هو العلم الممزوج بالايمان والعمل. والعالم الحقيقي هو العالم الذي يجسّد العلم بالعمل وينطلق في سلوكه منه، ويدأب على الحضور فى المجتمع، ويترفع عن الكبر والطمع وسفاسف الدنيا، وكل الخصال الذميمة الأخرى.

ج- أهمية فريضة طلب العلم

لا توجد أيّة حدود أمام طلب العلم، كما أن العلم لا تحده حدود معينة، قال أميرالمؤمنين(عليه السّلام): «العلم لا ينتهي»[٨٧]، وقال رسول اللّه(صلّى الله عليه وآله وسلّم): «منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال».[٨٨]

ولا يخفى أن طلب العلم فريضة واجبة إن وجوباً عينياً كالعلوم التي تعد مقدمة للايمان، أو كفائياً كالعلوم التخصصية الأخرى التي قد تكون عينية وقد تكون كفائية[٨٩] حسب الحاجة.

وهذا الوجوب الذي قررته الشريعة أصبح عاملاً مهماً، من عوامل تعميم العلم على الناس جميعاً، بالاضافة الى ما يقوم به العلماء من تعليم الناس، انطلاقاً من الأدب الاسلامي والخوف من كتمان الحق.

وهنا نحاول اثبات أهميّة طلب العلم دونما حدود أو قيود، وتعميمه على الناس أجمعين:

١- العلم للجميع:

«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».[٩٠]

٢- العلم ليس له حدود:

«العلم لا يحل منعه».[٩١]

٣- العلم لا يحدّه زمان:

«اطلبوا العلم من المهد الى اللحد».[٩٢]

٤- العلم لا يحده مكان:

«اطلبوا العلم ولو بالصين».[٩٣]

٥- حرية اختيار الاستاذ:

«الحكمة ضالة المؤمن، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق».[٩٤]

وثمة أحاديث أخرى رويت عن عظماء الاسلام تؤكد على أن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أينما وجدها، ولو كانت عند مشرك أو منافق، ولكن النكتة التي ينبغي الالتفات اليها، أن أميرالمؤمنين(عليه السّلام) عبّر بلفظ «المؤمن»، والمراد منه من استحكم دينه، ونفذت بصيرته، وبلغ من العلم ما يمكنه من تمييز الحق عن الباطل، بحيث لا تنطلي عليه دسائس الكفار والمنافقين.

والنصوص التالية تؤكد هذا الأمر:

«خذوا الحكمة من المشركين».[٩٥]

«الحكمة ضالة المؤمن، فاطلبوها ولو عند المشرك تكونوا أحق بها وأهلها».[٩٦]

«الحكمة ضالة كل مؤمن، فخذوها ولو من أفواه المنافقين».[٩٧]

«ان الكلمة من الحكمة للتتلجلج في صدر المنافق نزاعاً الى مظانها حتى يلفظ بها فيسمعها المؤمن فيكون أحق بها وأهلها فليلقفها».[٩٨]

«خذ الحكمة أنّى كانت فان الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجلج في صدره حتى تخرج وتسكن الى صواحبها في صدر المؤمن».[٩٩]

«ضالة العاقل الحكمة فهو أحق بها حيث كانت».[١٠٠]

«ضالة الحكيم الحكمة فهو يطلبها حيث كانت».[١٠١]

الرسول الأكرم(صلّى الله عليه وآله وسلّم):

«الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ممن

سمعهـا ولا تبـالـي مـن أي وعـاء خرجت».[١٠٢]

«كلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها».[١٠٣]

«العلم ضـالة المـؤمن حيـث وجده أخذه».[١٠٤]

و روي عـن السيـد المسيـح(عليه السّلام) انه قال:

«... ينبغي لكـم أن تأخـذوا الحكمة ممن وجدتموها معه ولا يمنعكم منه سوء رغبته فيها».[١٠٥]

«خـذوا الحـق مـن أهـل البـاطـل، ولا تأخذوا البـاطل من أهل الحـق كونوا نقاد الكلام».[١٠٦]

وهذه النصوص تؤكد على التسامح واجتنـاب العصبيـة فـي طلـب العلـم، والسعي لاكتساب ونشـره، بِغضّ النظر عمّن يـؤخذ، ومـن أين يـؤخذ، فـالحكمة غريبة أينما كانت حتى تعود الى موطنها الأصلي وهو «قلب المؤمن».

وقـد تعلـم المسلمـون مـن نبيهـم الأكرم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) أن القلب الذي لا يستوعب الحكمة قلب خاو كبيت خرب:

«قلب ليـس فيه شيء من الحكمـة كبيت خرب، فتعلّموا وعلّموا و تفقّهوا ولا تموتوا جهـالاً، فـان اللّـه لا يعـذر علـى الجهل».[١٠٧]

وهذا التسـامح وعدم العصبيـة من أهم العوامل المؤثـرة في تقدم المسلمين وتطورهم الحضاري.

٦-التـأكيـدالشـديـد علـى قيمةالعلم:

الامام السجاد(عليه السّلام):

«لو يعلـم الناس ما في طلـب العلم لطلبـوه ولـو بسفـك المهـج وخـوض اللجج».[١٠٨]

٧- التأكيد على نشر العلم:

الامام علي(عليه السّلام):

«ملاك العلم نشره».[١٠٩]

«من كتم علماً فكأنه جاهل».[١١٠].

«كل شـيء ينقص علـى الانفاق إلاّ العلم».[١١١]

وهذه الاحـاديث وغيرها كثيـر تدل بوضـوح على مدى اهتمام الاسـلام منذ صـدر الـدعـوة بالتعليـم والتعلـم، كمـا نستفيـد ذلـك من قصـة اطـلاق سـراح أسرى بـدر، بعد تعليـم كل واحـد منهم عشرة مـن أطفال المسلمين، حيث لَوّح

النبي(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بهذا الفعل الى تساوى الحرية والتعليم، وتساوى العلم بالتحرر من الاسر والقيود.

كما أن النبي الأكرم(صلّى الله عليه وآله وسلّم) بذاته مبعوث من أجل هذا الغرض:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ﴾(الصّفّ:٢).

ويستفاد مما مرّ أن كمال الانسان وقيمته رهين بعلمه وبصيرته، وأن طلب العلم يسمو بالانسان عن الحيوانية، ويصبغه بالصفات الملكوتية، ويبلغه سعادة الدنيا والآخرة، كما قال الامام علي(عليه السّلام): «لا عزّ أشرف من العلم»[١١٢]، و«قيمة كل امرئٍ ما يعلمه».[١١٣]

وفي بيت منسوب للامام أميرالمؤمنين(عليه السّلام):

وقيمة المرء ماقد كان يحسنه

والجاهلون لأهل العلم أعداء[١١٤]

وانطلاقاً مما مرّ بيانه يتضح أن العلم وطلبه اذا اقترن بالأدب القرآني والروح الاسلامية، يكون عاملاً على التقدم والتطور الحضاري في كل مجالات الحياة الاجتماعية، والصناعية، والفنية و غيرها.[١١٥]

الهوامش

---

(١) ايدئولوژي وفرهنگ اسلام از ديدگاه ژول لابوم:٣٥٦.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

(٦) نهج البلاغة: ٤٨٥.

(٧) مستدرك سفينة البحار٧:٣١٣، المحجة البيضاء ١:١٧٤.

(٨) غرر الحكم ودرر الكلم شرح الخوانساري٢:١٧٣.

(٩) المرجع السابق:٩١.

(١٠) المرجع نفسه:٩١.

(١١) المرجع نفسه١:٢٠٥ و ٢٥٩

(١٢) المرجع السابق٣:٢٠٤.

(١٣) المرجع السابق٣:٢٢١.

(١٤) تحف العقول عن آل الرسولْ:٢٨٦.

(١٥) غررالحكم٥:٢٩٧.

(١٦و١٧) غررالحكم ٢:٣١٦.

(١٨) نهج البلاغة:٤٨٨.

(١٩) غررالحكم ١: ١٠٠.

(٢٠) المرجع السابق٥:٣٦٨.

(٢١) الجامع الصغير٢:٦٧ وفيض القدير٤:٢٢٧.

(٢٢) غرر الحكم ودرر الكلم٢:٥٥.

(٢٣) فيض القدير٤:٢٦٧.

(٢٤) الجامع الصغير١:٧١ وفيض القدير٢:٥٠.

(٢٥) المرجع السابق١:٥١.

(٢٦) غرر الحكم ودرر الكلم٤:٤٦٥.

(٢٧) المرجع السابق٣:٤٩٤.

(٢٨ و٢٩ و٣٠) المرجع السابق:٢١٨ و ٣٦٨ و ٤٥٧.

(٣١) سفينة البحار٢:٥.

(٣٢) غرر الحكم٦:١١٥.

(٣٣) نهج البلاغة: ٣٥٢.

(٣٤) بحارالأنوار٧٧:١٧١.

(٣٥) ميزان الحكمة ٦:٤١٥.

(٣٦) بحار الأنوار٧٨:٣٥٦.

(٣٧) غرر الحكم ودرر الكلم٦:٣٨١.

(٣٨) المرجع السابق٦:٣٨٧.

(٣٩) الكافي٢:٧٧.

(٤٠) الكافي٨:٢٢، تحف العقول:٩٦.

(٤١) غرر الحكم ودرر الكلم١:٢٦٠.

(٤٢) المرجع السابق:١٧٦.

(٤٣) المرجع السابق٣:٤٠٧.

(٤٤) مستدرك سفينة البحار٧:٣١٩.

(٤٥) غرر الحكم ودرر الكلم٢:٣٢.

(٤٦) بحار الانوار٧٨:١٢٨.

(٤٧) غرر الحكم و درر الكلم١:٣٩٧.

(٤٨) نهج البلاغة:٤٦٦.

(٤٩ و ٥٠) غرر الحكم ودرر الكلم١:٢١ و٣٨.

(٥١) المرجع السابق٦:٣٥.

(٥٢) المرجع السابق٥:٢٠٣.

(٥٣) الجامع الصغير٢:٢٠٢، كنوز الحقائق٢:١٦٥.

(٥٤) غرر الحكم ودرر الكلم٤:٩٥.

(٥٥) المرجع السابق٢:٤٠٨.

(٥٦) المرجع السابق٥:٤٦١.

(٥٧) فرهنگ اسلام در اروپا: ٣١٠-٣١١.

(٥٨) دانش مسلمين:١٤٠.

(٥٩) انظر: دانش مسلمين، كارنامه اسلام، علم النفس لابن سينا، فرهنگ اسلام در اروپا و تاريخ آداب اللغة العربية لحنا الفاخوري٢:٢٣٧ ومروج الذهب للمسعودي١:٩٩.

(٦٠) تحف العقول:٢٤٨.

(٦١) هدية الاحباب:٩ والتبيان في تفسير القرآن، المقدمة١:(ح).

(٦٢) انظر مقدمة ابن خلدون (المقدمة).

(٦٣) تاريخ ادبيات ايـران، الدكتور صفا ٦٥:١.

(٦٤) القـرآن فـي الاسـلام، العـلامـة الطباطبائي:١٣٩.

(٦٥) نهج الفصاحة:٤٠٣.

(٦٦) المحجة البيضاء ١:٦٨.

(٦٧) سفينة البحار ٢:٦٠.

(٦٨) المحجـة البيضـاء١:١٣، كنـوز الحقائق٢:٢١، فيض القدير ٤:٣٨٤.

(٦٩) المرجع السابق ١:١٦.

(٧٠) ارشاد القلوب١:١٦٥.

(٧١) بحار الأنوار٧٧:٥٧.

(٧٢) الجـامـع الصغيـر٢:٦٩، فيـض الغدير٤:٣٨٢، كنوز الحقائق٢:٢١.

(٧٣) غرر الحكم ودرر الكلم١:١٣٧.

(٧٤) المصدر السابق١:٢٩١.

(٧٥) المحجة البيضاء١:٢٦.

(٧٦) فيض القدير٥:٥٠٨.

(٧٧) المرجع السابق.

(٧٨) نهج الفصاحة:١٩٣.

(٧٩) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر٢:٥٣.

(٨٠) المحجة البيضاء١:١٢٥.

(٨١) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر٢:٢١.

(٨٢) المحجة البيضاء١:٦٨.

(٨٣) غرر الحكم ودرر الكلم٤:٣٥٠.

(٨٤) المصدر السابق٣:١٠٨.

(٨٥) المرجع السابق٤:٧٧ و٧٨ و ٣٥٠.

(٨٦) المـرجـع السـابـق٤:الصفحـات السابقة.

(٨٧) غرر الحكم ودرر الكلم١:٢٦٣.

(٨٨) نهج الفصاحة:٥٦٨.

(٨٩) الوجـوب العيني: هو الوجـوب الذي يخاطب به الملكفون جميعاً فرداً فرداً ولا يسقط عن بعـض بأداء الآخريـن مثل وجـوب الصلاة اليومية.

والوجوب الكفـائي: هو الوجوب المتـوجه للجميع ولكنّه يسقط بأداء البعض اذا كان فيهم الكفـاية، مـن قبيل وجـوب الـدفاع عـن الارض الاسـلاميـة أو تعلـم علوم الطب و الهنـدسـة وغيرهما عن العلوم الأخرى.[المترجم]

(٩٠) نهج الفصاحة:٤٠٣.

(٩١) الجـامـع الصغيـر٢:٧٠، كنوزالحقائق٢:٢١، فيض القدير٤:٣٩١.

(٩٢) نهج الفصاحة:٦٤.

(٩٣) المحجـة البيضـاء١:٢١، كنـز العمال١٠:١٣٨.

(٩٤) نهـج البـلاغـة:٤٨١، بحـار الأنوار٢:٩٩، مستدرك سفينة البحار٣:٤٦.

(٩٥) بحار الأنوار٢:٩٧.

(٩٦) بحار الأنوار٢:٩٧و ٧٨:٣٤، امالي الشيخ الطوسي٢:٢٣٨.

(٩٧) غرر الحكم ودرر الكلم٢:٥٨.

(٩٨) بحار الأنوار٢: ٩٧.

(٩٩) نهج البلاغة: ٤٨١.

(١٠٠) غرر الحكم ودرر الكلم٤: ٢٢٧.

(١٠١) المرجع السابق:

(١٠٢) نهج الفصاحة: ٢٩٦.

(١٠٣) بحار الأنوار٢: ٩٩، مستدرك سفينة البحار٢: ٤٦.

(١٠٤) كنوز الحقائق٢: ٢١.

(١٠٥) تحف العقول: ٣٩٢، بحار الأنوار٧٨: ٢٠٧.

(١٠٦) بحار الأنوار٢: ٩٦.

(١٠٧) نهج الفصاحة: ٤٤٦.

(١٠٨) الكافي١: ٣٥.

(١٠٩) غرر الحكم ودرر الكلم٦: ١١٦.

(١١٠) المرجع السابق٥: ٢٤٦ و٥٢٨.

(١١١) المرجع السابق.

(١١٢) غرر الحكم دررالكلم٦: ٣٨٣.

(١١٣) المحجة البيضاء١: ٢٦.

(١١٤) ديوان الامام علي(عليه السّلام): ٢٤.

(١١٥) نظراً لطول المقال عمدنا الى اختصاره مع الاحتفاظ بأمانة تامة بالفكرة التي اراد الكاتب ايصالها، حيث اختزلنا النصوص والشواهد التي ساقها المؤلف ونادراً ما تعرضنا لاختصار ما كتبه لبيان فكرته وطرح مراده.[المترجم]

* * *

وقفة مع كتاب العدد

معجم الدراسات القرآنية عند الشيعة الإمامية

الأستاذ عبد الجبار الرفاعي



إسم المؤلف: عامر الحلو.

الناشر: دار الموسم للإعلام- بيروت.

عدد الصفحات: ٣٩٩.

سنة الطبع: ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

منذ القرون الأولى تنبه المسلمون الى أهمية الفهرستات والوراقيات، وصنفوا مدونات مهمة في توثيق وإحصاء التراث الإسلامي انذاك، ولعل العمل الذي أنجزه الوراق بن النديم المتوفى حدود ٣٨٨هـ، والمعروف بكتاب الفهرست، يعتبر من أنضج تلك الأعمال وأقدمها.

وقد تعرف المستشرقون على هذا الكتاب، في وقت مبكر، يعود الى أواخر القرن السابع عشر الميلادي، حيث إنتقلت مخطوطاته من مصر الى باريس ومن القسطنطينية الى ليدن، واستمر المستشرق الألماني جوستاف فلوجل «Gustav FLugel» مدة خمسة وعشرين عاماً، فى الإعداد لطبع هذا الكتاب ونشره، حتى توفي عام ١٨٧٠م، قبل أن يتم طبعه، ثم واصل العمل علماء آخرون، فنُشِر الكتاب عام ١٨٧١م و١٨٧٢م في لايبزج بعد وفاة فلوجل. ولم يزل كتاب الفهرست لإبن النديم محوراً لإهتمام الباحثين، فى التراث العربي الإسلامي، من علماء المشرقيات وسواهم.

ولم ينفرد هذا الكتاب في تراثنا، بل عاصرته وتوالت من بعده الكثير من الفهرستات التي اهتمت بتوثيق التراث وحراسته، فالشيخ النجاشي الذي ولد عام ٣٧٢هـ وتوفي عام ٤٥٠هـ صنّف كتاب: فهرست أسماء مصنفي الشيعة

الـذى اشتهر بـإسم رجـال النجاشـي، والذي تفـرّد كتابه بخصائص لا تتـوفر عليها مصنفـات عصره بل الأعمـال التي جاءت بعده، فـالنجاشي لا يكتفي بـذكر إسم الكتاب وإنما يذكـر لنا إسم المؤلف بشكل مفصل، ثـم يذكر نسبه ومـوطنه، وما اذا كان مولى أو غيره، ويحدد موقعه العلمي في عصره، ودرجـة الإعتماد عليه ووثاقتـه، ثم يفصل لنـا سنده للمـؤلف والكتـاب، وقد يشيـر الـى نوع الكتـاب، وإمكـان الإعتمـاد عليـه فيقـول: كتـاب ملعون، انه لم يطلع عليه، أو غير ذلك.

كما قـام الشيخ الطوسي المتـوفى سنة ٤٦٠هـ بتـأليف كتاب: الفهـرست، الذي إستوعـب فيه نحو تسع مـائة إسم مـن أسمـاء المصنفيـن، مـع بيـان مصنفاتهم.

وهكـذا تـوالـت عمليـة تـدويـن الفهرستـات حتى القـرن الحادي عشـر الهجري، حين تم تـأليف كشف الظنون عـن أسامـي الكتب والفنـون الذي ألفـه حـاجـي خليفة المتـوفـى عـام ١٠٦٧هـ، والذي يعتبر أوفى الوراقيات وأشملها في تراثنـا. حيث إشتمـل على حـوالي ١٥٠٠٠ كتاباً ورسـالة. وتناول ما يـزيد على ٣٠٠ علم وفـن، وترجـم لما يـربو علـى ٩٥٠٠ مؤلفاً.

وقد أكمل كتابه هـذا إسماعيل باشا البغدادي في ذيل أسماه:

إيضـاح المكنون فـي الـذيل علـى كشف الظنـون، الذي ضمّ حـوالي ١٩٠٠٠ كتاباً، حتى بداية القرن العشرين.

وأخيـراً جـاء دور شيخ البـاحثيـن العلاّمة آقا بزرك الطهـراني الذي أمضى خمسين عاماً من عمره في تأليف كتابه: الذريعة الى تصانيـف الشيعة، الذي بلغ (٢٨) مجلـداً، وأصبـح أوسـع معجـم ببليوغرافـي فى التراث الإسلامـي حتى الآن.

وبعد تنـوع التخصصات وتشعـب العلوم، وتراكم الإنتاج الفكري في حقول المعرفة المختلفة الى حد بلغ فيه الإنتاج في علـم الكيمياء مثـلاً بحدود (٢٥٠٠٠٠) ربـع مليـون دراسة وبحـث فـى العـام الواحـد، فى العـالم «حسـب إحصائيـة أشارت لذلك قبل سنوات».

من هنا بـاتت الحاجة ملحـة لإعداد لوائح مـرجعية موضـوعية متنوعـة، في مختلف أبـواب العلوم الإسـلامية، لكـي نواصـل عملية التـوثيق التـي بدأهـا إبن

النديم، ونستوعب الخبرة المعرفية المتأخرة فى الفكر الإسلامي، الذى ابتلى بالتكرار والإجترار فى العصر الحديث، وتراجعت فيه صور الإبداع والتأسيس، وربما كانت الخطوة الأولى على طريق التصحيح هي إعتماد المنهج العلمي في البحث والتصنيف، الذي يعنى استيعاب الخبرة الإنسانية، والتحاور معها، بعد وعي النتائج التي بلغتها.

وتأسيساً على ما سبق تتجلى الأهمية الكبيرة للمعجمات البيبليوغرافية «الفهرستات» التي تقوم بإحصاء وتصنيف وتوثيق الإنتاج الفكري الإسلامي في مختلف اللغات. وقد نُشِرت عدة قوائم ببليوغرافية مثّل بعضها بدايات موفقة لتأسيس بنوك المعلومات الإسلامية، فيما نزعت قوائم أُخرى نحو التبسيط وتهميش العمل الببليوغرافي، بعد التوهم بأنه عمل كمي محض لا يحتاج أي جهد علمي تحقيقي.

صدر أخيراً كتاب: معجم الدراسات القرآنية عند الشيعة الإمامية، للسيد عامر الحلو وهو أول محاولة تُنشر لإحصاء وتوثيق التراث القرآني، عند الشيعة الإمامية، الذين إتهموا بعدالإهتمام بالقرآن الكريم.

ومما لا شك فيه أن اهتمام السيد المؤلف بهذا الموضوع، يعبر عن وعيه الدقيق للحاجة المُلحة في هذا العصر لمثل هذه المعاجم التي تتوقف على توفرها كل دراسة علمية قرآنية، كما أن له دور الريادة فى السبق لإصدار المعجم الببليوغرافي للدراسات القرآنية الإمامية.

إلّا أن هناك جملة ملاحظات تجمعت لدينا بعد المراجعة السريعة لهذا المعجم، ترددنا في نشرها، ولكن لاحظنا أن الأعمال العلمية بعد نشرها تصبح ملكاً للأمة، ويمثل كل عمل في مراجعتها وتقويمها خدمة لما تملكه الأمة من العلوم.

يمكن إجمال الملاحظات على هذا الكتاب بالنقاط التالية:

أولاً: العنوان أكبر من المحتوى

دأب الباحثون في علوم المكتبات فى العصر الحديث على تحديد المقطع الزمني وتحديد اللغة أو اللغات، وكذا نوع الكتب، والأبحاث، والدراسات التي يشملها المسح البيبليوغرافي، كي يمكن إستقراء وتحصيل أكبر عدد ممكن من المراجع في حدود الدائرة المشمولة

بـالمسـح، ولـذا تقترب تلـك الأعمال فـي الغالب من الإستقراء التام.

فيما يلجأ باحثون آخرون لنوع آخر من الأعمال عند عدم تـوفرهم على إنتاج الأعمـال تلـك، وهـي انتخــاب قـوائم ببليوغـرافية منتقـاة بـأهـم الأعمال فـي المـوضوع المحـدد، فيصفـون القائمـة بـأنها: ببليـوغرافيـة منتقـاة، أو: قائمـة ببليوغرافية مختارة، أو: منتخبة.

بينما لـم يفعل ذلك السيد المـؤلف، فهو لم يحدد مـا اذا كان المعجم يختص بمقطع زمني معيَـن، أو لغات محددة، أو أنه: قائمة منتقاة، أو غير ذلك.

فهـو كمـا ينـص عنـوانـه: معجـم للدراسات القرآنية عنـد الشيعة الإمامية، ومما لا شـكّ فيه أن التـراث الإمامـي في علوم القرآن، يتجاوز حجـم هذا المعجم بعـدة أضعاف، فقـد قـامت: دار القـرآن الكريـم في قـم، بإعـداد معجم بعنـوان: معجـم مصنفات الشيعـة حول القـرآن، إشتمـل حتـى الآن علـــى خمســة آلاف عنوان[1]، كما أن كاتب هــذه السطور وقـع تحـت يده مـا يربـو على العشــرة آلاف عنـوان فى الـدراســات القـرآنية كنـواة لمعجـم كبيـر يسعـى لإنجـــازه، فـي السنوات القادمة، إن شاء الله تعالى.

وربّمـا كـان السبب يعـود لقصـر الفترة الزمنية التي أعدّ فيها السيد الحلو معجمه «كما أشار في مقـدمته أنه شرع بالعمل عام ١٩٨٣م، وأتمه عام ١٩٨٥م كما هو تاريخ كتابة المقدمة»، إلّا أن مثل هذا السبب لا يصـح فى الأعمـالِ المعجمية، فالمستشرق الفرنسـي كارل بروكلمان أمضـى خمسين عـاماً في كتابـه: تاريخ الأدب العـربي، وكـذا واصـل المرحـوم الطهراني ما يوازي هذه الفترة في تأليف الذريعة.

ثانياً: عدم ذكر المنهج المتبع في جمع المعلومات وإعداد المعجم

تـركـز جهـد السيّد المـؤلـف فـي المقـدمة علـى بيـان تعـريف مختصـر بالقـرآن الكريم فـي صفحة واحـدة، ثم تعريف مقتضـب بالشيعة الإماميـة، وما كُتِـبَ حول التعـريف بهـم وبعقائدهـم، والإشارة أخيراً الى رأي بعـض أعلامهم فى القرآن.

بينما لم يذكر المـؤلف فى المقدمة أو الخـاتمـة المنهج الـذى اعتمـده فـى التدوين، والمنابع الأســاسية للمعلومات

والبيانات التي جاء بها في كتابه، وطبيعة تصنيف المادة التي تحصل عليها.

والمعروف أن المقدمة تمثل البوابة التي يلج من خلالها القارئُ للكتاب، فتوفر له تصوراً أساسياً يؤمن له الحركة الحرة، حين يتعامل مع الكتاب.

وقد اهتمت هذه المقدمة بأمور أخرى دون أن تهتم بالكتاب ومنهجه.

ثالثاً: عدم الإشارة الى الأعمال السابقة في نفس الموضوع

في تاريخ البحث العلمي عند المسلمين، إشتهر عرف علمي تمثل فى اعتبار الأعمال الأولى فى العلم أعمالاً تأسيسية، وما يُنجز بعدها من أعمال هي تكميلية، ولذا إشتهرت عناوين (الحاشية، والذيل، والتكملة، والتتمة، و... الخ)، وربما تجاوز بعض العلماء الأعمال التأسيسية وألفوا مدونات أخرى، ولكن في هذه الحالات يُشار الى تلك الأعمال ومظاهر النقص فيها، كأن تقتصر على فكر طائفة أو طوائف معينة، وتهمل تراث بقية الطوائف الإسلامية، أو أنها مصنفة بكيفية غير علمية، أو غير ذلك.

وفي علوم القرآن صدر: (معجم الدراسات القرآنية، للدكتورة إبتسام مرهون الصفار، الموصل: مطابع جامعة الموصل،١٩٨٤م، «كان قد نشر هذا المعجم على حلقات في مجلة المورد في بغداد»)، و(معجم مصنفات القرآن الكريم، للدكتور علي شواخ إسحاق، الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٣-١٤٠٤هـ، ٤ج). وهي أعمال سابقة لمعجم السيد الحلو، وإن كانت لا تختص بالتراث القرآني للشيعة الإمامية، إلاّ أنها حاولت أن تستوعب التراث القرآني للمسلمين عامة «وبالأخص عمل الدكتورة الصفار النجفية».

فكان الأجدر بالمؤلف الإشارة لها، باعتبارها محاولات تأسيسية، وبيان الأسباب التي تقتضي إعداد معجم آخر خاص بالتراث القرآني للإمامية.

رابعاً: إهمال المراجع الأساسية في مثل هذا العمل التوثيقي

يعتمد الببليوغرفيون على استقصاء البيانات بشكل مباشر من الكتب والدراسات التي تقع تحت أيديهم، فيقدمون معلومات وصفية دقيقة والحالة هذه، وقد يلجأ هؤلاء في حالات كثيرة

لتحصيل البيانات بشكل غير مباشر، حين يتعذر الحصول عليها بصورة مباشرة، فيعتمدون على المراجع الخاصة لذلك وهي أنواع منها:

أ- فهارس المخطوطات.

ب- فهارس وكشافات الدوريات.

ج- معاجم المطبوعات، مثل:

معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف إليان سركيس، وإكتفاء القنوع بما هو مطبوع لإدوارد فنديك، ومعجم المطبوعات النجفية للشيخ محمد هادي الأميني، وفهرست كتابهاى چاپى فارسى لخانْبابامشار، وفهرست المطبوعات العراقية ١٨٥٦-١٩٧٢م لعبدالجبار عبدالرحمٰن، وقاموس الكتب بالأردو.

د- كتب الطبقات والتراجم التى اهتمت بذكر مصنفات المترجم لهم مثل:

فهرست النجاشي، وفهرست منتجب الدين، والأعلام للزركلي، ومعجم المؤلفين لكحالة، ومعجم المؤلفين العراقيين لكوركيس عواد... الخ.

هـ - المعاجم الببليوغرافية التي تولت توثيق التراث الإسلامي، مثل:

تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان، وتاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين، ومرآة الكتب للشهيد التبريزي... الخ.

و- المؤلفات التي رصدت حركة التأليف في بعض البلدان، مثل:

الثقافة الإسلامية فى الهند لعبد الحي الحسني، وحركة التأليف باللغة العربية فى الإقليم الشمالي الهندي لجميل أحمد، ومصادر الفكر العربي الإسلامي فى اليمن لعبد الله الحبشي.

ولكن مراجعة بسيطة لقائمة المصادر التي ذكرها المؤلف في ص٣٩٣-٣٩٤ لا نجد فيها ذكراً لتلك المراجع غير المباشرة التي ذكرناها، كما أن مراجعة الكتاب يكتشف فيها أن السيد المؤلف لم يتنبه الى أي من المراجع المذكورة التي ذكرت آلاف الكتب والدراسات القرآنية الإمامية.

خامساً: إهمال الدوريات المهمة وإعتماد الصحف والمجلات الأسبوعية

تتوفر الدوريات الشهرية والفصلية والنصف سنوية والحولية على أبحاث مهمة، لا تقل قيمتها في الغالب عن الكتب، ولذا يهتم الببليوغرافيون برصد تلك

الأبحاث وتوثيقها في أعمالهم.

وعلى العكس من ذلك الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية التي تمتاز المادة المنشورة فيها بأنها مادة صحفية ذات سمات آنية، لا ترتفع الى مستوى البحث أو الدراسة غالباً، فمن النادر أن يهتم بها أُولئك.

بينما نلاحظ أنّ السيد المؤلف إعتمد الصحف والمجلات الإسبوعية مثل:

صحيفة الجهاد الصادرة في طهران، وكذا لواء الصدر، والعمل الإسلامي، وكيهان العربي، والشهادة، ومجلة العالم الأسبوعية الصادرة في لندن، بل إعتمد مجلات الأطفال كمجلة أحمد كما في ص٣٩٠ من الكتاب. وأهمل الدوريات: كالعرفان الصادرة في صيدا والتي صدر منها أكثر من سبعين مجلداً، وهي أطول الدوريات الإسلامية الشيعية عمراً، والعلم التي صدرت فى العراق، والإعتدال التي صدرت فى النجف الأشرف، والفكر الإسلامي التي صدرت في طهران، والإرشاد التي صدرت في مشهد، و... الخ.

كما لا نعلم سبب إنتقائه للصحف المذكورة و إهماله للصحف والمجلات الإسلامية الشيعية التي صدرت في إيران والعراق والبحرين والهند وباكستان.

مع أن الأخيرة نُشِرت فيها الكثير من الموضوعات القرآنية باللغات: العربية، والفارسية، والأردية، والكجراتية...

سادساً: إهمال بحوث المؤتمرات

فى العقد الأخير إلتأمت عدة ندوات، ومؤتمرات، وملتقيات فكرية، هنا وهناك، وفي كل واحدة منها قُدِمت عشرات الأبحاث، ففي إيران فقط يعقد كل عام مؤتمر للفكر الإسلامي في طهران منذ عدة سنوات، وكذا عقدت دار القرآن الكريم في قم ثلاث مؤتمرات فكرية للقرآن الكريم، كما أُقيمت في مشهد مؤتمرات أُخرى للإمام الرضا (عليه السّلام) وللإقتصاد الإسلامي، وقدمت الكثير من الأبحاث القرآنية فيها، وهي أبحاث ذات قيمة علمية تستحق التوثيق فى الغالب، خصوصاً اذا تدنى مستوىٰ التوثيق للمقالات الصحفية.

فلماذا أهمل السيد المؤلف كل تلك الأبحاث، ولم يذكر منها إلّا أقل القليل؟!

سابعاً: إعتماد بعض المحاضرات المضبوطة على أشرطة الكاسيت

ذكر السيد المؤلف بعض المحاضرات المضبوطة على أشرطة الكاسيت للسيد محمد تقي المدرسي والشيخ حسن الصفار وغيرهم كما في الصفحات: ٣٧٢، ٣٧٥، ٣٨٤، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩١، ٣٩٢ من الكتاب.

وهنا يمكن أن نتساءل عن المعيار الذى اعتمده المؤلف في ذلك، فهل أن الأعمال المعجمية التي توثق الدراسات تحسي الكاسيتات؟!

وهل ينطبق عنوان: معجم الدراسات القرآنية عليها؟!

وهب أنه انطبق عليها عنوان دراسات، فلماذا لا يتم استقراء عشرات الآف المحاضرات القرآنية المضبوطة على أشرطة الكاسيت التي يلقيها كل يوم خطباء المنبر الحسيني، وعلماء المناطق، ورجال التربية وغيرهم؟!

ولماذا لم تدرج أشرطة الفيديو المضبوطة عليها محاضرات قرآنية؟!

ثامناً: عدم الإستفادة من الدوريات الببليوغرافية المتخصصة

تصدر عدة دوريات توثيقية ترصد الإنتاج الفكري، وتعتبر تلك الدوريات من أوعية المعلومات الأساسية فى العمل الببليوغرافي، ومن هذه الدوريات:

كتاب شناسى التي أصدرتها المكتبة الوطنية في طهران، وكتابنامه التي تصدرها وزارة الإرشاد في طهران، والفهرست الصادرة في بيروت، والكشاف الإسلامي الصادرة في قبرص، وعالم الكتب الصادرة فى الرياض، والمورد الصادرة في بغداد، والمكتبة التي أصدرتها مكتبة المثنى في بغداد... وغيرها.

ولكن السيد المؤلف لم يحاول الإستفادة من أي منها، كما إنعكس ذلك على معجمه.

تاسعاً: عدم ذكر البيانات الأساسية حول العناوين التي رصدها

تهدف معاجم كهذه عادة الى تأمين خدمة مرجعية للباحث توفر له البيانات التي تلزمه في عمله العلمي، وهذه البيانات هي:

الف ـ عنوان الكتاب أو البحث.

ب ـ إسم المؤلف كاملاً مع ولادته ووفاته.

ج- مخطوطات الكتاب إن كان خطياً.

د- طبعات الكتاب مع ذكر المشاركين فى التأليف كالمترجمين، والمحققين، والمراجعين.

هـ-مراجعات ومستخلصات الكتاب فى الدوريات.

و- المراجع الببليوغرافية التي ذكرت الكتاب.

أما لو كان العنوان عبارة عن بحث منشور في مجلة فينبغي ذكر:

الف- العنوان.

ب- المؤلف والمشارك فى التأليف، كالمترجم وغيره.

ج- إسم المجلة ورقم المجلد، والعدد، والتاريخ، ورقم الصفحات.

إلا أن السيد الحلو لم يلتزم بذكر الكثير من هذه البيانات الأساسية، حيث أهمل ذكر مخطوطات الكتاب، وطبعاته، والمؤلفين المشاركين فى الغالب، كما أهمل ذكر مراجعاته ومستخلصاته فى الدوريات دائماً.

وكذا فعل الشيء نفسه في مقالات الدوريات، فأهمل ذكر رقم العدد أو التاريخ، أو كليهما في بعض المقالات التي ذكرها كما نلاحظ نماذج لذلك فى الصفحات: ١١، ١٢٥-١٢٦، ١٤٢، ١٥٩، ٢٩٤، ٣٧٤.

وقد أورد ذكر الدوريات بعد إسم المؤلف بكيفية لا يُعلم معها هل أن العنوان المذكور: هو مقال منشور في تلك الدورية، أم أنه كتاب ورد ذكره فيها. ومثال ذلك ما ورد فى الصفحات: ٧، ٨، ٩، ١٠، ١٥.

عاشراً: إضطراب الترتيب الهجائي

لقد اضطرب الترتيب الهجائي بين العناوين التي ذكرت فى المعجم، ومن نماذج ذلك ما ورد في ص٩١و٩٢، حيث ورد: تفسير أبي الصلت، بعد: تفسير الصدوق، وكذا ورد: تفسير إبن عبدك، بعد: تفسير الشيخ الطريحي، وتفسير إبن عقدة، بعد: تفسير عز الدين.

الحادي عشر: إدراج بعض المحاضرات دون سواها

أدرج السيد المؤلف بعض المحاضرات القليلة التي ألقاها بعض

العلماء، كما في ص١٥٩و٢٦٣، بينما أهمل آلاف المحاضرات التي ألقاها علماء ومثقفون آخرون في مناسبات كثيرة في التفسير وعلوم القرآن الأخرى.

كما ذكر بعض المقررات الجامعية كما في ص٢٦٣، ذكر هذا العنوان: «محاضرات في التفسير، لمحمد مهدي الآصفي، طبعت في ملازم ووزعت بكليتي الفقه في النجف، وأصول الدين في بغداد».

الثاني عشر: الأخطاء في الوفيات

من نماذج تلك الأخطاء ما ذكر في ص٩٦ في وفاة أبي حمزة الثمالي، حيث ذكر أنه توفي سنة ٩٧٦هـ، بينما ذكر في ص٨٤ سنة وفاته ١٥٠هـ. كما حصل الشيء نفسه في وفاة الشيخ البهائي حيث ذكر ص١١٢ سنة وفاته ١٠٣٠هـ، بينما ذكرها بعد ورقة واحدة في ص١١٥-١١٦ سنة ١١٣٠هـ، وكذا في ص٧٢ ورد تاريخ وفاة إبن بابويه ٣٢٣هـ فيما ورد في ص٧٨ سنة ٣٢٩هـ.

الثالث عشر: إهمال البيانات البيبليوغرافية في المصادر

في ص٣٩٣-٣٩٤ ذكر السيد المؤلف قائمة بالمصادر، إلا أنه لم يذكر محل وسنة الطبع والنشر، وكذا رقم الطبعة، وعدد الصفحات والأجزاء لأي منها، باستثناء المصدر رقم١٦ ص٣٩٣، فهو المصدر الوحيد الذي ذكر محل وسنة الطبع بالنسبة له، فيما أهمل كل تلك البيانات بالنسبة للمصادر الأخرى.

الرابع عشر: عدم تحديد المصادر اذا كانت مشتركة الإسم

ورد في ص٧٢ ذكر: الفهرست، مجرداً، فهل هو فهرست إبن النديم، أو النجاشي، أو الطوسي، أو منتجب الدين، أو إبن خير الأشبيلي... أو غيره؟!

وكذا ورد في ص٢٠ وغيرها ذكر: طبقات، فهل هو طبقات أعلام الشيعة، أم طبقات إبن سعد، أم غيرها؟!

الخامس عشر: التكرار

قد يُعذر المؤلف اذا تكررت لديه بعض العناوين حين يقع كتابه في عدة

مجلدات، لأن طاقة الفرد فى استيعاب آلاف العناوين والتنبه للمكرر منها محدودة، ولكن كيف الحال إذا لم يتجاوز الكتاب «مع كشافاته» ٤٠٠ صفحة، وتعدد فيه التكرار بصورة مضطربة في الصفحات المتوالية؟! وفيما يلي نماذج من التكرار الذي وقع فى المعجم:

ص١٤ أدعية القرآن، لهبة الدين الشهرستاني. تكرر في ص١٧٥ بعنوان: زبور المسلمين.

ص٥١ تأويل مشكل القرآن، لزيد بن علي. تكرر في ص٣٧٣ بعنوان: تأويل مشكل القرآن، وتكرر مرة أُخرى في ص٢٠٧ بعنوان: غريب القرآن لزيد الشهيد.

ص١٢ أحكام القرآن، لعباد الطالقاني. تكرر في ص١٦٥بعنوان: رسالة في أحكام القرآن.

ص٢٢ إعجاز القرآن، للبيهقي. تكرر في ص١٦٥ بعنوان: رسالةفي إعجاز القرآن.

ص٥٤ تجويد القرآن، للأحسائي. تكرر في ص١٦٥ بعنوان: رسالة فى التجويد.

ص٥٨ تجويد القرآن، لعماد الدين القاري. تكرر في ص١٦٥بعنوان: رسالة فى التجويد.

ص٥٩ تجويد القرآن، لمحمد زمان التبريزي. تكرر في ص١٦٦بعنوان: رسالة فى التجويد.

ص٧١ التفسير، لإبراهيم الثقفي. تكرر في ص٨٢ بعنوان: تفسير الثقفي.

ص٧١ التفسير، لزياد بن المنذر. تكرر في ص٨٣ بعنوان: تفسير أبي الجارود.

ص٧١ التفسير، لأحمد بن صبيح الأسدي. تكرر في ص ٩١بعنوان: تفسير إبن صبيح.

ص٧١ التفسير، للحسن بن محبوب. تكرر في ص ١٠٨ بعنوان: تفسير إبن محبوب.

ص٧٢ التفسير، لمحمد بن أرومة. تكرر في ص ١٠٠بعنوان: تفسير القرآن.

ص٧٢ التفسير، لعلي بن بابويه. تكرر في ص ٧٨بعنوان: تفسير إبن بابويه.

ص٧٢ التفسير، لمحمد بن الحسن بن الوليد. تكرر في ص ١٠٠بعنوان: تفسير القرآن، كما تكرر ثالثة في

ص١١٢بعنوان: تفسير إبن الوليد.

ص٧٧ تفسير الأطروشي. تكرر في ص ١٠٦ بعنوان: التفسير الكبير.

ص٨٢ تفسير جابر الجعفي. تكرر في ص٩٦بعنوان: تفسير القرآن.

ص٨٤ تفسير أبي حمزة الثمالي. تكرر في ص٩٦بعنوان: تفسير القرآن.

ص٨٥ تفسير إبن دؤل. تكرر في ص٩٥بعنوان: تفسير القرآن.

ص٩٢ تفسير الشيخ عمران. تكرر في ص١٦٦ بعنوان: رسالة في تفسير بعض الآيات.

ص٩٤ تفسير قتيبة. تكرر في ص١٠٦بعنوان: التفسير الكبير المعروف بتفسير قتيبة.

ص٩٤ تفسير أبى القاسم العلوي. تكرر في ص٩٨بعنوان: تفسير القرآن.

ص٩٨ تفسير القرآن، لعلي بن مهزيار. تكرر في ص١١٠بعنوان: تفسير إبن مهزيار.

ص١٠٢ تفسير القرآن، لمصطفى الكاشاني. تكرر في ص١٠٨ بعنوان: تفسير مختصر...

ص١٠٣ تفسير القرآن، لأبي منصور الصرام. تكرر في ص١١٠ بعنوان: تفسير أبي منصور الصرام.

ص١٠٤ التفسير عن إبن عباس، للجلودي. تكرر في ص١١٥بعنوان: التنزيل عن إبن عباس.

ص١١٢ تفسير وجيز، لبهاء الدين العاملي. تكرر في ص١١٥بعنوان: تهذيب البيان في ترتيب القرآن.

كما تكرر هذا التفسير للشيخ البهائي مرة ثالثة في ص١٩٨بعنوان: العروة الوثقىٰ في تفسير القرآن، ومرة رابعة ص ١٩٩ بعنوان: العروة الوثقىٰ في تفسير القرآن.

ص١٦٠ دلائل براهين الفرقان، للمرندي. تكرر في نفس الصفحة وبنفس العنوان.

ص٢٠٠ العلاقة الجنسية فى القرآن الكريم، لمحمد مهدي الآصفي. تكرر في ص٣٠٥ بعنوان: النظرية الجنسية فى القرآن الكريم.

ص٢٢٢ فى القرآن والدعاء، لعبدالله شبّر. تكرر في ص٢٢٨بعنوان: القرآن والدعاء.

ص٢٣٦ قواعد التجويد، لمحمد جواد

العاملي. تقدم في ص٥٩ بعنوان: تجويد القرآن.

ص٢٤٤ كشف البيان أو نهج البيان في تفسير القرآن، لمحمد بن الحسن الشيباني. تقدم في ص١١١بعنوان: تفسير نهج البيان عن كشف معانى القرآن، ويأتي في ص٣٠٧بعنوان: نهج البيان عن كشف معانى القرآن.

ص٢٥٧ ما نزل من القرآن في أميرالمؤمنين (عليه السّلام)، للمرزباني. تكرر في ص٢٥٩ بعنوان: ما نزل من القرآن في علي (عليه السّلام).

ص٣٧٤ تأويل الآيات، لشرف الدين الحسيني الأسترآبادي. تقدم في ص٤٨-٤٩ بعنوان: تأويل الآياتالظاهرة...

كان يمكن للسيد المؤلف أن يتجاوز الكثير من التكرار لو أنه إلتزم بالإحالات من العناوين غير المستخدمة الى العناوين المستخدمة، وعندها لا يحتاج إلاّ الى إشارة: تقدم أو يأتي.

السادس عشر: ذكر بعض الكتب التي لا علاقة لها بعنوان المعجم

أورد السيد المؤلف بعض الكتب الفقهية أو الأصولية وغيرها، بسبب إلتباس عناوينها، مثل ما جاء في ص ٩ بإسم:

آيات الوصول الى علم الأصول، لمحمد باقر الملكي الميانجي.

أو ما جاء في ص٥ بإسم:

الآيات الباهرات في معجزات النبي والأئمة الهداة.

أو في ص٦ بإسم:

الآيات الجلية في ردّ شبهات الوهابية.

أو في ص٢٣٣ بإسم:

قراءة سورة بعد الحمد أو آية.

أو في ص٣٦٩ بإسم: أصول السنة والكتاب «في أصول الفقه». وغير ذلك.

كما أورد المؤلف كتباً لمصنفين ليسوا من الإمامية ولا ينطبق عليهم عنوان المعجم الخاص بالدراسات القرآنية عند الشيعة الإمامية، مثل:

ما ذكره في ص٧٩ التفسير البسيط، لعلي بن أحمد الواحدي.

وص٨٣ تفسير الجامي، لعبدالرحمن بن أحمد النحوي.

وص٩٢ تفسير إبن عقدة، لإبن عقدة

الزيدي الجارودي.

وص٣٧٠ الأنوار المبسملة في بعض خواص البسملة، للحسن اليمني المكي.

وص٣٧٨ التنزيل في أمير المؤمنين وأهله، لأبي الفرج الأصفهاني.

وص٢٧٣ مشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب... وغيرها.

السابع عشر: الأخطاء

وردت أخطاء مختلفة في المعجم، نذكر فيما يلي نماذج منها:

ص ٩ محمد باقر الخراساني الموسوي. والصواب: محمد باقر الخرسان الموسوي.

ص١٠٣ أبي آزار الشيرازي. والصواب: بي آزار الشيرازي.

ص٨٣ تفسير إبن أبي الثلج. والصواب: إبن أبى الثلج.

ص ١٠٠ الدكتور محمد بهشتي. والصواب: الدكتور محمد حسين بهشتي.

ص ١٨٥ البهباني. والصواب: البهبهاني.

ص ١٨٨ مشهد المقدس. والصواب: المشهد المقدس أو مشهد المقدسة.

ص٢١٣ محمد الصادق الطهراني. والصواب: محمد الصادقي الطهراني.

ص٢٢٥ القرآن في التنزيل وأقسام القرآن. والصواب: التنزيل والتحريف.

ص١١٥ محمد الحسن النوبختي. والصواب: أبو محمد الحسن النوبختي.

ص١١٥ الذريعة ٤:٤٥٠. والصواب: الذريعة ٤:٤٥٥.

ص١٢٥ جامع الجوامع في التفسير. والصواب: جوامع الجامع...

ص١٢٨ السيد عبد الشُّبَّر. والصواب: عبد الله الشُّبَّر.

ص١٥٦ عبد الصبور شاهين، مكرر في السطر الآخر.

ص ١٦١ محمد بن النعمان. والصواب: محمد بن محمد بن النعمان.

ص٢٤٠ الكافي والشافي. والصواب: الكاف الشاف من كتاب الكشاف.

ص ٣٧٩ بهاء الدين بن محمد. والصواب: بهاء الدين محمد.

ص ٢٥٦ وص٢٥٨ إبن الحجام. والصواب: إبن الجُحام.

ص ٧٩ الذريعة ٢٤:٣٤٠. والصواب:

الذريعة ٣: ٩٣.

ص٧٩ طبع في إيران والعراق.

والصواب: إن تفسير البرهان لم يطبع في العراق.

ص٢٢٤ قبس من تفسير القرآن، لعلي سماكة الحلي، طبع في النجف سنة ١٩٣١م، بتحقيق: السيد أحمد الحسيني. والصواب: إن تاريخ الطبعة المحققة هذه لا يناسب عمر المحقق المولود في النجف الأشرف عام ١٩٣١م.

ص٣٧٠ بحوث طبعت في جريدة الجهاد السنة الأولى ١٤٠٠هـ. والصواب: مجلة الجهاد لا جريدة الجهاد، لأن الجريدة صدرت بعد ما يزيد على مدة عام من ذلك التاريخ.

ص٣٨١ مجلة دراسات وتحقيقات. والصواب: إن دراسات وتحقيقات، هو كتاب للدكتور محمد علي الحسيني، وليس مجلة.

ص٣٩٤ المجلدات. والصواب: المجلات.

هذه أمثلة للأخطاء المختلفة التي وردت في المعجم، لاحظناها في قراءة سريعة له إذ لم نهدف للإستقراء التام لها.

الثامن عشر: إهمال الأطروحات الجامعية

أنجز مؤلفو الإمامية المعاصرون أعداداً كبيرة من الأعمال العلمية القرآنية التي تقدموا بها كرسائل تخرج «لدرجة الليسانس»، أو رسائل دبلوم عالي، أو ماجستير، أو دكتوراه، في الجامعات العالمية وبالذات في جامعات: إيران، والهند، وباكستان والعراق ومصر، ولبنان.

وتكتسب تلك الأعمال قيمة علمية متميزة نظراً للجهد التحقيقي الكبير الذي يقوم به الباحث فيها.

إلّا أن السيد المؤلف لم يذكر منها إلّا عدداً لا يتجاوز أصابع اليد، مع العلم أن معظم الكليات تصدر لوائح ببليوغرافية بالرسائل المقدمة والمحفوظة لديها، في الدوريات المتخصصة كمجلة المورد الصادرة في بغداد، وعالم الكتب الصادرة في الرياض... وغيرها، أو تصدر تلك القوائم في كتب مستقلة.

تلك جولة سريعة تعرفنا فيها على نموذج من النظرة التسطيحية للعمل الببليوغرافي الذي يحتاج الى قدر واسع من الثقافة والإطلاع الأفقي على العلوم، والخبرة العملية المكثفة في عالم الكتب والتصنيف.

ولابد للباحثين في هذا الحقل أن يتنبهوا الى أن كتاباتهم موجهة الى النخبة من العلماء والمتخصصين والباحثين، ولا تهم القارئ العادي الذي يتساهل فى الغالب فى الأصول العلمية للأعمال.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حول مصطلح العلماء

الشيخ علي الكوراني

(١)

تتوزع المصطلحات المتعلقة بالعلم والعلماء بين القرآن الكريم والسنة الشريفة ويكمل بعضها بعضاً.. فقد وردت كلمة العلماء وما بمعناها في القرآن في موارد عديدة أهمها الموارد العشرون التي ذكرنا آياتها، منها عشرة مصطلحات هي: الراسخون في العلم. من عنده علم الكتاب. من عنده علم من الكتاب. أولوا العلم. أهل الذكر. الذين أُوتوا العلم. الفقهاء. المستحفظون. الربانيون. الأحبار. ولم نعدّ القسيسين والرهبان منها لأنهما صفتان للسلوك اكثر منهما للعلم، بل قد يكون الراهب أميّاً، وكذلك القسيس في بعض الأوساط.

ومنها ثمانية مصطلحات وردت بمعناها اللغوي هي: علماء سنن الحضارات. وعلماء الطبيعة، وعلماء الإجتماع، وعلماء الكتاب الإلَهي، وذوو العلم، وعلماء السياسة، وأصحاب البسطة في العلم، والدارسون.

أما في السنة الشريفة وفي عرف أجيال المسلمين الذي يستند اليها فإن كلمة «العالم» و«العلماء» مصطلح لعلماء الدين خاصة، فهو المعنى الذي يتبادر الى أذهانهم عندما تطلق الكلمة بدون قرينة،

بينما تحتاج الى قرينة إذا قصد بها العلماء في بقية العلوم فيقال: علماء الطب، وعلماء الطبيعة، وعلماء الأقتصاد.. الخ.

والسبب في وضع هذا المصطلح هو أفضلية علم الدين في نظر الاسلام على بقية العلوم فكل علم يؤدي خدمته للناس في حقل من حقول حياتهم، أما علم الدين فيؤدي خدمته في حقول الحياة كافة، فهو الموجه للعلوم والمنسق بينها فلاغرو أن يسمى «علم العلوم». وقد جاءت هذه السعة والأفضلية لعلم الدين من جهة موضوعه فهو العلم بالله تعالى وما يتفرع عنه من العلم بأنبيائه وكتبه وشرائعة واليوم الآخر.. وسعة حقل كل علم من سعة موضوعه، وشرفه من شرف موضوعه.

وهناك مصطلح للعلماء عند المسلمين الشيعة يعني الأئمة الإثني عشر خاصة عليهم السلام، وقد نشأ من كونهم عليهم السلام علماء الأمة، كما نشأ أيضاً من ظروف التقية التي يخشىٰ فيها الراوي أن يصرح باسم أحدهم فيقول: سألت العالم، وقال العالم، وجاء عن العالم..

(٢)

المصطلحات القرآنية العشرة في العلماء إما مختصة بعلم الدين بمفهومه الاسلامي، أو تشمل غيره معه، فتكون تفسيراً لمصطلح «العلماء» الوارد في السنة الشريفة والسائد بين المسلمين وهي تحتاج الى دراسة دقيقة لمعرفة حدودها وحقولها، ووجه الحكمة في جعلها مصطلحات وإبقاء الباقي على معناه اللغوي، ونذكر فيما يلي ملاحظات حولها:

١ ـ لماذا لم يجعل القرآن كلمة العلم والعلماء مصطلحاً على علم الدين وعلمائه وأبقاها على معناها اللغوي، وفضّل أن يضع بدلها عشرة مصطلحات تفصيلية تعبر عن حقول علم الدين وشخصيات علمائه..؟

يبدو أن السبب في ذلك أولاً: أن هذه المصطلحات بمجموعها أبلغ من مصطلح العلماء في الدلالة على مقصود القرآن كما ستعرف.

وثانياً: أن القرآن يريد تسليط الضوء على أهمية العلوم الأخرى بالمساواة في الإستعمال اللغوي بينها وبين علم الدين.

وثالثاً: حذر القرآن ـ مع حرصه على موقع علماء الدين ـ من أن يتكوّن منهم طبقة كهنوت في الأمة كما حدث في الأمم السابقة، فاختار مصطلحات

تتضمن صفاتهم السلوكية والعملية تأكيداً على أن القيمة ليست للعلم المجرد، وأوكل أمر مصطلح العلماء الى السنة الشريفة التي أكدت بدورها على مدح العلماء الأتقياء وذم العلماءالمنحرفين والفسقة، بل ورد في عدد من الأحاديث نفي صفة العلم عنهم.

٢ـ الظاهر من قوله تعالى: **(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ)** ـ النحل: ٨٩، أن القرآن يحتوي فضلاً عن علوم العقائد والشرائع وما يتعلق بها، على كل العلوم الأخرى التي يحتاج اليها الناس أو يمكن أن يحتاجوا إليها. وتدل الأحاديث الشريفة على أن القرآن يحتوي على علم ما كان وما يكون الى يوم القيامة، بل ورد أن الأحرف النورانية في فواتح السور تحتوي على ذلك. وتدل آيات مصطلح «علم الكتاب الآلهي» على أنه يشمل على السيطرة على الطبيعة بقوانين غير القوانين المعروفة قديماً أو حديثاً وأن آصف بن برخيا وزير سلمان عليهما السلام قد استعمل بعضها في نقل كرسي بلقيس من صنعاء الى القدس في ظرف لحظات **(قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)**.

ويبدو من قوله تعالى **(أَنْ تَقُولُوا إنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ)** ـ الأنعام: ١٥٦ وغيرها من الآيات الواردة بشأن التوارة والإنجيل أن «علم الكتاب» مصطلح على علم التوراة والإنجيل والقرآن، وأنه يعني المستويات العالية من معرفة علوم الكتاب الآلهي وأسراره، وليس المستوى العادي المعروف بعلم التفسير. وهذا يتناسب مع أن يكون مختصا بالأنبياء عليهم السلام وكبار أوصيائهم ووزرائهم كما ذكرت الآية عن وزير سليمان الذي عنده علم «من» الكتاب، وكما نصت الأحاديث الشريفة على تفسير «مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابُ» بعلي والأئمة من ولده عليهم السلام.

٣ـ تكشف هذه المصطلحات القرآنية عن درجات العلماء أو فئاتهم حسب مستواهم العلمي والإيماني، ويمكن ترتيبهم كما يلي:

الفئة الأولى: من عنده علمُ الكتاب.

الفئة الثانية: من عنده علمٌ من الكتاب.

الفئة الثالثة: أولو العلم.

الفئة الرابعة: الراسخون في العلم.

الفئة الخامسة: المستحفظون من الربانيين والأحبار.

الفئة السادسة: أهل الذكر.

الفئة السابعة: الفقهاء في الدين.

الفئة الثامنة: الذين أوتوا العلم.

وكل فئة منهم على درجات، وقد تتحد بعض الفئات أو تتداخل درجاتها، كما أن علماء العلوم الأخرىٰ المؤمنين يدخلون في هذه الفئات والدرجات.. الخ.

٤ـ يتضمن كل واحد من هذه المصطلحات بعداً أو اكثر من قضية العلم والعلماء قصد القرآن الكريم التركيز عليها. فمصطلح «من عنده علم الكتاب» يركز على أهمية علمْ الكتاب الإلٰهي وأنه يوجد «عند» بعض الأشخاص.

ومصطلح «أولوا العلم» يركز على شخصية العلم بكلمة «أولي» التي تعطي معنى الاختصاص القوي بما بعدها كما نلحظ في استعمالها القرآني.

ومصطلح «الراسخون في العلم» يركز على ملكة الاستيعاب الشمولي والتمكن من حقائق العلم.

ومصطلح «المستحفظون» يركز على جانب الشهادة والإئتمان على الكتاب الآلٰهي الذي يكون العلماء بموجبه ربانيين منسوبين الى الرب تعالى بسبب إخلاصهم له، ويكونون أحباراً، أي يتركون آثاراً حسنة في قلوب الناس وحياتهم.

ومصطلح «أهل الذكر» يركز على معايشة الذكر الإلهي المنزل واستحضاره.

ومصطلح «الفقهاء» يركز على جانب التفهم والوعي لحقائق الدين.

ومصطلح «الذين أوتوا العلم» يعبر عن الذين رزقوا قدرا من العلم غالبا ما يكون معه الإيمان **(قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ)**.

وكذلك الأمر في الأبعاد التي يعطيها الموضوع الذي وردت فيه كلمة العلماء وما بمعناها سواء كانت مصطلحا، أو كانت بمعناها اللغوي.. فورود مصطلح التفقه والفقهاء في موضوع النفر الى الجهاد يعني أن باب الجهاد سيبقى مفتوحا في أجيال الأمة، وأن التفقه في العقيدة وادراك حقائق الاسلام والايمان اساس للتفقه في فروع الدين، وأن اجواء الجهاد هي الأجواء المناسبة لهذا التفقه..

وورود قوله تعالى **(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)** في موضوع تنوّع خلق الله تعالى في النبات في معرفته تعالى

وخشيته.. ودور علماء الطبيعة المؤمنين في تقوية ايمان الناس..

واستعـراض كبـريات الحضارات الطاغـوتيـة المعـاديـة لله تعـالى وتشبيه جهودها ببيت العنكبوت والتعقيب على ذلك بقـوله تعـالى (**وَتِلْكَ الْأَمْثَـالُ نَضْرِبُهَـا لِلنَّـاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**) يبين مكـانـة علمـاء سنن الحضارات، وقيمة الادراك العميق والشمولي في حياة الناس..

وروصف علم السياسة بالاستنباط (**لَعَلِمَـهُ الَّذِين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**) يدل على أهمية الاستنباط السياسي في معرفة خطط العـدو وتحركاته، وغيرها من حقول السياسة، ويدل على مكانة علماء السياسة وحجية قولهم.. الخ.

* * *

أخبار قرآنية

إعداد: حسن فرقاني



الدورة الاولى لتعليم تلاوة القرآن الكريم وعلومه

اقامت دار القرآن الكريم دورتها الأولى لتعليم قواعد التجويد وعلوم القرآن الكريم في مدرسة سماحة آية الله العظمى السّيّد الكلپايگاني -حفظه الله- خلال ليالي شهر رمضان المبارك، وقد شارك في هذه الدورة اكثر من ٢٠٠ من الشباب وطلاب الحوزة العلمية في قم المقدسة.

وفي الليلة الخامسة عشرة من الشهر العظيم اقيم احتفال بمناسبة ليلة ولادة الامام الحسن (عليه السّلام) وقضى المشاركون ليلة مباركة في ظل القرآن الكريم.

وفي ختام الدورة أدّى المشاركون الامتحان النهائي، ثم اختير الفائزون الاوائل الذين قاموا بزيارة سماحة آية الله العظمى السّيّد الكلپايگاني لاستلام الجوائز من سماحته. وقال سماحته في كلمة القاها في الحاضرين:

«ينبغي السعي من أجل طي المراحل الثلاثة مع القرآن الكريم:

المرحلة الاولى: تعلم القراءة.

المرحلة الثانية: التجويد وحفظ القرآن.

المرحلة الثالثة: فهم القرآن من خلال التفسير».

ثم اضاف سماحته:

«لو استطعتم اجتياز هذه المراحل الثلاثة فانتم محفوظون ان شاء الله من

الشهوات والوساوس الشيطانية وفي أمـان مـن امواج الشبهات المضلة».

ثم دعا للحاضرين بالتوفيق للعمل بكتاب الله والسعي لتعلمه وحفظه واداء حقه.

إقامة الدورة الثامنة للمسابقات الدولية لحفظ وتلاوة القرآن الكريم

بمناسبة حلول أيام عشرة الفجر المباركة (ذكرى انتصار الثورة الإسلامية)، أقامت منظمة الاوقاف والامور الخيرية الدورة الثامنة لحفظ وتلاوة القرآن الكريم في عاصمة الجمهورية الاسلامية، طهران.

وحضر مراسم الافتتاح عصر يوم الاحد ٢٧ رجب -عيد المبعث النّبويّ الشريف- في حسينية الإرشاد، السيد رئيس الجمهورية سماحة حجة الإسلام والمسلمين الهاشمي الرفسنجاني وعدد آخر من كبار المسؤولين ، والاساتذة والحفاظ والقراء المشاركين من ٤٠ دولة.

وقد افتتحت الدورة بالسلام الجمهوري، ثم أُجريت عدة مراسم خاصة، ألقى بعدها السيد رئيس الجمهورية كلمة في الحاضرين رحّب فيها بالضيوف الكرام، وقال انه يأمل أن تقام هذه السُّنّة -سُنّة المسابقات القرآنية- في جميع البلدان الاسلامية، واضاف قائلاً:

«بالرغم من تعدد الكتب السماوية الا ان القرآن الكريم هو أكملها واكثرها شمولاً ولا توجد وثيقة في التأريخ مثل القرآن وقد بقي هذا الكتاب بين يدي البشرية سالماً من كل تحريف لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه».

وقال أيضاً:

«بالرغم من كل الجهود المبذولة من قبل أعداء الاسلام في سبيل مصادرة هذا الكتاب والحطّ من قيمته إلا انه بقى شامخاً وفشلت محاولاتهم، وقد تحداهم -القرآن المعجزة- مراراً أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله».

وذكر سماحته أهمية القرآن في هداية الناس وقال:

«ان المسلمين اذا ما رجعوا الى

القرآن فانهم يجدون دواءهم الناجع وحل مشاكلهم».

واكد ان الاستفادة من القرآن تحتاج الى مراجعة التفسير والمفسرين، وان كان المفسرون الكبار بانفسهم يعجزون عن الوصول الى اعماق هذا البحر الذي ليس له ساحل.

وتطرّق للحديث عن «الانس بالقرآن» فيالمساجد والحسينيات فقال:

«إقتضت ارادة الله أن يبقى القرآن غضاً لا يبليه كثرة التكرار، جديداً كيوم نزوله رغم تلاوته آلاف المرات الايقاع المتناسق بين تركيبات حروفه وكلماته وآياته جعلته رائعاً جميلاً محبوباً».

وبعد أن اختتم السيد رئيس الجمهورية حديثه أخذت الهيئة التحكيمية مكانها على المنصة، وكانت الهيئة تتشكل من أربعة عشر حَكَماً من الاساتذة المبرزين من السودان، وسوريا، وماليزيا، واندونيسيا، ومصر والجمهورية الاسلامية في ايران.

والمحكمون هم:

١- فضيلة القارئ الشيخ أبوالعينين شعيشع-مصر.

٢- فضيلة القارئ الشيخ الشّحات محمّد انور-مصر.

٣- فضيلة القارئ الشيخ سيّد متولّي عبد العال-مصر.

٤- الأستاذ علي أربابي-ايران.

٥- الأستاذ عبدالرسول عبائي-ايران.

٦- الأستاذ علي اكبر حشمتي-ايران.

٧- الأستاذ مصطفىٰ صدرزاده-ايران.

٨- الأستاذ علي پرهيزكار-ايران.

٩- الأستاذ حاضر الجاه محمّد-السودان.

١٠- الأستاذ محمّد عربي القباني-سوريا.

١١- الأستاذ سعيد حسين المنوّر-اندونيسيا.

١٢- الأستاذ أمين غنيوة-ليبيا.

١٣- الأستاذ حسن أظهري-ماليزيا.

والجدير بالذكر أن القناة الثانية للتلفزيون، واذاعة القرآن الكريم قامتا

بتغطية المسابقات ونقلها على الهواء مباشرة.

وفى اليوم الخامس اختتمت الدورة الثامنة لمسابقات حفظ وتلاوة القرآن في حسينية الامام الخميني(قدّس سرّه)، حيث استضاف قائد الثورة الاسلامية، وليّ أمر المسلمين سماحة آية اللّه السيّد علي الخامنئي –حفظه الله– جميع المشاركين فى المسابقات من حفاظ وقراء وهيئة التحكيم وضيوف مشاركين آخرين، وافتتحت المراسم بتلاوات لقرّاء من الاشبال الايرانيين (أُميد حسني زاده وجواد فروغي) ثم تقدمت الى المنصّة مجموعة «أهل البيت» للتواشيح الدينية التابعة لمنظمة الأعلام الاسلامي، ثم نعم الحاضرون بانوار القرآن الكريم من ثلاث تلاوات لفضيلة القارئ الشيخ أبوالعينين شعيشع وفضيلة القارئ الشيخ الشحّات محمد أنور وفضيلة القارئ الشيخ سيّد متولّي عبد العال –على التوالي–.

ثم تلا السيد إمام جماراني تقريراً عن هذه المسابقات وبعده تلا الفائز الاول «حميد الهِرَوي» آيات عطرة من القرآن الكريم، واعلنت النتائج وكانت كما يلي:

في مرحلة تلاوة القرآن الكريم:

الفائز الاول: حميد الهِرَوي من الجمهورية الاسلامية الايرانية.

الفائز الثاني: صلاح أحمد ياموت من لبنان.

الفائز الثالث: شمس الدين من اندونيسيا.

وفي مرحلة حفظ القرآن الكريم:

الفائز الاول: محمّد كاظم بافتي كرامي من الجمهورية الاسلامية في ايران.

الفائز الثاني: أحمد الدّبّاغ من المجلس الاعلىٰ للثورة الاسلامية فى العراق.

الفائز الثالث: طارق عبدالغني أوب من ليبيا.

واختتمت المراسم بكلمة قائد الثورة الاسلامية حيث قال مخاطباً الحفّاظ والقرّاء:

«القرآن مشعل الهداية، والامة المرتبطة بالقرآن الكريم تمتاز بمسيرة

وحركة تختلف عن الآخرين، ويسعى اعداء الاسلام -اليوم- لاستغلال ابتعاد الشعوب عن القرآن الكريم وسحق قيمه وتعاليمه».

واشار سماحته في كلمته الى دور النظام الشاهنشاهي الطاغوتي في ابعاد الشباب والناشئين عن القرآن وأكد على ضرورة الاستئناس بكتاب الله العزيز وقال:

«يجب على الشباب والاشبال والناشئين أن يوثقوا علاقتهم بالقرآن الكريم ويزدادوا أُنساً به يوماً بعد يوم، وكذلك يجب على العوائل والأُسَر أن تنشر شذى القرآن واريجه العبق في جو البيت».

وقال سماحته ايضاً:

«يجب على الناس ان يقرأوا القرآن الكريم ويتدبروا ويفهموا ويطبقوا أحكامه ويعملوا بتعاليمه. فالقرآن بحر عميق واسع لا ينضب، وكلّما تعمقنا فيه وجدنا المجال الى التعمق اكثر واسع».

وفي ختام كلمته ابدى سماحته شكره للقائمين بالمسابقات والمشاركين فيها ودعا للجميع بالتوفيق في خدمة كتاب الله العزيز.

بعدها قام الفائزون باستلام جوائزهم من أيدي سماحة قائد الثورة الإسلاميّة المباركة.

إقامة الدورة الرابعة للمسابقات الدولية في سوريا

أقامت الملحقية الثقافية للجمهورية الاسلامية في ايران بالتعاون مع وزارة الأوقاف السورية الدورة الرابعة للمسابقات الدولية لحفظ وتلاوة القرآن الكريم .

وقد استمرت هذه الدورة مدة اربعة ايام وشارك فيها ٢٠٠ قارئ وحافظ من مختلف البلدان الاسلامية .

ثم اختتمت الدورة بحضور جملة من المسؤولين في كلا البلدين وقد حصل المشارك الإيراني في هذه المسابقات (مرتضىٰ رهنما) على الجائزة الاولى في تلاوة القرآن الكريم وحصل شِبلٌ سوري في الرابعة من عمره على الجائزة الاولى في حفظ القرآن الكريم كاملاً.

المراكز القرآنية

دائرة الشؤون القرآنية والمعارف الاسلامية في وزارة التربية والتعليم

تصدر المعاونية التربوية في وزارة التربية والتعليم تعليماتها السنوية للمدارس في أرجاء الجمهورية الاسلامية، من أجل توسيع النشاطات القرآنية وتفجير الطاقات الكامنة في الطلاب، في مجال حفظ القرآن الكريم وتلاوته، وفيما يلي لمحة سريعة عن هذه التعليمات:

١- أسبوع القرآن الكريم

تقرير اعتبار الاسبوع الأخير من شهر «دَي» (الموافق للاسبوع الثاني من شهر كانون الثاني يناير) في كل عام أسبوعاً للقرآن الكريم، وذلك من أجل الاهداف التالية:

أ- ايجاد الرغبة والاندفاع في المؤسسات الطلابية لغرض توسيع رقعة النشاط الطلابي في المسابقات والحلقات التعليمية للقرآن الكريم.

ب- انزال القرآن الكريم الى المجتمع، وخلق الاجواء القرآنية لشد الناس الى كلام اللّه عن طريق اقامة المعارض القرآنية، وتأسيس الدور المتخصصة بشؤون القرآن الكريم، وتقديم النماذج العملية، واقامة المسابقات المتنوعة والأُمسيات القرآنية.

ج- اقامة المسابقات القرآنية على مستوى المؤسسات التعليمية في كل انحاء البلاد.

د- ايجاد جوّ تبليغي سليم ومناسب للدعوة الى التمسك بأحكام القرآن الكريم والعمل بتعاليمه من خلال وسائل الاعلام المقروءة والمرئية.

ه- ايجاد التعاون والتفاهم بين الاولياء والمربين لاحياء البرامج القرآنية من قبيل: احتفالات ومسابقات قرآنية وعقد الندوات والامسيات القرآنية على مستوى المدارس والمناطق والاقضية والمحافضات.

وقد دوّنت المناهج الكفيلة بتحقيق الاهداف المذكورة اعلاه.

٢-المسابقات القرآنية

تقام مسابقات سنوية في مجال حفظ القرآن الكريم وتلاوته بين ١٠ مجاميع طلابيه[١] ويتم ذلك تحت اشراف لجنة تسمّى «المركز القرآني» تقوم بتأمين الاحتياجات المادية واعداد المحكمين ذوى الخبرة وانتخاب الف طالب من كل الاقضية والمحافظات وارسالهم مع أساتذتهم الى مخيمات تقام في مناطق مختلفة في كل عام لهذا الغرض، وتجري هذه المسابقات على النحو التالي:

يجتاز المشاركون امتحاناً تحريرياً ومن ثم امتحاناً شفوياً، وتجمع نقاطهم لاختيار قارئين من كل مجموعة (٢٠ طالب و٢٠ طالبة) باعتبارهم الفائزين في تلك الدورة فتعلن اسماؤهم وتقدم لهم الهدايا مع لوحة تذكارية تقديراً لجهودهم في حفظ القرآن الكريم وتلاوته.

٣- اعداد كوادر لتعليم وتدريس القرآن الكريم.

قامت الادارة العامة للثقافة والفن بواسطة المكتب التخصصي لشؤون القرآن الكريم باعداد مناهج مكثفة لتربية الكوادر الضرورية لسد الحاجة في البلاد.

وأما أهم الخطوات التي انجزها المكتب المذكور فهي كالتالي:

أ- إقامة دورة في طهران لإعداد الاخوات للاشتراك في التحكيم في المسابقات القرآنية.

ب- إقامة دورة في طهران لاعداد الأخوات للتدريس.

ج- اقامة دورات لإعداد المعلمين (للقرآن الكريم).

د- إقامة دورات لإعداد المعلمين من الاخوة والاخوات في مراكز المحافظات والمدن.

٥- التمهيد لإقامة دورة لإعداد المدرّسين (الإخوة) في طهران.

وقد تخرج ٣٠٠٠ شخص من مجموع الدورات التي اقيمت لاعداد المدرّسين والمعلّمين.

الهامش

---

(١) من الصف الثالث الابتدائي الى السادس الاعدادي وضمن اربع مراحل (على نطاق المدرسة ثم القضاء ثم المحافظة ثم البلاد).

* * *